

ذكريات طفولة ١؛
مارسيل بانول



زمن الحب

ترجمة : محمد سيف

سلسلة كتاب شرقيات للجميع (٤٣)



ذكريات طفولة [١٤]

زمن الحُبِّ

Souvenirs d'enfance (4)

Le Temps Des Amours

Marcel Pagnol

Editions de Fallois

ذكريات الطفولة (٤)

زمن الحب

مارسيل بانيول

ترجمة: محمد سيف

الطبعة العربية الأولى ١٩٩٧

© حقوق النشر محفوظة لدار شرقيات ١٩٩٧



دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥٥ محمد صديقي، هدى شعراوي

رقم بريدي ١١١١١

باب اللوق، القاهرة

ت: ٢٩١٣ - ٣٩ س.ت: ٢٦١١٩٨



صدر هذا الكتاب

بالتعاون مع

البعثة الفرنسية

للأبحاث والتعاون

قسم الترجمة

القاهرة

غلاف وإخراج: ذات حسين

لوحة الغلاف

تفصيلة من «فتاة في الحديقة» مونية

رقم الإبداع: ١٩٩٦/٨٢٣٧

الترقيم الدولي: 2 - 013 - ISBN 977-283

ذكريات طفولة [٤]

مارسيل بانيول

زمن الحبر

ترجمة : محمد سيف



دار شرقيات للنشر والتوزيع

يجد القارئ هنا الفصول التي كتبها مارسيل بانيول ليصوغ منها روايته «زمن الحب»، والتي تم العثور عليها بحملاته بعد وفاته. وقد تمت الإشارة إلى تواريخ، وظروف وقصة تأليف هذا الجزء في نهاية الكتاب.

كان مارسيل بانيول شديد التعلق بالكمال والإجادة. ونحن نعرف أنه كان يصدد الانتهاء من هذا العمل. وربما كان ينوي إضافة لمسات جديدة إلى بعض هذه النصوص. أما بعضها الآخر - وهو كثير - فمن المؤكد أنه اعتبرها قد اتخذت شكلها النهائي، لأنه سمح بنشرها في عدد من المجلات.

ونحن بنشرنا لزمن الحب بحالتها التي تركها لنا عليها مارسيل بانيول. نأمل أن نرضي رغبات الملايين من قراء «ذكريات طفولة» الذين ينتظرون هذه الصفحات يصبر نافذ. ونعتقد بأننا نضيف على هذا النحو إضافة هامة في التعريف بعمل واحد من أكبر الكتاب الفرنسيين المعاصرين.

الناشر

الجماعة السرية

لم يحدث إلا بعد ذلك بكثير أن اكتشفت الأثر الباهر لحياتي المدرسية الجديدة، إذ لم تعد عائلتي، العزيزة، هي محور كل وجودي. فلم أعد أراها إلا أثناء وجبة المساء، وعندما كنت أتحدث عن المدرسة، لأجيب عن أسئلة أبي أو بول، لم أكن أتحدث معها في كل شيء وكنت أتحدث كرحالة يقص قصصاً عن البرازيل أو كندا للذين لم يذهبوا أبداً لهذه الأماكن، وليس بمقدورهم فهم كل شيء فيها.

ومع أن بول، أحس بوضوح أنني أصبحت غريباً عنه. لم يتقص ذلك من حبه لي. بل لقد ازداد إعجابه بي، رغم أننا لم نعد نلعب معاً. ففي أيام الخميس. كان أصدقاءه الصغار يأتون إلى المنزل، بينما كنت أذهب أنا مع لانيو وشميدت للعب كرة القدم، أو ركوب الدراجة في حديقة بولري. وأصبحت لي أسراري الخاصة، فكنت أحياء في عالم آخر، عشت فيه بشخصية جديدة، لم يكن هناك اعتراف بها بالتأكيد.

وعندما أستعرض السلسلة الطويلة من الشخصيات التي عشتها في حياتي، أسأل عن ذلك الشخص الذي كنته كل مرة، فمع أمي، كنت غلاماً صغيراً مطيعاً متفانياً. متهوراً أحياناً، وضعيفاً أحياناً أخرى ؛ ومع كليمتين، كنت متفرجاً مندهشاً باستمرار، ولكنه متفوق بقوته الجسمانية التي لا تضاهي (أعني لا تضاهي بقوتها هي) ؛ ومع إيزابيل، ركضت على أربع، ثم هربت، متقززا ... ثم، بالمدرسة الثانوية، أخيراً، كنت زعيماً، ومنظماً مأكراً، ولم أكن أرغب إلا في شيء واحد، هو عدم إدخال أهلي في المملكة التي اكتشفتها، خشية ألا تكون مكاناً مناسباً لهم .

من بين الطلاب الخارجيين، لم يكن لنا إلا صديق واحد حقيقي، هو ميرينو. وكان طويلاً، أسمر ذا أنف بارز «معقوف». وكانت له ادعاءات بالأناقة.

لا بد من الاعتراف بأنها كانت تذوي، مع نهاية الفسحة الأولى بالكثير. وقد استحق أن يحتل مكاناً في قاعة مذاكرتنا، بسبب قوة لغته، وثرأ خياله المفسد، لكن ما كان محل إعجابنا فيه قبل كل شيء، هو سعة معارفه الطبية .

كان أبوه طبيباً شهيراً بالفعل، في مرسيليا، معروفاً بدقة تشخيصه أكثر مما هو معروف بإخلاصه وطيبته .

وكانت لديه، بالطبع، مكتبة كبيرة، ولأنه كان مشغولاً باستمرار بصعود ونزول سلالم بيوت الفقراء، فقد كانت هذه المكتبة تحت إمرة ابنه. فكان يقرأ بسريره في المساء، بنهم المراهق، كل ما يتعلق بوظائف التناسل، وكان يأتي بحصاده هذا إلى المدرسة. وقد شرح لي بدقة، في عشر دقائق، الطريقة التي جاءت بي إلى العالم، والتي كان ليلي -وهو حارس قطع- قد لخصها لي بإيهام وهو خجل بعض الشيء، على حين أن ميرينو توغل في شرح التفاصيل دون أن يشعر بأي خجل، بل كان يغمز بعينه وهو يقهقه. بعد ذلك، وبفضل تقدمه في القراءة. حكى لنا عن الأمراض الكريهة. وجاء لنا ذات يوم بصورة مذهلة، قطعها من قاموس «لاروس» الطبي، تمثل إثيوبياً تعساً، مريضاً بالجذام المداري، يترنح وهو يدفع أمامه عربة محملة. ولقد أفدنا إفادة قصوى، بفناء الخارجية، من هذا التعليم، حتى أنني أعلنت بأنني، من منظور المعرفة النافعة، مدين لميرينو بأكثر مما أنا مدين لأساتذتي في النحو المقارن، على الرغم من أنني عرفت منهم باللغة الساكسونية القروسطية لإنجيل أوفيلاس .

لم يتميز ذلك العام، عام الصف السادس، بأية أحداث تستحق الذكر، اللهم إلا تأسيس الجماعة السرية، التي لم يكن لها من هدف إلا أن تظل سرية، والتي لم تنشأ انطلاقاً من انتفاضة أو مذهب وإنما نشأت في ظروف عارضة تماماً.

كان والد بيرلوديه واحداً من مستوردي البن، وكان يبيع قهوته المتميزة في

أكياس ورقية صغيرة، مغلفة بدبابيس من الحديد الأبيض المقطع، كان لها شكل ورقة الشجر ذات الأربعة فروع (الترفل)، مطلية بالبناء الحمراء التي تلتصع بشكل بديع .

وكان بيرلوديه قد «اختلس» عشرين دبوساً من هذه الترفلات، وأتى بها إلى المدرسة بغير تصور محدد لاستعمالها . ويعود لي أنا شرف المبادرة عند رؤيتها للمرة الأولى بالتفكير باستخدامها في إنشاء جماعة سرية شعارها (ورقة الترفل الحمراء)، وهي التي جرى تأسيسها (سراً) أثناء فسحة الثانية عشرة والتصف ظهراً .

وتكونت هذه الجماعة في البداية من أربعة أعضاء هم: بيرلوديه، ونيلب، ولانيو، وأنا .

وقد بدأنا بأن جرحنا أطراف أصابعنا الوسطى (بواسطة سن ريشة جديد) وأسأل كل منا نقطة من دمه، وأرقتنا هذه النقاط الأربعة على صورة لوجه «فيرسانجيتوريكس» الزعيم العالي القديم، نزعناها من موجز كتاب التاريخ الخاص بلانيو. ثم طويانا هذه الورقة المقدسة أربع طيات وأحرقناها في ركن من أركان الفناء .

إنني أتساءل اليوم عن دلالة ظهور هذا الزعيم «الأوفيري» في حكايتنا، لقد كنا بلا شك نريد أن نربط مشروعنا بأبعد نقطة في ماضي الوطن، في الوقت الذي نكرم فيه نموذج الشجاعة المأساوية. ولابد أيضاً من ذكر أن هذه الصفحة بالذات كان لانيو يحتفظ بها في جيبه، وأن جماعة (الترفل الحمراء) قد غيرت اتجاهها بعد ذلك تغييراً كبيراً .

بعد ذلك شبكتنا الدبابيس الحمراء على قمصاننا، بمنتصف الصدر تماماً، تحت سترتنا السوداء. وكان علينا، في حالة لقاء أي عضو من الأعضاء بعضو آخر، أن يكشف له صدره عن الدبوس، وهو يهمس: «فيرسانجيتوريكس» .

وأعلن بيرلوديه، الذي كان يفتقد الشاعرية، أنه يرى من الحماسة أن نقوم بإشارات التعارف في الوقت الذي نعرف فيه بعضنا البعض جيداً .

ورد نيلب بأن ملاحظة كهذه تجعله عرضة للسخرية للأبد، وقلت (همسا) :

— الآن، نحن لسنا إلا أربعة ولكن ماذا إذا أصبحنا ألفاً؟

وكانت هذه النبوءة المتفائلة سبباً لأن يقع الاختيار على كرئيس أعلى لهذه الجماعة، ولأن أضغ دهبوسين بدلاً من واحد .

في مساء اليوم نفسه اخترعت نوعاً من الكتابة السرية، قوام أحرفها الدوائر . والمثلثات، والصلبان، والأرقام والأحرف المائلة وعلامات الاستفهام، ومن عدة علامات ذات أشكال متلوية وأعطيت نسخاً منها للأعضاء . وبدأنا نرسل لبعضنا بها الرسائل، بطريقة: «مرّر» بمعنى أن أعهد بالرسالة المطوية أربع طيات لريموسا، وأنا أقول له همساً: «مررها لبيرلوديه» فيعطئها لشميدت الجالس أمامه . ويمررها لشميدت ليلترامي، الذي يضعها أخيراً أمام المرسل إليه ولم يكن هؤلاء الناقلون الخدومون ليفوتوا فرصة فتح الورقة في الطريق، ليتفحصوا هذه الهيروغليفية باهتمام شديد، ويتشكك أحياناً، وعندما كانت الرسالة تصل أخيراً إلى بيرلوديه، كان الناقلون ينظرون إليه، في فضول لمعرفة ماذا سيفعل .

وكان بيرلوديه يتأكد أولاً من أن انتباه السيد باير منصب بعيداً (أي على جريدته) . فيفتح الورقة على الفور، ويظهر عليه أنه فك رموزها من أول وهلة عندئذ كان يستدير ناحيتي ويجب بإشارة من رأسه، في وقار، بأنه قد تلقى أمر الرئيس الأعلى.

وسرعان ما أثارت هذه الدسائس —التي تكررت بالفصل وقاعة المذاكرة فضول كل زملائنا. وصرنا مزهوين بذلك، فمن ذا الذي ينتمي لجماعة سرية لايعرف عنها أحد شيئاً؟ لذا صار الهدف من نشاطنا هو الحفاظ بصرامة على

سرية الجماعة، وهو الهدف الذي كان سهلاً، إذ لم يكن لنا أي نشاط غيره.

كان ميرينو هو أول من طلب الانضمام إلينا وظل ترشيحه محل فحص طويل، لأنه كان طالباً خارجياً، ثم قبلنا انضمامه. وبناء على ترشيح من نيلب، قبلنا انضمام فالابريج، الذي كان هو الآخر طالباً خارجياً، ولكن بالصف السادس ب، فقد بدا لي أنه من الحكمة ضم «العبقريات» من ذلك الفصل البعيد، الواقع في أقصى الرواق الخارجي.

كان كل عضو يقدم لي تقريراً كل سبت -بالهيوغليفية- عن أحداث الأسبوع، وكنت أقرأ ملخصاً لهذه التقارير، للمجلس الأعلى، أثناء فسحة الساعة الرابعة.

وصار عددنا عشرين شخصاً، آتين من الفصول الخمسة للصف السادس. وتقدم لنا عدد كبير من الطلاب الخارجيين بولاعات الطاعة ليحصلوا على العضوية، تلك الولاعات التي تمثلت في هدايا الكراملة الطرية، والحلوى المسكرة، والطوايع النادرة، والبلي الشمين، وقد أعلنت رفضي لهذه الرشاوى باحتقار.

مع ذلك، فقد أخطأت خطأ شديداً باستبعاد ترشيح كاركاسون، لأنه كان قد (كبل) لانيو، أثناء نزوله جرياً، على سلم فصول الرسم.

وكان في ذلك خسارة لنا، لأنه إذ كان والد بيرلوديه هو الذي يستعمل دبابيس الترفل الحمراء، فإن والد كاركاسون هو الذي كان يصنعها بالملايين. ولم يقل ذلك الخائن شيئاً عن هذا الأمر، لأنه كان قد أعد انتقامه.

فقد أتى ذات يوم بحفنة من هذه النياشين الغامضة، وقام بتوزيعها في الخفاء على كل من هب ودب في فصول الصف السادس والصف الخامس؛ فعند دخولنا إلى فناء الخارجية، بفسحة الساعة الثامنة إلا الربع، فقد المجلس

الأعلى ماء وجهه، لأن ثلاثين أحمق، راحوا يقلدون حركات تعارفنا وهم يضعون شارات الترفل الحمراء.

ثم قدم لي كاركاسون، أمام حلقة تجمعت من الساخرين، مربعاً كرتونياً مغطى بكتابه هيروغليفية، أعلن للجميع بأنه يحمل تحيات فيرسا نجييتوريكس، الأمر الذي أهاج عاصفة من الصياح والاستهزاء. ورددت عليه بركلة قوية في قصبة رجله، وبصق لانيو في وجهه. واصطف الأعضاء حولي، ونشبت معركة كبيرة، أنهاها قرع طيلة واترلو الذي أعلن عن موعد التوجه للفصل.

بهذا الشكل، انتهت جماعة الترفل الحمراء السرية عقب ست أسابيع من الازدهار، تلاشت بعدها في طوايا النسيان.

لعبة المشنوقين

بلا أي قلق، بل على العكس بفرح حقيقي، غادرت المنزل ذات صباح من أكتوبر للعودة المدرسية التالية، التي كنت قد انتقلت فيها للصف الخامس أ، ولم يصحبني في ذهابي أحد، وحملت حقيبتي المدرسية على ظهري، واضعاً يدي في جيوبي، ولم أكن بحاجة لرفع رأسي بالطريق للتعرف على أسماء الشوارع.

فهذه المرة لم أكن ذاهباً باتجاه سجن لا أعرفه، يعج بالجمهور من الغرباء، بل كنت على العكس ذاهباً، لألف موعد مع أولاد من سني، وممرات ألفتها، وساعة صديقة، وأشجار دلب أعرفها وأسرار تخصني. وقد وضعت سترتي الجديدة التي أعدتها لي أمي في حقيبتي وأغلقتها عليها، وارتديت سترة العام

المتصرم، التي أحضرتها «خفية» والتي صارت بمزقها، وتموعات قماشها التي لا صوت لها، ذات وير يميز أقدميتي بالمدرسة، وصحبت دخولي للفناء عاصفة من التحيات فلم أعد بعد ذلك «الجديد» المغترب، المشلول الحركة والوحيد، والذي تدور رأسه في كل الأنحاء بحثاً عن ابتسامة، أو ربما صداقة، فحين دخلت بسترتي الممزقة، اندفع ناحيتي لانيو، ونيلب، وفيجيلاتي وهم يصيحون ورددت عليهم بقهقهة عالية، وراح لانيو يرقص من الفرح. ثم جرينا جميعاً لاستقبال بيرلوديه ؛ وكان يحمل تلاً من الألعاب التي أتى بها من الجبل يكاد يصل إلى ما تحت عينيه، وكانت أكمام سترته منحسرة إلى منتصف ساعديه. ولكي يبدأ عامه الدراسي، أخرج من جيبه (بمبة) وقذف بها مباشرة بين قديمي تلميذ «مستجد» وأدار له ظهره، فقفز هذا قفزة جدي مدعور، كأنه قد طار بفعل الفرقة، وولى هارباً بغير أن يجسر على النظر خلفه قبل بلوغه نهاية الفناء. .. ثم ذهبنا جميعاً وجلسنا على الدكة تحت السقيفة وبدأنا نثرثرتنا.

كان هذا العام الدراسي يبدو لنا ممتعاً من بدايته، لأننا علقنا آمالاً كبيرة على أننا سندرس لدى السيد بيدار، الذي كان فصله يشبه الاجتماع القوضوي. فقد كنا حين نمر أمام بابه، نسمع الصياح، والنواح، والألحان الجماعية أحياناً، وعواصف الضحك، التي يتوق للمشاركة فيها أكثر الناس هدوءاً. وذات يوم لم يستطع بيرلوديه نفسه أن يقاوم إغراء الاستمتاع بهذا الفصل. فما كان منه إلا أن طرقه ودخل وقدم نفسه وهو يحول عينيه، ويعرج ويتلعثم، على أنه تلميذ جديد، وسجله بيدار الطيب تحت اسم باتورو فيكتور، المحول من مدرسة القلب المقدس بمدينة «بالافاس لي فلوت» ولمدة أكثر من ساعة راح التلميذ الجديد يتقوه بالبناءات التي كانت تسمع من خلال الحاجز وتخجل كل الفصل ؛ حتى طرده بيدار أخيراً وعاقبه بالاحتجاز ليوم أحد، وهي العقوبة التي ظلت ورقة تنفيذها تبحث، ربما للآن، عن صاحبها المسمى باتورو فيكتور .

كنا سعداء إذن لفكرة أننا سنقضي عاماً كاملاً في فردوس الكسالي، وقد

جهاز كل من بيرلوديه ولانيو نفسيهما لذلك، ورأيت أنهما قد قررا أن يخلقا المناخ الموائم لذلك من الأيام الأولى. كان مع بيرلوديه في جيبه «أربعة أحجار مارتينيكية عبارة عن أقراص صغيرة مغطاة بطبقة من الفوسفور. وكانت هذه الأحجار السحرية عند الدق بها للدوران على خشبة الأرضية، تطلق حزماً من الإشعاعات المقطعة. كما كان معه أيضاً «السائل المبرد» الذي كان يريد أن يجلد به مقعد بيدار، وصفارة صغيرة من الجلد لينادي بها على الشحارير تزغرد عند أقل ضغط. أما لانيو، فقد أراني عليه ثقاب كبيرة جداً، ووضعها على أذني فسمعت خرفشات، ثم خبطات صغيرة جافة جداً. وكانت هذه الأصوات صادرة عن جرادتين أتى بهما من الريف، واقترح أن يطلقهما بالفصل بعد أن يشبعها تماماً بالحجر. ورحنا نعد أنفسنا لمهرجان حقيقي في سيرك بيدار، وكنت خجلاً من نفسي تماماً لأنني لم أت بشيء معي إلا نيتي الطيبة.

وعندما قرع الطبل لأول مرة بالعام، لم نهرع جرياً «كالمستجدين» (أو كما فعل الطلاب الخارجيون)، وظللنا جالسين ساكنين في عدم اكتراث. لكي تثبت حركتنا. ولم نتحرك إلا بعد انتهاء قرع الطبل، ومضينا في خطوات غير حثيئة باتجاه قاعة المذاكرة.

وكان علينا أن نقضي عاماً ثانياً تحت رعاية السيد باير الذي عدنا إليه سعداء وهو يتسم لنا ابتساماً جميلة، قبل أن ينوح للمرة الأولى في العام الجديد: ما أبطأكم أيها السادة، ما أبطأكم.

ثم استنكرنا بشدة عندما اكتشفنا أن تلميذين جليدين - غير مدركين - قد جلسا في أماكننا فاتزعتاهما من المكانين بقسوة شديدة، وبدون أن نتكلم ونحن نمسك بهما من ياقبهما لإخراجهما من دكتنا.

وأثناء ما كان السيد باير يلقي كلمات قصيرة حول العودة المدرسية (التي بدا لي أنني قد سمعتها من قبل عشر مرات) بدأت ثرثرنا.

أرانا شמידت صفارة خشبية ذات صوتين، تقلد ضمن ما تقلد (قال لنا) صوت الوقواق، أتى بها من سويسرا خصيصاً من أجل يبدار، على حين فتح فيجيلانتي علبة مسامير صغيرة، كانت غليظة كمسامير صانع السجاد: «من أجل استعمالها مع الطلاب الخارجيين» كما قال، لأنه كان ينوي أن يرصها على مقاعدهم، وأطرافها الملمية لأعلى.

أخيراً، صعدنا باتجاه الخارجيين، مستشارين لدرجة أن الأزرق نفسه لاحظ ذلك فأوقف الطابور لكي ينظم الصف.

وصلنا بعد ذلك أمام باب الفصل الخامس أ ٢، المجاور لفصلنا القديم، وكان الطلاب الخارجيون قد سبقونا إلى داخله، ولم يكن يسمع لهم أي ضجيج. وأدار لانيو المقبض النحاسي، ثم رجع بخطوة عنيفة للوراء.

— ليس هذا هو الفصل، قال ... إنه الصف السادس.

لكن صوت سقراط دوى فجأة:

— ادخلوا أيها السادة!

ثم ظهر بنفسه أمام الباب، وحيا الأزرق بإشارة من رأسه، وكرر بتنفيذ صبر:

— ادخلوا!!

ودخلنا محاذرين، في الوقت الذي عاد هو فيه للصعود إلى مقعده.

وعندما اتخذنا أماكننا، قال، وهو يمسد لحيته الجميلة، ويتسمم ابتسامة عريضة.

— أيها السادة، لقد تجاوزت أنا أيضاً اختبارات النقل، فبما أن زميلي وصديقي السيد بيدار بلغ سن التقاعد، فقد شاء السيد مدير المدرسة أن يعهد لي بفصل الصف الخامس هذا، حيث يسعدني لقاءكم. وأتمنى أن تكون هذه

السعادة مشتركة...، إن لم تكن بين الجميع، فعلى الأقل بين الذين لديهم من بينكم إهتمام بالدراسة هذا العام.

وأجاب عليه الطلاب الخارجيون الجالسون في الصف الأول بهمهمات الإستحسان، وبالإبتسامات العريضة. على حين ترك زكريا رأسه تسقط بين يديه، وراح لانيو يردد في صوت خفيف وسرعة عجيبة، كلمة كامبرون (خراء).

ثم أعلن سقراط، وهو يفتح كراسه كرتونية:

— قبل أن ندرس معاً الأشعار الشهيرة.. الرومانية الأولى، سوف نبدأ هذا العام الدراسي بالتوقف عند دلالة المفعول المطلق.

ولم يجرؤ بيرلوديه، بسبب خوفه، على أن يلقي بأحجاره المارتينيكية، وسمعت صوت الجرادات الأسيرة تقرض علبه الكبريت في جيب لانيو.

وفاقم من عملية إستمرار سقراط معنا لهذا العام، استمرار يبتزو، أستاذ الإنجليزية، وبيتونيا الرياضي، والسيد ميشيل، الذي تغير منهجه تغيراً طفيفاً، فبدلاً من أن يحدثنا عن الفراعنة والمسلات حاول أن يثير اهتمامنا برومولوس العبثي، الذي اغتال أخاه، بعد أن رضع من ثديي ذئبة قذرين. لكي يؤسس الإمبراطورية الرومانية، ويزحم برامج التعليم الثانوي.

ولحسن الحظ ؛ بقي معنا أيضاً تينياس، الذي جرى استعمال كافة المواد التي كانت معدة من أجل مهرجان يدار لديه في حصص ما بعد الظهر، بغير أن يترك لي، في هذا العام، كالعالم الذي سبقه، أية ذكرى تستحق الذكر، رغم أنه قد بدأت بفصله عملية لانيو، التي تطورت عنها مباشرة عملية المشنوقين.

لا بد أولاً من إعطاء القارئ بعض الشروحات التقنية لهذا الأمر. فقد رسم لانيو، الذي كان يجيد الرسم بالأفلام الملونة، صورة كاملة لواحد من مدرسينا، وكانت هذه الصورة ملونة بشكل فاقع، وعلى ورقة كاملة من أوراق كراسه

الرسم، قصها بإحكام بعد ذلك بالاستعانة بمكشط .

أثناء ذلك، وضع بيرلوديه ورق التشاف، وصنع منه عجينة لزجة. وبلاستعانة بفكيه النهمين القويين، ولعابه المزد الغزير اللزج، زودنا في بضع دقائق بقطعة من العجين المتجانس اللاصق المطلوب. وغرست نصف عود من الكبريت بها بعد ربطه بقطعة خيط، جهزت في طرفها كرية لزجة. ثم ربطت به رأس الصورة المقطوعة، التي صارت على هذا النحو مشنوقة من رقبته. وانتظرت بعد ذلك إلى أن أدار لي تينياس ظهره، ثم، بحركة سريعة قذفت بالكرية في السقف، فلصقت به، وراح المشنوق يتأرجح مع كل مرة يفتح فيها الباب ليدخل منه تيار هواء.

كان تينياس هو أول المشنوقين. ولكنه لم يهتم حتى بمجرد الملاحظة ووجدناه في اليوم بعد التالي، طائراً، متأرجحاً، في طرف خيطه. ونفذنا هذه العملية بعد ذلك في الفراش ثم في بيتونيا، والسيد ميشيل، والأزرق، والمراقب وحتى مراقب عام الداخلية. ومنعنا الخوف من تنفيذها في مدير المدرسة، كما رفضت بسبب الصداقة تنفيذها في بتزو، وكذلك في السيد. باير. كانت هذه اللعبة مسلية، لكن لم يكن لها تأثير كبير، بسبب عدم اهتمام تينياس. أضف إلى هذا، أنه مع مضي ثلاثة أسابيع، تساقط المشنوقون. واحداً وراء الآخر، بعد جفاف عجائن بيرلوديه اللاصقة، فأعدنا لصقها على أمل أن نعلق بالسقف معرضاً كاملاً، ثم سرعان ما نسينا هذه اللعبة.

عقب ذلك بثلاث شهور، راح سقراط يضطهني، ولأنني تهورت وأجبت عدة إجابات حسنة، عصف بهدوئي، وراح يسألني كل يوم في القواعد، أو يطلب مني تسميع درس، وهو يطرح عليّ الأسئلة أمام الفصل إلحاح غريب وبالشكل الذي كان محل استنكار لانيو وإشفاف زكريا نفسه على حالتي. وحاولت جهدي أن أثني عزم سقراط المؤلم عن مواصلة ذلك معي بأن رحنت

أجيب على أسئلته إجابات بلهاء وذات يوم عندما رجاني أن أعطيه مثلاً عن مفعول مطلق ؛ قلت له: (الضغط المفاجئ) ، وهو ماجعلني عرضة لسخرية بعض الطلاب الخارجيين وللعقاب بكتابة ثلاث فقرات من الأشعار المشهورة.

لكن هذا المحشو السمين، بدلاً من أن يتراجع عن سؤاله، راح يمعن في السؤال، بما جعلني صرت أحلم في نومي بالانتقام منه.

وذات صباح، أطلعت لانيو وبيرلوديه بأثني قررت أن أشق سقراط في فصله، ورجوت لانيو أن يرسم لي بقاعة الذاكرة، وأن يحاول أن يجعل الصورة تشبه قدر الإمكان.

وبدا عليه الخوف من جرأة مشروعي، ولكن بيرلوديه صاح:

– لديه حق! فسقراط هو الذي يقوم بتعذيبه، وهو لن يستطيع تحمل هذا بغير أن يفعل شيئاً! ولكنه لو فعل ذلك كالعادة، فلن يرى سقراط شيئاً.

– وماذا لو أن أحداً أبلغه؟

– أولاً، كل صراصير الصف الأول لن يروا شيئاً، وبالصف الأخير لا يوجد إلا النماذج الطيبة. وغاية الأمر، أنه إذا وقعت عليه عقوبة بالاحتجاز، فسوف يكون ذلك مفخرة له. فممنذ أن دخل المدرسة الثانوية، لم يتعرض لأية عقوبة. وهذا بالأحرى أمر قبيح بالنسبة لطالب ممنوح. ارسم سقراط، واجعل له لساناً طويلاً متدلياً، منتفخاً شديد الزرقاء، فهذا سوف يكون عبرة له!

وطلب الفنان مهلة لأربع وعشرين ساعة، بحجة أنه لم يحمل معه أقلامه الملونة.

وكان يريد في واقع الأمر إعطائي مهلة للتفكير. لكن بيرلوديه قدم له في التو علب من الألوان المائية، فأجبره بذلك على العمل. وقام بعمل الرسم أثناء حصة الرياضيات ولونها بشغف خلال فسحة الثانية عشرة والنصف، لكنه رفض

أن يرسم لسان سقراط خارجاً من فمه لأنه كان سيخفي لجنته الجميلة البيضاء ولا يمكن بالتالي التعرف عليه. وقدر بيرلوديه وسوسة الفنان هذه عنده ولم يلح في طلبه، ثم، وأثناء حصّة المراجعة في الواحدة النصف، شرع في مضغ ورقة نشاف من نوع جيد.

في الساعة الثالثة إلا ربعا، وأثناء ماكانت الساعة المصلصلة تدق دقاتها الاثنتي عشرة. غادر سقراط مقعده، وطباشيره في يده، موليا لنا ظهره ليكتب على السبورة السوداء جملة لاتينية.

وكنت جاهزا تماما .

وبغير أن أحول عيني عنه، وفي حركة سريعة- وربما رشيقة- قذفت في اتجاه السقف بالكرية اللاصقة التي وضع فيها بيرلوديه كل عاطفته وبغير أن أرفع عيني، سمعت صوت التصاقها: «تشيك» ؛ ولكني سمعت في الوقت نفسه، ورائي، صرخة واهنة، صدرت عن ذلك الأبله زكريا، وكنت قد أخطأت بعدم إطلاعه على فعلي، فلم يستطع التحكم في التعبير عن خوفه وهو الخوف الذي شعر به لقرب جلوسه من فعل كهذا. وكانت لسقراط أذن رهيقة، جعلته يسمع الـ «تشيك» هذه والصرخة، فاستدار في التو نحونا. وكنت قد أحنيت رأسي بالفعل، ورحت أكتب في هدوء، وأنا مقطب تقطبية المشغول المنكب على العمل. وانتظرت رد الفعل، ولكن، ولمدة ثلاثين ثانية لم يعكر الصمت العميق شيء.

كان لانيو ماهرأ في النظر في الاتجاهين بوقت واحد، أقصد أنه كان متمكنا من رؤية سقراط وهو يتظاهر بأنه ينظر في كراسته. وراح يهمس لي:

- انتبه، فقد رأى صورة المشتوق.

وسمعت غمغمات ضعيفة، وشعرت بالجالسين في الصف الأول ينظرون

للخلف نحونا وكنت أوصل الكتابة في حزم... لكن شيئاً لرجاً وقع فجأة فوق رأسي، وانفجر الفصل بالضحك؛ وغمغم لانيو: «اللعنة!» فقد كانت عجينة النشاف فيما يبدو لينة أكثر من اللازم، أو ربما كانت الكرية أكبر من اللازم، أو ربما كان السقف بالفعل شديد القنارة، مما جعل، لأي سبب من هذه الأسباب، الصورة التي قذفت بها بمتعلقاتها تسقط على رأسي، وراح سقراط المشنوق يتأرجح أمام أنفي.

وأمسكت به في التو، ورحت أنظر إليه كمن فوجئ وكأنني لم أراه من قبل أبداً ثم، وفي حركة استنكار، فركته بين أصابعي، حين أوقفني سقراط الحقيقي، أي سقراط مدرس المفعول المطلق، بلهجة حاسمة:

– أنت هناك، أيها السيد. تعال هنا فوراً ومعك ما في يديك. وبخطوة آلية ذهبت حتى المنصة. وأنا أحاول أن أوهم نفسي بأنني لم أخسر المعركة حتى هذه اللحظة.

وأمسك سقراط بكرة الورق، وراح يفردها بعناية شديدة في الوقت الذي راحت تسقط فيه كرية بيرلوديه اللاصقة على قدميه في قطع صغيرة، وقال:

– إن هذا بالطبع رسم لشخصي، فاللحية تشبه لحيتي تماماً، واللون الأزرق للعينين مبالغ فيه.

وانفجر الفصل بالضحك، وجهدت لكي أنصنع مشاركتهم في ابتهاجهم العام، كما لو أنني لا أتحمل أية مسؤولية بالمرّة في هذا الفعل.

لكن سقراط تابع:

– لكن الأمر مع ذلك يعتبر إهانة شخصية يجب معاقبة المسؤول عنها. وهذا المسؤول لم أراه أنا وهو يفعل فعلته. (واستلدار نحوي) لكن لسوء حظك أن هذا الكاريكاتير سقط على رأسك، ويبدو لي بديهياً أنه سقط في نفس الاتجاه

صعوده. وهو الأمر الذي يثبت أنك أنت الذي قذفت به للسقف.

وضحك الفصل من جديد، بينما أحنيت أنا رأسي ويدي معقودتان خلف ظهري، وأنا صامت تماماً.

- والأدهى. أنه بدا لي أنك راغب جداً في تمزيق هذا العمل الفني. ثم إنك لم تواتك الجرأة على الصباح صبيحة البريء، وهذه كلها ليست سوى تخمينات، ولكنها قوية بما يجعلني أوجه إليك الاتهام، وأجذني مضطراً لتوقيع العقاب عليك كما لو أنك الفاعل.

وأسلك بصورة المشنوق ورفعها للحظة أمام عينيه.

- لقد حكمت عليّ بالشنق، وسأكون أقل شراسة معك، وأكتفي بأن أعاقبك بالاحتجاز ساعتين يوم الخميس المقبل. ومن جهة أخرى، ولأنني يبدو لي أنك بحاجة إلى بعض الوقت للتفكير في احترام أساتذتك، فسوف تقضي الفترة من الآن وحتى نهاية اليوم في قاعة المراقبة، حيث تجد هناك مناخاً ملائماً تماماً للتفكير. وسأعطيك ورقة بهذا الخصوص.

وجلس إلى المقعد، وكتب ثلاثة أسطر على ورقة بالعقوبات. وعدت إلى دكتي لأخذ كتيبي وكراساتي. كان لانيو شاحباً تماماً، ولكن بيرلوديه غمز لي بعينه فرحاً.

وفي صمت شنيع. خرجت.

كانت العصافير تنقر ساعة في الفناء الخالي، وكان الرواق الطويل خاوياً على مدى البصر، وتوقفت وراء عمود، وفتحت ورقة العقوبة، وقرأت، تحت اسمي، هذه العبارة:

«حاول أن يلصق بالسقف صورة كاريكاتورية لأستاذه.»

ولم يكن ذلك إلا الحقيقة، وليس لي الحق في أن أشكو، وتابعت طريقي وحيداً، وأنا أمر على نوافذ الفصول، وأرى من خلال الزجاج التلاميذ الذين يحيونني بتقطيعة من وجوههم أو بغمزات من أطراف أنوفهم.

وخطر لي فجأة أنني قد أكون عرضة للقاء طائر الموت، أي مراقب الخارجية. فهزئت أكتافي، وقلت لنفسي بصوت عال:

«وما الذي بمقدوره أن يفعله بي أكثر مما حدث؟» فقد شعرت أنني في أقصى حالات بؤسي المدرسي، وجعلتني ضخامة الكارثة لا أعبأ لا بالقدر فحسب، بل حتى بطائر الموت نفسه، فقد كنت فاقداً للشعور كالميت.

وتوجهت نحو قاعة المراقبة. وكانت نوعاً من المستودع للطلاب المعاقبين، بالطرد، والتشريد. ولم أكن قد دخلتها من قبل، ولكننا عندما كنا نذهب إلى فصل الرسم، كنا نمر أمام بابها، وكان عالياً وضيقاً، وذو مصراعين. وذات يوم، رأيت صفاً من التلاميذ من كل الأعمار يخرج منها، ولم يكونوا في حالة اللهو المرح، يتدافعون متصايحين من الفرح، وإنما كانوا جميعاً يسرون ببطء في موكب للنادمين، البعض منهم مقطب، والبعض متجهم، والبعض تبدو عليه ملامح السخرية الكثيرة

وترددت لحظة أمام هذا الباب المميت. وتنفست بعمق عدة مرات، وزررت سترتي، وبهد مضطربة بعض الشيء، فتحت.

وفي عمق الصالة الضيقة والطويلة كانت تلمع نافذة عالية انقسم في انعكاس ضوئها ظل رجل جالس، منحني على طاولة عريضة سوداء سواداً جنائزياً. وإلى يميني كان الحائط البارد، وإلى يساري، كان صفان من الأدراج يعجان بالفعل بالمارقين.

واقتربت من الرجل الجالس، ورأيتة ينسخ، على أوراق مستقلة، العقوبات

التي يسجلها في سجل عقوبات ضخم، مفتوح إلى يساره. وقد اصطقت أما كالمروحة، أوراق الاحتجاز، التي ملأها والتي سيتم توزيعها، على أهالي المعاقبة في يوم الأربعاء القادم، فقد كان يعد بغير أن يبدو عليه إنفعال ظاهر عواصة الغضب الأبوية، وقد احتفظ وجهه الأمرد يبرود قاضي من قضاة الآخرة.

ونظر لي بغير أن تبدو عليه أية مفاجأة وقال بطريقة عملية:

— الاسم، واللقب، والفصل، والمدرس.

وأجبت على سؤاله بصوت لم أتعرف عليه، ومددت له يدي بورقة سقراط وقرأها، وهز رأسه، وكتب اسمي في العمود الأول على الصفحة المفتوحة لسجل العقوبات، وكتب في العمود الثاني بخط واضح: الصف الخامس أ٢ وكتب في العمود الثالث اسم لوبليتييه، وأخيراً كتب في العمود الرابع، الذي كان أوس الأعمدة، سبب العقوبة.

وكان خطه جميلاً.

وبغير أن يرفع رأسه، قال: «اذهب واجلس». ثم عاد لعمله.

وذهبت وجلست في الصف الثاني، بجوار طالب «من الكبار» كان بالقطع في الصف الثاني. وفتحت كتاب التاريخ، ونظرت حولي.

كان رفاق نكبتني من كل الأنواع: من الفصول العليا والمتوسطة والصغيرة ولكنهم جميعاً كانوا في حالة من الأسى... تسيطر عليهم قسوة المكان، منكبين في صمت على الواجب الذي لم يقوموا به، والدرس الذي لم يعوه، أو يتأملون في خضوع العواقب الرهيبة لسوء السلوك، وكان هذا الجمع من البلداء، والمتحذرين، والهازلين، الذين جمعهم الكسل، والوقاحة والكذب، يبدو كأنه جمع أكاديمي حصل على جائزة الامتياز. وكان الباب ينفتح من وقت لآخر، وكنا نرفع رؤوسنا -خفية- لنشهد دخول مارق جديد...

كان الجديد يعلق الباب وراءه بهدوء كما لو كان باب غرفة للمرضى، ويتقدم على أطراف قدميه لكي يتعرض للمساءلة السريعة، ثم، يأتي ليجلس بيننا منفذاً أمر الجبس في صمت قاتل.

وجاء الحدث الوحيد الذي زرع سلامنا المفتعل مع دخول واحد تعرض لغلطة صغيرة إجرامية فقد أحدث جلبة، بسبب براءته، وراح يحتج، ويصيح، ويكي، ويشهق، ولم يكن لديه منديل. وراح زميلنا هذا (وكان أحد الشرمين بالصف السادس) يخطب الأرض برجليه، مما جعله يستحق ساعتى الاحتجاز اللتين وقعهما عليه لحسابه الخاص الأستاذ الجالس في الظل والسكون ... عندئذ، زال عن البريء- الذي صار ملذنباً- شعوره بالظلم، فخرس، وجفف دموعه، وجاء ليجلس بين المعاقبين المحقرين.

كان سقراط على حق عندما قال لي إن هذا المكان يحث على التأمل. ولكن تأملي لم يذهب قط إلى فكرة الاحترام الواجب عليّ تجاه الأساتذة، فقد رحت ألوم نفسي بمرارة على عدم نجاح ضريتي، ورحت أفكر في كل الطرائق التي تمكنتني من إعادة تسليدها. وكانت أفضل طريقة هي أن أطلب من السيد باير، أثناء حصّة المذاكرة المسائية، السماح لي بالذهاب إلى الخارجية، بحجة البحث عن كتاب أو كراسة أكون قد نسيتها عمداً على دكتي. وفي الفصل الخاوي، سيكون بمقدوري أن أعلق صورة المشتوق لتتدلى فوق المنصة. أو لتتدلى فوق رأس بيكوت، نموذج الامتياز بيننا في الملوك وسيكون بمقدوري أن أنتظر بضع دقائق للتيقن من أنها محكمة الثبیت. وهكذا لن يكون لسقراط أي عذر لأن يشك بي. ولأن الصورة لن يكون من السهل إنزالها، لعدم وجود عصا طويلة تصل إلى ارتفاعها، فربما استدعى الفرائش أو ربما استدعى المراقب العام، وسوف يعرض نفسه للسخرية، أو ربما يتظاهر بأنه لم يرها، ليظل المشتوق يدور حول رأسه لمدة ساعتين، ليجعله الثور يخلط ما بين المفعول المطلق وفعل المستقبل ... لكن هذا الأمر كان غير ممكن، فقد

كانت عجيبة بيرلوديه ما تزال على رأسي، وكنت في غرفة المراقبة. وهكذا، لا بد من التفكير في أن المجرمين في سجنهم، يكرسون كل وقت بظلمتهم الإجبارية في التفكير في إحكام تقنيات عملهم الإجرامي والوصول به للكمال. لقد رحت ألوم نفسي لا على الجريمة التي فعلتها، وإنما على عدم كفاءتي في ارتكابها، واعتبرت أن حماقتي مسؤولة عن الوضع التمس الذي أنا فيه. ولم ترعيني قط فكرة أنني سيكون عليّ قضاء يوم الخميس التالي بالمدرسة، من الثامنة صباحاً للعاشرة. فلاينو، الذي كان زبوناً غالب الأحيان باجتماعات الكسالي هذه، أعطاني فكرة مسلية عنها. فقد كان يجلس فيها على المنصة أحد «البيادق» يقرب في الجرائد بينما يطالع المعاقبون بحرية أي شيء أو يشرثون بصوت خفيض. لذا فلم أكن فزعاً إطلاقاً من هذا الاختبار، وقد وجدت، من ناحية أخرى، أن بيرلوديه كان على حق، في أن الطالب الممنوح الذي لم يعاقب مطلقاً مثله مثل الضابط الذي لم يذهب أبداً للحرب.

لكن ما أفلتني، كان وضع جوزيف. فقد رأيته يشحب عندما أريته الشهادة المدرسية، التي كان عليه أن يوقعها وهو مخدول ... وراح يلومني على نكراني لجميل الجمهورية، التي أعطتني المنحة، وكان يتحدث وهو غاضب، ذلك الحديث الذي انتهى بأن صفعتني صفعتين. فراح بول ييكي، وجاءت لي أمي بعشائي في غرقي، وحزن هو حزناً شديداً. وقد حدثت هذه الكارثة بالطبع، من زمن بعيد. كنا يوم الجمعة. وما زالت بعد أمامي ستة أيام حتى مقدم ذلك الأربعاء المؤلم، عندما تأتي لحظة قول كل شيء بالمنزل. نعم تظل أمامي بضعة أيام أقضيها حتى ذلك الحين! وعليّ أن أفكر في خطة.

سيكون بمقدوري، على سبيل المثال، أن أسر إلى أمي بحالتي، حتى نعد هي جوزيف لتلقي الأمر. ويمكنني أنا، أثناء الطعام، أن أتحدث عن العدد الكبير من الطلاب الذين أراهم حولي يومياً توقع عليهم عقوبة الاحتجاز، قائلاً: «إني أتساءل لماذا لم أعاقب حتى الآن» ثم، أشرح كيف أن الأبرياء، غالباً ما

يعاقبون، وأنه أمر يشبه القانون بالمدرسة الثانوية أن يفلت من العقوبة مرتكبها الحقيقي، بسبب قدرته على المراوغة ... وطبيعي، أن أقول إن بيرلوديه كان هو الفاعل الحقيقي في مشكلتي هذه وأقص الموضوع وأنا أضحك، الأمر الذي سيضحك الصغير بول، ثم أمي، ثم -من يدري؟- فقد يضحك جوزيف؟

وعلى الرغم من أن هذه الخطة بدت لي مأكرة جداً، وضعت في التو خطة أخرى، فقد أهاج الخوف قريحتي.

أيكون من السهل عليّ الحصول على عفو سقراط، في خمسة أيام، لكي يتراجع عن عقوبة الاحتجاز؟ عن طريق حفظ قواعد المفعول المطلق. والعمل ليلاً ونهاراً لذلك والذهاب لطلب المساعدة من العم جول، لأجيب بالفصل إجابات ممتازة، وأكسب ود سقراط، بما يجعله يمزق من نفسه هذه الشهادة القاتلة .. وأنعشتني للحظة أحلام اليقظة هذه، لكنني رأيت فجأة الكاتب الجالس في الظل قد وصل في نسخ الخطابات التي سترسل أمامه إلى السطر الأخير من السجل، ومن النظرة التي نظر لي بها، فهمت أنه كان يعد خطاب اتهامي.

وعندما انتهى، أشار لي بأن أقرب ثم قال لي بصوت عال:

- ساعتين، لسبب كهذا، أمر لا يعد عقوبة كافية، فهو يستحق أن تحتجز يوماً كاملاً، ومن المحتمل إذن أن يعدل السيد المراقب الأمر! وقد أحبيت أن أعطيك علماً بذلك. اذهب لمكانك.

وتهاوت خططي وآمالي. وشعرت بالضياح وبدأت ذقتي تخرج.

في تلك اللحظة انفتح الباب، وظهر لانيو، كان يحمل كتبه تحت إبطه الأيسر وورقة في يده اليمنى وأغلق وراءه الباب بكوعه، وتقدم حتى المكتب، ووضع الورقة تحت أنف الناسخ، وهو يفتش عني بنظره ثم غمز لي غمزة فرحة.

وخمنت أنه قد قام ببعض الحماقات لكي يأتي مرافقتي، ولكن ما حدث كان أجمل بكثير.

بعد أن قرأ المراقب رسالة لوبلتييه الجديدة- التي بدت لي أطول من التي حملتها له- رفع عينيه باتجاه لانيو.

- إذن أنت الذي قذفت بأستاذك للسقف؟

- نعم، يا سيدي، قال لانيو، إنه أنا.

وخفني التأثير، ورفع رفاق أسري رؤوسهم، غير مصدقين مازحين، وهم ينظرون لهذا الغلام ذي الثانية عشرة عاماً الذي اعترف بقذفه أستاذه للسقف.

- وكيف تركت زميلاً لك يعاقب بدلاً منك؟

ورفع لانيو كتفيه وقال:

- لحظة حدوث ذلك، لم أجرؤ على الاعتراف، ثم فكرت. ووجدت أنه طالب ممنوح، وأن ذلك قد يجعله يفقد منحنه. لذا، قلت لسقراط- للسيد لوبلتييه- إنني أنا الذي فعلت ذلك، فقام بشطب عقوبته، وأمرني بالهجيء بدلاً منه لقاعة المراقبة. أين سأجلس؟

- أنت شخص عجيب، قال المراقب.

ورفع لانيو ثانية كتفيه، كما لو أنه يقول إنه لا يستطيع شيئاً حيال ذلك. ونظر لي المراقب

- وأنت؟ ألم تستطع الاحتجاج؟

ولم أكن في حالة تسمح بالإجابة، فقد كانت الدموع ملء عيني.

- هيا، خذ، وعد إلى الفصل.

وقمت، وأنا أرتجف. وكان لانيو يضحك من السعادة.

- أضحكك هذا؟ قال المراقب بجفاء.

- أنا لا أضحك، قال لانيو. إنني أبتسم، رغماً عني.

أثناء ذلك، مزق المراقب ورقة احتجاجي، وعندما مررت أمام مكتبه مد يده لي بمزق الورقة.

- إنها لك، قال. احتفظ بها للذكرى. وتعلم كيف تدافع عن نفسك في الحياة، فإن لم تفعل، فسوف تدفع دائماً ثمن أخطاء الآخرين، اذهب.

وترددت في الخروج، فلم أكن أريد ترك صديقي الحبيب، وطلبت السماح بالبقاء معه الأمر الذي أصاب الناسخ بالحيرة، حين علا صوت الطبل.

ونهض اثنان أو ثلاثة من المارقين، فصوب إليهما الناسخ نظرة واحدة، جعلتهم يسقطون ثانية في أماكنهم. ثم، راح يتمهل يكتب عقوبة لانيو بالسجل، وأمسك بمسطرة، وشطب عقوبتي بعدة أسطر حمراء. وأثناء ما تعالت إلى أسماعنا جلبة التلاميذ الطلقاء بالمر، أغلق دفاتره، وجمع أوراق الاحتجاز ووضعها في درج وأغلق عليها بالمفتاح. ثم سعل، ونهض، وأمسك بقبعته الفلين، ونظفها بكمه، ثم وضعها على رأسه ومضى باتجاه الباب، الذي فتحه، ولكنه لم يخرج، إذ ظل واقفاً أمامه كأنه خفير.

- اصطفوا جميعكم في طاير.

واصطف السجناء صفين، قام السجنان بتقويمهما، ثم قال، أخيراً: «اذهبوا، فخرجنا للحرية.

وبالفناء ضمنت لانيو بين ذراعي:

- أنت إنسان لطيف، ولكنني، لن أقبل هذا.

- بالنسبة لك، سيكون الاحتجاز كارثة، لكنه بالنسبة لي أمر لا يهمني بالمرّة
ففي هذا العام وقعت عليّ عقوبة الاحتجاز اثنتي عشرة مرة، بالإضافة إلى
حرمان مرتين من نصف العطلة، ومرة منها كاملة، وهو أمر أهنأ به .

- لكن ماذا يقول أيوك في ذلك ؟

وقهقهه لانيو.

- لا يقول شيئاً.

وما إن شرعت في أن أطرح عليه أسئلة أخرى، تجهم، وأضاف:

- إنه لا يقول شيئاً، فأنا لي طريقة .

- أية طريقة ؟

- أنا لم أقل لك عنها شيئاً أبداً، لأن أمني جعلتني أقسم ألا أشي بها
لأحد.... ولكن هذا القسم كان منذ عامين على الأقل! لذا!

وقام بحركة، كما لو أنه يعبر بها عن أن الأيمان، مثلها مثل الأشخاص،
تفقد قوتها بتأثير الشيخوخة. ولكنه طلب مني أن أقسم أمامه قسماً جديداً، لم
تنته بعد مدة صلاحيته.

- إذا أقسمت لي ألا تقول هذا لأحد، فسوف أشرح لك الأمر بفسحة
الثانية عشرة والنصف، تحت السقيفة. وهكذا حدثني لانيو بعد القسم لأول مرة
عن حياته الخاصة، في ركن من الأركان تحت سقيفة فناء الصغار، وقد
حافظت على الوفاء بقسمي أمام لانيو، وحفظت سره كما لو أنه سري لمدة
نصف قرن، وأرى اليوم بلا أي ندم أنني يمكنني أن أحث لهذا اليمين.

مأساة لانيو

كان لانيو الابن الوحيد لمعلم شحن بميناء مرسيليا. هذا المعلم القوي، كان يحوز، في اسطبلات كبيرة، مئات الأحصنة، لأنه في ذلك الزمن، لم يكن «البنزين» يستخدم إلا في تنظيف القفازات، وإزالة بقع الملابس الفخمة، وأحياناً في استخدامه، ببعض المواقد الصغيرة المأمونة، لعمل قهوة الصباح. لم تكن خيول السيد لانيو إذن محبوسة تحت سقف، لكنها كانت تخب طيلة النهار، منتشرة، متصلة الشوارع وهي تجري على حوافرها. وكان صاحبها على صورتها، ولكي يوضح لانيو لي هذا الأمر، قال:

- هل تعرف دولاب مكتبة قاعة الذاكرة؟ حسناً! فكل مرة أراه فيها أفكر فيه، فهو ضخم مثله تقريباً، وهو يقل عنه بعض الشيء في الارتفاع، ولكنه أكثر غلظاً... وله شارب أسود ضخم، وشعر بنفس الطريقة على ذراعيه كان يمشطه أحياناً بـمشط صغير ... كما أن له صوتاً رهيباً يشرخ حنجرتة ...

هذا الأب من النوع الضخم كان يتباهى بأنه صنع ثروة بقوة قبضته ... وهو ما لم يكن على سبيل المجاز، فالأمر يتطلب قبضة حديدية للإمساك بأعنة ثلاثة جياد. وبعد أكثر من خمسة وعشرين عاماً من العمل، ومن الليالي التي مضت بلا نوم، تمكن الرجل من أن ينقش اسمه، بأحرف كبيرة، على الجوانب الثلاثة لخمسين عربة شحن، وأن يكتب تحت الاسم رقماً، كان يمثل ما يشبه الاسم لألة تليفونية داخل علبة تدار بذراع معلقة على حائط متجره. وبواسطة هذه الآلة. كان سهلاً أن تتحدث، بغير صياح، مع أشخاص على الجانب الآخر من الميناء القديم. وقد رأيت يتحدث فيها، ولكني لم أكن أعرف ما إذا كان وجودها لدى الأشخاص يماثل وجود ماكينة الخياطة أو غلاية القهوة. وكان معلم الشحن، الذي لم يتلق من العلم إلا النزر اليسير، مؤمناً بفضائل الدراسة:

وكان لهذا السبب شديد القسوة على ابنه. وهو ما جعل لانيو، أثناء دراسته بالصف السادس للعام الأول يتعرض لبعض إجراءات «التهديب»، أي بعض ضربات هوت عليه بالعصا كانت أقواها - حسب قوله - سببا لدخوله المستشفى، وقد أمر لي بأن جلده ظل مخططاً بندبات عميقة، في مواضع واضحة من جسده، بما جعله لا يستطيع الظهور بالمدرسة، ولو تحت السقيفة. وأهالني وصفه لهذا العنف الشديد، وأشفقت عليه، لكنه غمز لي بعينه وأعلن:

- كان كل ذلك في الماضي، ولكنه لم يعد له الآن وجود، لأن أُمي وخالتي، فكّرنا في طريقة عظيمة، تمكّنتي الآن من ألا أخشى أن أتعرض لعقوبة الاحتجاز مرة أو اثنتين بالأسبوع، وأن أهرأ بالعقوبة! وسأشرح لك الطريقة .

كنت قد رأيت أمه بعض المرات، مساءً، عند الخروج من المدرسة، لأنها كانت تأتي لانتظاره بالميدان الصغير، ولكنني لم أقرب منها أبداً. وكان طبيعياً أن لانيو، حفاظاً على كرامته، يمنعها من الإعلان عن وجودها طالما كان هو بصحبة رفاقه.

كانت تظل إذا مترصدة في ركن شارع مازاجران الضيق، حيث تتمشى السيدات اللاتي طلين وجوههن كالمرائس وهن ترحن ويحجن بلا كلل. وعندما كنا نخرج، كان لانيو يتظاهر بأنه لم يرها، وكانت هي تتبعنا من بعيد. كانت سيّدة بدنية، ذات قبعة رائحة (مزينة بالورد والطيور) تضع غلالة على وجهها ؛ ولكن لأن شعرها كان أبيض اعتقدت أنها جدته. وكان يمكن أن تكون كذلك، لأنها. كانت تشي بأنها في الخمسين من العمر.

وكانت لهذه الأم الرقيقة أخت، لم تكن فقط خالة للانيو وإنما كانت أيضاً إشبنته. لم أرها (من على البعد) سوى مرة واحدة، لكن شخصيتها بدت لي فريدة بما جعلني لا أنساها. كانت طويلة جداً، ذات أكتاف متهدلة

كزجاجات المياه المعدنية، وكانت تطوح بذراعيها أثناء سيرها بالشارع، بما قد يجعلها تكاد تلطم أحد السائقين، وقال لي عنها لانيو إنها «ذات قلب رقيق» الأمر الذي أدهشني في البداية، ولكنني فكرت بعد ذلك في أن القلوب الرقيقة تتواجد غالباً في الأشخاص الذين يتخلعون في سيرهم، مثل دون كيشوت.

هاتان المرأتان اللتان أحببتا لانيو، الابن وابن الأخت الوحيد، كانتا غاضبتين ممزقتين من عنف معلم الشحن، وعندما تلقى لانيو ضربات العصا على مؤخرته، أكلت الأم منديلها، ولم تستطع الخالة الجلوس لمدة يومين.

كان العام الأول الذي قضاه لانيو بالصف السادس، والذي اكتسحته عقوبات الاحتجاز المنتظمة، يمثل بالنسبة لهما ألماً مبرحاً لا ينتهي، فلم يكن يمضي أي أسبوع فيه إلا انتظاراً ليوم الأربعاء، يوم القدر المكتوب ويوم وصول خطابات العقوبات للأهل.

وفي ذلك اليوم، كانتا تبدلان جهداً كبيراً أثناء إعدادهن لطعام الظهر، وعلى مائدة معلم الشحن الذي يلتهم أكباد الطيور، وشرائح اللحم والخضر المطبوخة بشراهة ولامبالاة غول، كن يرتجفن عندما يرينه يقوي نفسه بهذا الشكل لحفلات الضرب بالعصا المسائية وكانتا تقضيان بعد الظهر في مناقشات يحل فيها محل التفاؤل تنهدات الأم وتشنجات وجه الخالة، وكانتا تغنيان أحياناً لتدخلن الهدوء إلى نفسيهما، وهما تختلجان بصوت ذي صرير، ببعض الأغنيات العاطفية القديمة.

أخيراً. وفي حدود الساعة السابعة، كان لانيو يصل، وهو يصبح في بعض الأحيان على السلم

— هذا المساء، سيكون لدينا حلوى!

عندئذ، كانت السعادة تغمر الخالة، المنحنية على الدرايزين، وهي غارقة في

الدموع، وتهرع الأم لتشرب بعض الماء لكي تهدئ من خفقان قلبها. ولكنه عندما كان يصعد السلم بغير أن يقول شيئاً ثم يخرج من حقيقته المدرسية ورقة العقوبة، كن يسألن عدة أسئلة لاهثة، ويلزم الصمت وكأن الدهشة قد عقدت ألسنتهن، وكن يرتعدن مع الدقات الحدادية لساعة الحائط، التي تعلن عن اقتراب موعد وصول الجلال.

لذا، فإثناء هدنة الإجازة الكبيرة، وضعتا معا خطة تم إنضاجها بهدوء، للإفلات من هذا الألم الرهيب.

ولأن العائلة كانت تنزل في فيلا بالقرب من الألووش، صارت الخالة معلم الشحن المندھش بأنها كانت ترغب دائماً في التنزه بالتلال، وراحت تخرج كل يومين حوالي الساعة السابعة صباحاً، بحقيبة على ظهرها، وعصا ذات طرف حديدية في يدها.

ولم يستكر زوج الأخت هذا الجنون المضطرب، وأعلن أنه من الطبيعي جداً أن تهدئ فتاة عانس أعصابها بطريقة أو بأخرى، وأن تسلق الجبال هواية صائدي النساء المفضلة. ثم أقر بأن هواء التلال يعود بالعافية على «الصغير» وأنه يبعده عن مخالطة سوقة القرية. وتظاهر لانيو بالعبوس قبل أن يستجيب لرغبة أبيه. ولم يكن يحب النزعات أبداً، ولكنه كان يعرف بالسر أو يعلم أن هذه الفسح الصحية لن تذهب به لأبعد من مفترق الطرق، حيث توجد حانة يوجد بها كل شيء تقدم له فيها الوجبات الدسمة، ويمكنه فيها اللعب طول اليوم مع الأولاد الفاسدين من عمره.

وأفاده هذا النظام، وسعد به معلم الشحن، الأمر الذي جعل المحتمالتين الرقيقتين تعرضان بعد الإجازة على الأب أن تواصل القيام بهذه الرحلات كل خميس. ورفع الرجل حاجبيه، وسخر:

— الخميس! في عائلة كعائلتنا، يعد يوم الخميس يوماً لقضاء عقوبات

الاحتجاز.

- لن تكون هناك عقوبات جديدة بالاحتجاز! صاحبت الخالة! لن يحدث ثانية أن تصلك عقوبات احتجاز لتوقيعها! لن يحدث أبداً.

- ليسمع الرب منك! قال معلم الشحن غير المصدق، وعموماً سئرى.

لذا، راحت الخالة الإشبينة صباح كل خميس، تلبس ملابس التسلق، وتستدعي ابن أختها الذي هو ابنها بالمعمودية. ليخرجها معا بحقيبتين تيروليتين محتويان على السجق الجاف الخاص بالمتنزهين، والأوميلت بالطماطم، وشرائح اللحم النقيقة، والخبز، وصداري الصوف، ومعاطف المطر، وليخذشا معاً الأرضفة بتعالهما ذات المسامير، فيغادرا المنزل منتصرين لقضاء ساعتى الاحتجاز، وأحياناً الأربع ساعات، وأحياناً الست ساعات... ولأن الخالة وعدت معلم الشحن، بالآلا يوقع ثانية خطابات العقوبات، تكفلت زوجته، بعد مران طويل في الخفاء، بتوقيعها وعند بلوغ ركن شارع المدرسة، كانت الخالة تحمل عن أختها حقيبتة، ويلحق لانيو بمكان احتجازه، وهو ينزلق بسعادة على رخام الممرات، التي تنشرخ من احتكاكها بمسامير حذائه ويطاير منها الشرر. وكان يخرج في الظهيرة، فيذهب لبيت خالته، ليتنوق هناك، لا وجبة المتنزهين الجافة، وإنما طبق الأرز بالقواقع المطبوخ بالزعفران، ثم الفراخ السمينة المشوية على السبخ، والحماطة بالبطاطا المطهوه أو عش الغراب المشوي على حطب السّرع. ثم يقرقش بعد ذلك حلوى النوجا المصنوعة بإقليم الآرل، ويتمضغ بحلوى اللوزية الطرية القادمة من إكس، ثم يتنعم بعد ذلك بكأس صغير من مشروب يدعى «كريمة الكاكاو».

وكان عليه أحياناً أن يعود للمدرسة ليستأنف احتجازه حتى الساعة الرابعة، وأحياناً للساعة السادسة. ولكنه، كان يقضي بعد ظهره، في أغلب الأحيان، بحديقة بورلي، يركب الدراجة أو يقوم بالتجديف. وأخيراً، قبل عودته لبيته،

كان يدرس خريطة طرق التنزه بمرسيليا، ويعين مسار الجولة المتخيلة، يكون في حالة استعداد للإجابة على الأسئلة المسائية التي يطرحها أحياناً الشحن.

واستمر هذا النظام على نحو يخلب اللب، وكان لانيو الأب نفسه ـ بأن ابنه قد تغير بشكل رائع بفعل التأثيرات الطيبة للترحلق وفضل المرتفعات. وباختصار نعمت العائلة بالسعادة.

وهكذا كشف لي صديقي، ببعض الزهو، «سره» الذي وجدته أكثر من كونه قد سمح له بأن ينقلني شخصياً، وأقسمت له بالعرفان الأبدي واتنتي الفرصة، بعد ثلاثة أشهر من ذلك، لكي أؤكد له عرفاني. كان ذلك في شهر مارس حيث بدأت عملية «الكرات التنتة».

ولم تكن هذه الكرات سوى قوارير من الزجاج، مليئة بسائل أصفر، ء فيما بعد أنه هو الهيدروجين المكبرت. وكانت هذه القوارير تنكسر لأقل ص وتسمم الجو في التو برائحة كريهة.

كان أول من قذف الكرات التنتة. وأقصد به أول من قذف بها ذلك وأحدث صنيعة دويماً، شخص يدعى باربو، من الصف الرابع ب، فقد تمك بغير قصد - من أن يجعلها قذيفة متقنة، فقد انفجرت القذيفة الهشة (التي تجد أي شيء آخر تسقط عليه) فوق رأس نينياس، لتصيب شعره الطويل جعله يضطر للتوضحية به، فينكشف لنا بذلك وجهه الحقيقي، أي ذلك اللطيف الأصعب.

وظل صاحب هذا الفعل مجهولاً، لكن شأن باربو علا في نظر المطأ على الأمر. وهو ما جعل سليمان، وكان تركيا بالصف الخامس ب، يحاو يتنزه، بعملية ماهرة وتقنية جديدة. جربها أثناء حصّة السيد فيردو، وهو م

رياضيات متجههم الوجه حزين، لم تكن نعرف بعد عنه شيئاً، لأنه كان محولاً من ثانوية أخرى. ويقال إنه لم يره أحد قط مبتسماً وإنهم يدعونه بإسم «المأتم» . واشترى سليمان، الذي كان يبدو عليه الشراء (من سوق شارع سيببى) خمس كرات تنن من حجم ضخم على غير المعتاد. لكنه بدلاً من أن يقذف بحماقة هذه الكبسولات (وهي العملية الخطرة، والأكثر تعقيداً، لاحتمال أن يتسبب عنها اتهام جار برىء) تسلل إلى الفصل قبل موعد الحصة، ووضعها جميعاً أسفل المنصة، في الأماكن التي من المحتمل أن يضع فيها المأتم قدميه، الضخمتين.

- بهذا الشكل، قال سليمان، سيكون هو أول من يشم الرائحة!
وكان هذا التخمين في محله.

فما إن جلس الطلاب في أماكنهم، وصعد المأتم ليتخذ مكانه على المنصة، ثم افتتح درسه بتلاوة، معادة، لنظرية فيثاغورث. وفي اللحظة التي نطق فيها العبارة الشهيرة «فإذا لم أخدع نفسي»، وهي العبارة الذهبية التي تظل في ذاكرتنا مرتبطة بمرجع وتر الزاوية، سمعت طقة خفيفة، علت بفعل خشب المنبر الرنان.

ولم يندفع المأتم بعدها. فقد انحنى بأنفه، وتشمم الهواء، وللمرة الأولى شوهدت الابتسامة البديعة للنبيّة صانعة المعجزات بمعبد أبولون، تظهر على وجهه، فقد صار وجهه مثل وجهها (أو مثل شريحة الخنزير المدخن) وهو جالس مباشرة فوق الموجات الصاعدة للبخار المعطر.

وبلا تعجل، وهو يتسم ابتسامته التي لا توصف، أزاح مقعده للخلف، ونظر إلى الأرضية تحت المقعد، ثم انحنى أربع مرات ونهض واضعاً أمامه أربعة قوارير سليمة. وراح يتسم للطلاب ابتسامة شديدة المودة، وقال في الصمت الرهيب:

- إن بهذا الفصل شخصاً يعرف أنني أعشق رائحة الهيدروجين المكبرت
النفاذة لنا أهدائي هذه القوارير الخمسة. أنا لا أريد معرفة اسمه، ولكنني أشكره
من صميم قلبي. وأهم شيء الآن ألا يفتح أحد النوافذ، كي لا نشوه متعتنا!
ثم قام، وأمام الفصل المتجمد من الدهشة، قذف واحدة بعد الأخرى،
القوارير الأربع على الحائط المقابل في عمق الفصل، فصنع أربع بقع رمادية،
لها شكل الشموس المزخرفة.

ثم جلس، وراح يتشمم الهواء بأنف نهمة، وتابع الحديث، بنبرة ساخرة:

«يتساوى، إذا لم أُنخدع

مع مجموع الزوايا

«القائمة على... الأطراف الأخرى».

وبلا أي اضطراب، وبغير أن يسأل سؤالاً واحداً، ألقى درساً رائعاً لمدة ساعة
كاملة.

عند خروج الفصل، تلقى سليمان مكافأته على اختراعه، فقد راح
الطلاب الخارجيون يدفعونه أمامهم بالركلات في مؤخرته بعد أن احمرت
أنوفهم، وادمعت عيونهم وهم كالسكرانين من هذه الرائحة التي لاحقتهم
طويلاً، حتى سلم الداخلية. وكان يمكن تصور أن إخفاقه، الذي أعقبته هذه
العلقة، صار سبباً للاستهزاء به، ولكن ما حدث كان العكس تماماً، ففكرة
جنون المأثم صارت فكرة ذائعة بالمدسة، وصار سليمان، الذي أطلقها، فجأة
شهيراً. وفهمت وقتها أنه من المفيد دائماً أن يرتبط اسم الواحد، بأي طريقة
كانت، بحادث مهم، ليعود عليه بالذاكرة كلما تحدث الناس عنه. وأصابني
لايؤ الغيرة من هذه الأمجاد، فقام بدوره بقذف كرتين متنتتين، ذات يوم من
أيام الاثنين، حوالي الساعة التاسعة إلا ربعاً بحصة التاريخ. وأصابني الأولى

نجاحاً كاملاً، لأن السيد ميثيل كان يدبر لنا ظهره ليكتب على السبورة السوداء تاريخ اليوم، واسم المدرس، بين الأقواس. فلم ير شيئاً، ولم يسمع شيئاً، فلم يشعر من هذا الصنيع مجهول الصانع، إلا بالرائحة الكريهة. ولأن النوافذ كانت مفتوحة، اعتقد أن هذا الثتن قد أتى من الخارج، فأمر بإغلاق الشبايك وأدار لنا ظهره من جديد، وطبشوره في يده.

وأصاب لانيو الزهو لهذا النجاح الأول، فقام نصف قومة فجأة وقذف بالقارورة الثانية الزجاجية، فتحطمت على ماسورة المدفأة، التي طنّ سطحها. واستدار السيد ميثيل مرة أخرى، واضعاً راحته على فخديه، رافعاً حاجبيه عن نظرة سوداء، سدّها ناحيتنا. لكن لانيو كان قد عاد للجلوس بسرعة، محضياً رأسه بعض الشيء إلى جانب، كمن ينتظر تشريفه بتعليق رتبة له، بينما كنت أنا أكتب بجذ ونشاط، شأني شأن جيراني، الذين كانوا في حالة من الرعب خشية وقوع خطأ محتمل في تحديد الجاني. ولم يكن سوى ميرينو، الجالس أمامي، هو الذي انتفخت رقبته، وهو يكتم ضحكة خنقها، وتؤكد لي أنه ضاع، في اللحظة التي انفتح فيها الباب على مصراعيه، ودخل السيد المدير - في سترته وقبعته الحريريّتين - بخطوة واثقة. وكان يتبعه المراقب العام، الذي كان يحمل في يده أوراقاً كبيرة. كان هذا الموكب قد حضر ليعلم لنا بشكل احتفالي نتائج مسابقة التاريخ.

وهبّ الفصل كله واقفاً دفعة واحدة، بحسب المتبع. ولم تتح الفرصة لميرينو نفسه، ابن عوليس (أوربما ابن أنجيل)، لكي يتمكن من الضحك، فقد كان الموقف شديد الخطورة وصار لون وجه لانيو أيضاً كاللقت.

وبالفعل، راح السيد المراقب يتشمم بأنفه، وينظر إلى الأرضية الخشبية، المحيطة بالموقد. وكانت هناك بقايا الزجاج المكسور ظاهرة للعيان.

وفي أقل من ثانية، تمكن من الربط بين الرائحة التي يشمها وهذه الكرات

الرجاجية التي تلتهم أمامه.

وفي حركة سريعة، أشار إلى لانيو إشارة النحس بسبابته وقال في نبرة لارجعة فيها:

- قف أنت هناك!

ولم يقف لانيو، الشاحب المضطرب، ولكنه استدار سريعاً بعينه ناحية نهاية الفصل، كما لو أن هذا الأمر لم يكن موجهاً له بأي شكل، وكما لو أنه قد دفعه الفضول لمعرفة من الذي يقصده المراقب العام. لكن هذه المحاولة الساذجة لإثبات البراءة لم تحدث أي أثر، ودوى الصوت، بتهكم:

- أنت! نعم. أنت! لا داعي للتمثيل. فقد رأيتك، من خلال النافذة! نعم رأيتك وأنت تقلد بشيء، والآن نحن نعرف جيداً ماذا قذفت! ما اسمك؟

- ولكن، يامسيدي، قال لانيو، ربما أكون قد قمت بحركة ولكنني لست أنا الذي! فقد حاولت اصطلياد ذبابة، و....

وتسبب هذا التفسير الأحمق المؤسف في ضحكة خفيفة جرت في مقدمة الفصل، بينما أرعد صهوت المراقب:

- اخرسوا! ما اسمك؟

- لانيو.

وأخرج المراقب من جيبه دفترًا، وفتح غلافه وفتح غطاء قلمه وكتب الاسم، والفصل والجرم. وأثناء ذلك، زادت حدة الرائحة المقيتة، وتضاعفت بفعل الصمت القاتل، وانتشرت، وغزت كل الفصل، مفاجمة من مسئولية لانيو ومضاعفة إياها مع كل ثانية تمر.

وسد الطلاب الخارجيون أنوفهم، بتفاقهم المعتاد، في استنكار وأمر السيد

المدير، الذي لم يتمكن من أن يفعل مثلهم، بصوت هادئ أجش:

– افتحوا النوافذ!

وتسارع الطلاب الخارجيون لفتح النوافذ. ثم قطع السيد المراقب الصفحة التي كتب عليها بدفتره، ومد يده بها إلى لانيو، قائلاً:

– خذ أشياءك وخذ هذه واذهب إلى المراقبة!

وأخذ لانيو كتبه، وكرساته وفزل ذليلاً، الدرجات الثلاث، وسار ببطء باتجاه الباب، وفتحه قليلاً واخفى.

وشرح السيد المراقب، بصوت عادي، يقرأ النتيجة، قائلاً كالعادة:

– الأول، روبان، ١٩،٥، درجات السلوك ١٠، الفروض ٩، الدروس ١٠. ووجدت لانيو بفناء الداخلية، وأدهشني أنني وجدته شديد القلق.

– أنت لديك طريقة، قلت، فماذا يقلقك؟

– إن الطريقة تنفع جداً إذا كان الأمر يتعلق بالحجز لأربع ساعات، أو حتى بالحرمان من العطلة يوماً كاملاً. ولكن في حالة وجود المراقب والمدير في هذا الأمر فالمسألة قد تختلف ... ثم إن القاتل الذي يشرف على قاعة المراقبة قال لي إن المسألة ربما تصل إلى تقديمي لمجلس تأديب وإلى طردي من المدرسة ثمانية أيام.

– لقد قال هذا الكلام ليخيفك ...

– ربما، ولكني لست متأكداً من شيء ... كما أن طالباً من الكبار قال لي إنهم إذا عاقبوني بالفصل، فسوف يستدعي مدير المدرسة أبي! هل تتصور ذلك! ولكي أطمئنه، دعوت نيلب وكارير، والطالب الأعرج الجميل الصغير من الصف الثالث أ ٢ للتشاور في الأمر.

وذكر نيلب خمس حالات لطلاب قذفوا بالكرات التنتة، وعرفنا منه أن العقوبة القصوى التي حدثت وقعت على باربو، وهي حرمانه من عطلة يوم الأحد بكامله. وخلص إلى القول بحزم مطمئن:

— إن حالتك لن تستدعي أكثر من حرمان من عطلة الخميس المقبل، لا أكثر.

وحاول كارير، وهو صاحب العقلية الأكثر تجريداً، أن يقدر خطورة الموقف، التي تسببت بشكل عام عن حضور المراقب، الذي فاقمه وضاعف منه حضور مدير المدرسة، وكان بادي التشاؤم.

لذا، وباعتبار أن عملية قذف القارورة ارتكبت قبل دخول المسؤولين وفي عدم انتظار لمقدمهم، فقد استخلص كارير أن عقوبة الاحتجاز ليوم كامل تعد في نظره كافية جداً وأن الأمر لن يتطور لحد عمل مجلس تأديب، وهو الأمر الذي أكدته نيلب باطمئنان، وأضاف:

— فضلاً عن أنه إذا كان الأمر سيتجاوز مسألة الاحتجاز، لكانوا استدعوك الآن لدى المراقب!

— صحيح! صاح لانيو. ولو أن الأمر اقتصر على الاحتجاز، فلن يكون له أهمية! فلدي عددان من مجلة «بافالويل» وثلاثة من مجلة «نات بنكرتون» وهي كافية لكي أتسلى بها طيلة يوم الاحتجاز.

وشرع يرقص ويقهقه بالضحك.

وفي تلك اللحظة، دوى صوت القدر، قادماً من تحت شارب الفراش، في صيحة طويلة أسمعت كل الفناء:

— لانيو، من الصف الخامس أ ٢، عليه التوجه لمكتب السيد المراقب!

واستدار النذير عائداً، بلا أدنى تأثر من جراء النبأ الرهيب الذي أعلنه.

واصفر وجه لانيو، ثم ابتلع ريقه وقال، بنبرة ساخرة حزينة:

— الأوغادا

وذهب، وقد تهدل كتفاه، لكن قبضتيه كانتا متشنجتين.

وانتظرنا عودته، ونحن نتحدث تحت أشجار الدلب؛ وكنت قلقاً بعض الشيء من أجل صديقي، فقد صار المحكمان اللذان يحيطان بي أقل تفاؤلاً مما كانا عليه بعد ذهاب المتهم، وأضاف نيلب عنصراً جديداً، وهو التماذي الذي حدث مؤخراً في استعمال القوارير المنتنة هذه، وأعلن أنه يخشى أن يحاول المراقب أن يجعل من لانيو عبرة في هذا الموضوع لكي يضع نهاية لذلك التجاوز. يضاف لهذا أن غياب لانيو طال، وهو ما بدا لي أمراً غير مطمئن؛ لكن كارير خفف من قلقي قائلاً بأنهم «كلما تكلموا أكثر، أوقعوا عقوبات أقل»، وأن لانيو ربما قد ينتهي به الأمر إلى أن يجازى بأربع ساعات احتجاز وبالتعهد بأن يسلك سلوكاً حسناً بعد ذلك... ثم حدث فجأة حادث هازل جعل وقت الانتظار المرهق هذا يقصر. فقد وضع ماريون، الطالب بالصف الخامس ب، عصا في فتحة باب بدورة المياه، واقترب من شميدت، قائلاً له في تحد:

— لنرى ما إذا كنت أقوى مني!

ومد له طرف العصا المديب المغطى بطبقة دهنية.

وأمسك به شميدت، بغير أن يحترس، بكامل كفه، وراح يشد، فانزلقت العصا في يده، تاركة طبقة لزجة كثيفة عليها. بينما هرب ماريون ساخراً منه. ولم يستسغ شميدت، الذي كان يعرف المزاح، هذه المزحة، فلفح بمضايقه في ثلاث قفزات، وحصره أمام الحائط، وراح يمسح بعنف يده في وجه المازح

العدواني، الذي راح يفرغ ما في جوفه في ضجة شديدة.

ولم أتمكن من مشاهدة باقي هذا المشهد، فقد عاد لانيو للظهور أمام باب
الفناء. وكان وجهه متشنجاً، وخطواته مضطربة، ورأسه منكفئاً وهو يسير.

- خيراً، قال نيلب، هل عاقبك بالاحتجاز؟

وهز لانيو رأسه بنعم .

- احتجاز يوم الخميس؟

قال بصوت خفيض:

- نعم.

وأراد أن يضيف شيئاً، لكن دموعه طفرت من عينيه، وجرى ليسند ذراعه
إلى الحائط، ليضع عليها جبهته، كي ينخرط في البكاء، وفوجئت بحالة اليأس
التي هو عليها، ورحت أحدثه بصوت خفيض:

- وهل سيضيرك هذا، طالما أن لديك طريقة للتخلص من آثاره.

وأدار نحوي عينيه المخمرتين وهو لا ينس بكلمة، ورفع كتفيه، وراح يحك
الأرض بمقدم حذائه. واقترب منا الآخرون، لكنهم لم يطرحوا عليه أسئلة،
واحترمنا صمته إلى أن دق الطبل.

وفي قاعة المذاكرة، عاد لحالته الطبيعية، وكان قد وضع أمامه كتاب النحو
اللاتيني وراح، وهو عاقد ذراعيه يحلق في «نموذج» مطبوع بأحرف كبيرة
سوداء:

“Noctua cicadam interfecit, quanquam clamitabat” ou “quam

vis clamitaret” «إن البومة تقتال الجدجد مهما تشكى» «مهما صخب»

لكن عقله كان بعيداً عن هذا المعنى الجليل، فقد كان يتهدد بين الحين والآخر تهيدة طويلة وأخيراً، وبعد حوالي ربع الساعة، همس لي بحقيقة الموضوع. فقد عاقبه المراقب بالاحتجاز لمدة ثماني ساعات، من الثامنة صباحاً إلى الظهيرة، ومن الثانية بعد الظهر للسادسة.

وكان هذا عقاباً كبيراً في حد ذاته، وكان من الممكن الإفلات من عواقبه بفعل طريقته الناجحة، لكن المراقب أضاف قائلاً:

- أحياناً يأتيني الانطباع بأن شهادات عقوباتك توقعها السيدة والدتك، وكنت أتمسح مع هذا الموضوع حتى الآن. أما هذه المرة، فقد تماذيت أنت كثيراً ولكي أتأكد من شكوكي هذه، أجدني مضطراً لأن أرسل خطاباً على عنوان مكتب السيد والدك به نسخة من ورقة احتجاجك، مع خطاب توصية مني أعلن له فيه كل أسفي على سلوكك. كان يخبرني بهذا الحديث بشكل متقطع بسبب بعض النظرات التفتيشية التي كان يسدها نحونا السيد باير، والتي قطعت حديثنا عدة مرات. وعندما صرت في وضع يمكنني من الرد عليه - إذ كنت أستمع له وأنا أتصفح بنشاط قاموسي اللاتيني - فكرت للحظة، ثم أجبته بصوت خفيض من ركن فمي، وأنا أتصنع الكتابة ورأسي منحني على الورق.

- هذا شيء مؤذ، ولكنه ليس فظيلاً ... فبالنسبة لأبيك ستكون هذه أول عقوبة احتجاج توقع عليك هذا العام ونحن لا نقتل أحداً على غلطته الأولى.

ولم يجيني مباشرة، لأن صوت السيد باير القوي أردد، وهو ينيه بيرلوديه إلى أن قاعة المذاكرة ليست عنبر نوم.

بعد هذا الإنذار، همس لي لانيو:

- سوف يأتي بالتأكيد لمقابلة المراقب والسؤال عن الأسباب، وعندها

سيعرف بكل العقوبات التي وقعت عليّ.

وكنت مقتنعاً شخصياً بأن هذا هو الخطر، ولم أعرف بماذا أجيب. ومع ذلك، فبعد عدة دقائق من التفكير، توصلت إلى أن المعرفة، بعشرين خطأ في مرة واحدة، لا يترتب عليها عشرون عقاباً، وأن المسألة يحسبها هكذا، بالجملة، سيكون هو الراجح فيها، وشرعت في إشراكه معي في هذه الفكرة الموسية حين قال لي على غرة:

- وأهم شيء، أهم شيء، أنه سيعرف بما فعلناه بالشهادات الفصلية .

وكان هذا بالنسبة لي شيئاً جديداً.

- وماذا فعلتم؟

ولم يجبني مباشرة، لأن السيد باير نزل من على منصته، وراح يقوم بجولته المعتادة في القاعة. وراح، وبده اليسرى تضم «قبضته اليمنى وراء ظهره، يذرع الممرات بخطوات بطيئة، متوقفاً بين فينة وأخرى لينحني على عمل تلميذ من التلاميذ. يعطي النصائح، ويعلق التعليقات. الشديدة الفظاظ في بعض الأحيان. وكانت هذه هي اللحظات التي رحنا نشرثر فيها، لأن سمعنا كان يطن بدوي صوته هو الخاص، فلم يكن بمقدوره سماع همساتنا.

وهكذا، قص لانيو عليّ فعلتهم الرهيبة. وهي التي طال شرحها وصعب، لأن حديث اليائسين ليس له ما ينظمه، إذ تقطعه لحظات الصمت المختلجة، لتجعله دائماً غير واضح. مع ذلك، تمكنت من فهم تاريخ حكاية الشهادات الفصلية، وسأعرضها للقارئ.

لم تكتف أفعال الغش التي قامت بها الأم والخالة بإخفاء أوراق عقوبات الاحتجاز، فالجريمة دائماً ما تدعو للجريمة، وتلك هي دائرة الشيطان.

وقد فكرا فجأة في الشهادة المدرسية الفصلية، التي ينعكس فيها فعل ثلاثة

أشهر من البلادة وسوء السلوك، وربما ترد بها إشارة للعقوبات ... وقررتا، مكرهتين، أن تتسلماها وتزوراها.

واكتشفت الخالة بدون مشقة، على ورقة من أوراق الاحتجاز، اسم المطبعة التي تطبع مستندات وأوراق المدرسة الثانوية، ونجحت في التفرير بجامع حروف بها كان مدمن خمر، فأعطاهما ستة شهادات مطبوعة مقابل اثنتي عشرة زجاجة من الأيسنت، وأعطاهما ستة مظارييف مطبوع عليها اسم المدرسة مقابل ستة زجاجات من شراب البيكون.

ومع نهاية الفصل الأول من السنة المدرسية، قضت الأم والخالة أسبوعاً من القلق العصبي وهما تراقبان مرور ساعي البريد ومعهما مفتاح مزور لصندوق البريد.

لحسن الحظ، وصلت الشهادة المدرسية الحقيقية حوالي التاسعة صباحاً، بعد مغادرة معلم الشحن للمنزل، الذي لم يتأخر أبداً عن الوصول إلى مكان عمله لما بعد السادسة صباحاً كل يوم. وحصلت المرأتان الجانيتان على الخطاب القاتل وهرعتا لتخلقا على نفسيهما باب دورة المياه. وتحت بخار الماء الدافئ، مرتتا بين الحافتين المتصقتين إبرة تطريز مناسبة. ثم أوتا للغرفة بعد ذلك، لكي تتفحصا بدقة الشهادة الحقيقية.

وأصابتها الرجة أمام بعض الأصفار، وتنهدتا أمام الدرجات ٣ و ٤، وتأثرتا أمام درجة ٨ وابتسمتا أمام درجة ١٤ (في الرسم) ولكن بعض تعليقات الأساتذة كانت مخزية.

«بليد تماماً» (الرياضيات).

«وقح، كسول، غير مؤدب» (الإنجليزية).

«غير قادر على تركيز انتباهه، إن دراسة هذا التلميذ بالثانوي إضاعة لوقته»

(اللاتينية) .

كانت هذه الأحكام تثبت -في رأي الخالة- بوضوح أن عدداً من الأساتذة «يغضون ابن أختها». ولكن كان هناك منهم مع ذلك من هو أقل وحشية! «يحز بعض التقدم ولكن ذلك غير كاف بالمرّة» (الفرنسية) .

- «غير كاف» ، قالت الخالة ، ولكنه تقدم أيضاً!

ووقعت الأختان تحت تأثير عبارة «بمقدوره إحراز نتيجة أفضل» .

- بالطبع ، قالت الأم . فيمقدورنا دائماً أن نتقدم . هذا ليس نقداً!

- على العكس ! نعم ! فلو أنهم قالوا: «بمقدوره الإجابة» ، فذلك سيكون معناه أنه لم يجد . على حين أن «بمقدوره إحراز نتيجة أفضل» : تعني: «أنه أحرز نتيجة جيدة، بل وحتى جيدة جداً، ولكن بمقدوره أن يقدم أفضل منها!»

ثم تناقشتا -كما لو أنهما في مجلس للفصل- حول الدرجات التي يجب وضعها للأنشطة المختلفة للغلام العزيز. والتي لا تعبر عن جهده المدرسي، وإنما تعبر عن رغبات أبيه، بغير أن ترضيه تماماً بالطبع.

- لا يجب أن نغالي! قالت الخالة، بأن نضع ١٠ محل ٣. فلا يجب أيضاً أن يعتقد إدوار بأن ابنه حاصل على امتياز!

وهكذا صارت الأصفار درجات ٦ أو ٩، وهو الأمر الذي لم يكن بحاجة إلا إلى إضافة ذيل قصير بأسفل أو أعلى دائرة الصفر. ووضعت ١٠ في اللاتينية بدلاً من ٥ (نحن لا نغالي!) ، وقفزت درجة ٣ في التاريخ إلى ٩ ودرجة ٧ في الفرنسية ، في وثبة بطولية وطنية، ممزقة حاجز المتوسط ومنطلقة حتى ١٣ ، وهو الرقم الذي يأتي بالحظ.

أما عن التعليقات الظالمة ، فقد استبدلتها بتعليقات أخرى ؛ ولكن ، لتوخي

الأمانة احتفظت بالخالة ببعض التعابير الأصلية. واتخذت «تقدم غير كاف» شكلاً أبسط هو «في تقدم» ولا يفعل شيئاً، ولا يريد فعل شيء» إلى: «بإمكانه أن يحجز نتيجة أفضل، لو أنه أراد».

وأخيراً ودائماً لتوخي الأمانة ولكي يعوضا بعض الشيء هذه الزيادات، خصمت الخالة القاسية درجتين من الدرجة الممتازة للألعاب البدنية.

ووجد معلم الشحن هذه الشهادة في صندوق البريد، مساء اليوم التالي. وقرأها على طاولة الطعام. بصوت عال، وعلق عليها. وتحفظ على درجة الـ ١٣ في الفرنسية التي وجدها غير كافية بالمرّة؛ ولكنه انتهى للقول بأنه، في المجمل، فإن هذه الشهادة أفضل من شهادات العام الماضي، وأنه يعتبر هذا بداية مقبولة، أثناء ذلك، راحت الأم والخالة، وهما ترتعدان بسبب تفكيرهما فيما كان يمكنه أن يقوله لو أنه عرف الحقيقة، تتأسيان على تجلّعهما في تعديل الدرجات وتعتهدان بينهما وبين نفسيهما بأن يحسنا أداؤهما في المرة القادمة. ولم تقصراً في ذلك، فقد تطلبت شهادة الفصل الدراسي التالي تعديلات أكثر جرأة من تلك التي حدثت في الشهادة الأولى. وعلى نفس الغرار الذي يحدث مع مزور ورقة المائة فرنك حين يجد ذات يوم أن جرمه لن يزيد إذا زور ورقة الألف، لم تترددا في أن تحولا الـ ٦ إلى ١٦ - وهو الرقم الذي يحتوي أيضاً ٦ - وطبقنا هذا الإجراء بطريقة عامة، على جميع الدورات التي كانت دون المتوسط تقريباً. وسعد معلم الشحن بهذا. فقد اطمأن تماماً على مستقبل أسطوله واستمرار بقاء رقم تليفونه، وهناً نفسه في سره.

مع ذلك، فقد ظلت المرأتان تعيشان في قلق لوضعهما كمزورتين، فمجرد تصور لقاء عارض بين المراقب ومعلم الشحن كان يعني تمزيق العائلة السعيدة. ورغم استعمالهما للمنومات، كانتا تقضيان ليالهما والنوم يأكلهما، والنوم هو أكبر مولد للكوابيس. كانت الأم تخلم بالأب في ثورة جنونية، وهو يعيثر

بضربات السياط عناقيد الأصفار التي تطن. وكانت الأم تراه أقرب لأن يكون ممدداً متصلياً على سجادة غرفة المكتب، بوجه محتقن، وفم ملتو وهو يقبض بيده التشنجة. شهادة فصلية حقيقية.

كانت هذه هي حكاية لانيو التي روعتني عندما عرفتها، لأنني حدثت من خلالها مدى الكارثة الممكن حدوثها، وقطعت حالة صديقي، التي كان عليها طيلة اليوم نياط قلبي.

ونزلنا إلى قاعة الطعام، فلم يتناول شيئاً. وظل شاحباً، يبكي في صمت من فوق طبق الفاصوليا بالسجق، وأعطى طعامه لبيبرلوديه الذي أعلن له أنه صار مالحاً أكثر من اللازم بسبب دموعه، ولكنه التهمه مع ذلك. وأثناء الفسحة، التي قضاها تحت السقيفة لايتحرك لمدة ساعة كاملة، وهو عاقد ذراعيه، يأكله الذهول ... كنت أتحدث إليه وهو لا يستمع إليّ.

هذه الحالة من الأسى التي كان عليها، لاحظها سريعاً أصدقاءنا، الذين راحوا يسألون عن سببها. وأبعدتهم عنه برفق، وأنا أقول لهم فحسب، إنه عوقب بالاحتجاز يوم الخميس بكامله، وإن ذلك سيتسبب بمأساة له في بيته، وهو ما أثار ضحك بعض عديمي الحس، خاصة بيريديه (من الصف الخامس ب)، الذي كانت أمه أرملة، وتصدق دائماً الكذبة التي يكذبها عليها عندما يعاقب بأنه لديه «حصص زائدة مجانية يوم الخميس» وأن هذه تعد مكافأة للطلاب الجيدين. وبعد الظهر، طلب سقراط من لانيو ولم يكن متأثراً بفعل حالته - أن يقرأ بصوت عال درس اللاتينية.

ونهض، وهو عاقد ذراعيه، ينظر نظرة زائغة، ويتلثم في الأبيات الأولى (التي شوهدا تشويهاً فظيماً) لحكاية فيدرا وجلس بعد أن أعطاه صفراً، وهو يغمغم:

- والآن، ما الذي بمقدوره أن يحدث لي؟

وكان يقول هذه الجملة كما لو أنه مثل فيدرا على سرير الموت.

وأثناء فسحة الساعة الرابعة، رحنا تتمشى، كأننا في حداد، ونحن نمر بالآخرين وهم يلعبون، نفكر في حل لهذه المشكلة المعقدة.

وفكر للحظة في الهرب للخارج مختفياً - في المساء - في عربة بضائع. ولفتت انتباهه إلى أننا مازالت أمامنا أربعة وعشرون ساعة يمكنه فيها أن يطلب من أمه نقوداً تمكنه من الجلوس مستريحاً في قطار ركاب .

ثم اقترحت حلاً ثانياً، أوليس من المعقول أكثر أن يذهب ويختفي في تلاي؟

وكانت عندي خبرة كبيرة بهذا النوع من المغامرات، بما أنني كنت سأفعلها أنا نفسي لأنني فكرت فيها كثيراً. وعرضت عليه خطتي، التي استبعدها، قائلاً:

- لا، لا، ففيما يخصني لايهمني الأمر. لايهم إذا صرعتي، لكن الكارثة هي فيما ستعرض له أُمِّي وخالتي. وأراهنك أنه سيطلقهما كليهما ... بل إنه لن يحتاج لذلك، لأن أُمِّي ستقتل نفسها بالسم وستلقي خالتي بنفسها تحت الترام. أنا لا أهزل. فقد قالت ذلك ذات يوم: «أنا لن أتردد في إلقاء نفسي تحت الترام! وذلك بسببي! كل هذا، بسببي!

وفي اللحظة التي راح فيها يتخيل أجزاء جسد خالته المدماة تتدحرج على القضبان تلقى صدمة عنيفة، من كرة جليدية، قادمة من آخر الفناء، لتصطدم بعينه اليسرى فأمسكها بغيظ يديه الأثنتين وراح يهتز في غضب كأنه دب، وهو يشتم في نواح تلون فيه صوته واندفعت، وباعدت بين يديه المتشنجتين. كانت عينه قد أدمعت وبدأت في الاحمرار، ولكن لم تحدث له أضرار أخرى. وجريت وبللت منديلته تحت الصنبور ورحت أدلك له الكدمة بعناية، وهو يقول

بصوت واضح:

- هذا شيء طيب! الحمد لله! ولو كانت اقتلعت عيني لكان أفضل!

فكما لو أن هذا العقاب المسبق جاء ليخلص منه بعض ذنوبه. وفي المساء، بقاعة المذاكرة، مررت له مسودة درس اللاتينية، لكي لا يفعل شيئاً سوى نسخها بكراسه، ولكنه أراح هذه الهدية بحركة ضجرة، ناظراً نحوي نظرة واهنة بعنيه المتورمة، وقال:

- إن هذا الواجب مطلوب ليوم الجمعة ... ويوم الجمعة، من يدري أين سأكون؟

كان نيلب جالساً على بعد ثلاثة دكك أماننا. وأثر رأس لانيو في قلبه الحساس. لذا راح، من وقت لآخر، ينظر نحونا، ويتسم، ويرفع كتفيه، غامزاً بعينه ومشيراً بإشارات تدل على الاستنكار، أراد بها أن تكون رسائل مواساة. لكن أفعال الخير الحركية هذه تسببت له في التوبيخ لأن صوت السيد باير القوي دوى فجأة، متهماً إياه «بعمل قراقوز من ربع ساعة»، وهدده بوضع صفر له في السلوك، وهو ما كان سيصبح أول صفر في حياته المدرسية وربما الأول في سلسلة أصفار طويلة، لأن ضياع نقاء السجل يفتح أحياناً طريق المهالك ...

ولم يرنا بعدها إلا ظهره المنكب على العمل، بفعل الإرهاب، بينما راح لانيو ينظر بعين مقطبة في كتاب مفتوح كيفما اتفق. وعندما حررنا طبل الساعة السابعة، قال وهو ينهض:

- كان بمقدوري أن أتصرف بشكل أفضل، في هاتين الكرتين المنتنتين. وعند الخروج، كان يستند إلى ذراعي ويسير بخطوة مترنحة. وأشك اليوم في أنه كان يغالي بعض الشيء في التعبير عن قلقه، الذي كان مسألة جادة مع ذلك، وتبعنا نيلب وهو يفرط في تقديم عزاءاته الصداقية، على حين راح بيرلوديه

المشاكس يسأله من بعيد، وبصوت عال جداً، عن المسافة المفترض أن يقذف به فيها أبوه من أول ركلة في مؤخرته، واصطحبناه حتى باب بيته، ثم قفز نيلب على سلم الترام الذاهب إلى سانت -برنابا، ومضيت أنا باتجاه السهل، قلقاً وشاعراً بالذنب لمجرد اطلاعي على سره هذا، الذي كان من المخجل أن أحكيه في بيت جوزيف.

وأخيراً، طلع فجر يوم الأربعاء، يوم المأساة القدرية المستفحلة ويوم الحساب. وكان مؤكداً بالقطع أن الفراش سيأتي، فيما بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة، أثناء حصّة الإنجليزية، حاملاً تحت إبطه الأيسر السجل الكبير الأسود الذي يسجل فيه ييتزو أسماء الغائبين وفي يده اليمنى عشر مظاريف صفراء يحتوي كل منها على عقوبات الاحتجاز التي وقعت بفصل من الفصول، ويعطي المظروف الخاص بنا لبيتزو، الذي سيوزع في التو هذه النصوص العقابية باليد، وكانت هذه الحفلة الصغيرة أمراً لا يمكن تفاديه، ولا شيء بمقدوره تأجيلها، اللهم إلا موت الفراش عند استيقاظه، أو زلزال أرضي، أو مجيء يوم القيامة، والتي هي أمور يندر احتمال وقوعها. وظل لدي مع ذلك بعض الأمل. وهو أمل ضعيف، بالطبع خيالي. ككل آمالنا تقريباً، كأن ينسى المراقب مثلاً الأمر كله كما نسي ذات يوم أن يسجل عقوبة احتجاز وقعت على باربي، (الذي ضبط وهو يدخن بدورة المياه، وكما حدث مرة أخرى، بعد أن وجه توبيخاً عنيفاً لريموسا) (الذي وضع دهبوساً حاداً على مقعد تينياس)، وقد عاقبه بأربع ساعات من الاحتجاز، لم يسمع بها المحكوم عليه بعد ذلك ولم توقع عليه. لذا لم يكن مستحيلاً بالمطلق أن ينسى حكاية لانيو، لدينا إذن فرصه صغيرة، جداً، بالطبع، ولكن تظل لنا فرصة، موجودة ما تزال، وهي ضعيلة. ولكن بإمكاننا أن نملق عليها بعض الآمال. وفي الساعة الثامنة إلا الربع، وجدت لانيو بالفناء. مستنداً إلى شجرة دلب، يداه في جيوبه، ناظراً إلى الأرض، وهو يستمع للتفسيرات المنطقية المعزية لنيلب، وهي تبريرات منطقية غير فاعلة، لأنها قائمة على جهل

بحكاية لانيو. فقد اعتقد نيلب في الواقع أن والد لانيو كان يوقع شهادات احتجاز ابنه وأن هذا الاحتجاز ليس أكثر خطورة من سابقه، وبالمقابل، كان يفكر بأن حكاية الكرات المنتنة تتضمن تعبيراً ساخراً قد لا يغيب عن بال السيد لانيو. لكن لانيو زميلنا. كان يهز كتفيه كالمنذب، وهو يتسم ابتسامة حزينة وهو يستمع إليه.

وأثناء نصف الساعة الأولى من الحصة الأولى وكانت للدرس الإنجليزية، رحنا نترقب دخول الفراش، نذير الكوارث. وانفتح الباب فجأة وأصابتني رعدة. وأخني لانيو رأسه مرة واحدة، كما لو أنه يتفادى سهم القدر. ولكن لم يكن الدخول للفصل إلا واحداً من الطلاب الخارجيين، وصل متأخراً، حامياً نفسه بورقة اعتذار عن التأخير موقعة من عائلته. ودقت الساعة معلنة منتصف الحصة بعد مرور ساعة. وتضاعف توتر لانيو. وكان يكتب بعصبية ملاحظات لا تقرأ حين شرح لنا ييتزو، مرة أخرى، قاعدة المضارع، بدلاً من المستقبل الذي يأتي بعد When التي كانت في مقام مفعوله المطلق - وفهمت أن لانيو، بانهكابه هذا، كان يأمل، على نحو غامض أن يتكرم الله عليه بإلغاء احتجازه. وقد بقيت ساعة أو ساعتان، ودقت الساعة تمام العاشرة إلا الربع.

وابتسم لي ابتسامة واهنة، ابتسامة بعضلات وجهه فقط، لم تلمع في عينيه. كان الفراش قد تأخر. أكان من الممكن ألا يجيء؟ وهل يمكن أن يكون قد مات في الليل؟

ربما ... ولكن ها هو يفتح الباب، ويتقدم بغطاءة نحو المنبر، وفي يده اليمنى تلمع المظاريف الصفراء ...

ورضع سجله الضخم مفتوحاً أمام ييتزو الذي سجل فيه أسماء الغائبين، ثم بحث بشكل متوتر، بين المظاريف، عن المظروف الخاص بالصف الخامس أ. وعندما فتش فيها جميعاً، بدا مندهشاً لأنه لم يجد مظروفنا! وراح لانيو يخطب

ركبته بركبتي تحت الطاولة، ويتشنج تشنجاته اليائسة. لكن الفرّاش عاود البحث، وفجأة، أمسك بالمظروف القاتل، وبابتسامة شنيعة، وضعه على المنصة واستعاد سجله، ووضعه تحت إبطه وخرج، سعيداً بفعله الشائن. وانسحق لانيو، تحت وطأة قدره، فزرع مرفقه الأيسر على الطاولة، وأسند جبهته الباردة على يده، وانتظر أن يعلن صوت بيتزو أسماء المذنبين حتى يتقدموا إلى المنصة ويتسلموا بأيديهم إعلان عقوباتهم.

رغم كل ذلك، ظل لدي بعض الأمل، فهذا المظروف يحتوي شهادات الاحتجاز لكن هل يمكن ألا تكون به الورقة الخاصة بلانيو؟ وكان يأمل طيلة الوقت، هو أيضاً، لأنه راح يرتعش بقوة لدرجة أنني لاحظت ارتجاف سطح الحبرة أمامه. وسمعتا صوت السيد بيتزو يرتفع فجأة. كان يقول: «عندما أذهب لإ إنجلترا، سأكل كعكة البودنج»

«When I am in England, I shall eat plum-puding» ورفع لانيو رأسه، وكان المظروف الأصفر يلتصق في ركن المنصة، كما لو كان مهملأً.

هذا معناه، تابع السيد بيتزو، إن الإنجليزية تعتبر أن من يتحدث صار بالفعل في إنجلترا عندما أكل كعكة البودنج، وبالنتيجة، سيكون ذلك بالنسبة لها مضارعاً. فياسيد رويان. هل يمكنك أن تترجم لنا: «عندما يصير أبي عجوزاً، سيكون له شعر أبيض»

"When my father is old. his hair will be white"

— مضبوط، قال السيد. بيتزو، بفرح حقيقي.

واستدار ناحيتنا، وصاح:

— السيد لانيو، هل لك أن تترجم لنا هذه الجملة:

"When I am at home I shall have a pleasant dinner with my family"

ونفض لانيو وبدا عليه التفكير وهو يصبوب أذنيه لكي يتصيد الهمسات التي أحاطت به في التو فقد كان شميدت وبيرلوديه يكذبان في تلقينه وهو يردد وراءهما بصعوبة.

- عندما أصل ... إلى البيت .. سأكل عشاء طيباً مع عائلتي.

- شكراً، قال السيد بيتزو. إن السيد شميدت سيحصل على عشر درجات لأنه ترجم الجملة بصورة صحيحة ، وعلى صفر في السلوك، لأنه غششك إياها. أما أنت فسأضع لك صفراً في الدرس لأنك لم تفعل شيئاً سوى ترديد ما لقنك ، وبغير أن تفهم ما همس لك به السيد شميدت. اجلس!

ثم عرج على قاعدة Shall ، Will ، Should ، و Would ، ولم يفهم كلمة مما قال، فلم تكن تتابع إلا حركاته. هل سيمسك بالمظروف ؟ إنه حتى لم ينظر إليه. وراح يتباهى بعد ذلك بأداء بعض الشعر الذي وجدته مبتدلاً، ففي هذا الشعر، بعد أن حصل على مشورة نجم تلاًلاً، سأله عمن هو ... وراح لانيو، الذي كان في قمة عصبيته يهزهز ساقيه تحت الدرج بقوة رجّت الممر.

ودق الطبل فجأة، ووضع بيتزو كتبه في شنتطته، وجرى جايانو، كعادته، إلى الباب في قفزة واحدة، عندما صاح بيتزو:

انتبهوا! سكوت! وأخذ أخيراً، من على ركن مكتبه، مظروف المذنبين.

وفتحه وأخرج منه خمسة أو ستة شهادات وأعلن:

- جايانو! أه، هذا إعلان يخلصك!

ومد يده بأول ورقة احتجاز له، وتوقف الفأر، ثم تقدم، وهو يمثل بحركات إيمائية لطيفة أنه مذهول ومستكر.

ونادى بعد ذلك على بيريدييه (الذي تسلم بعدم اكتراث تام الدعوة

للحخص الإضافية ليوم الخميس) ، وعلى فيرنيه (الذي هز كتفيه خفية) ، ثم نادى على جونتار . الذي نظر إلى ورقته ، ولم يتمكن من التحكم في التعبير عن سعادته ، فقد طفرت منه قهقهة عالية .

– ماذا ؟ قال السيد بيتزو بفضفاضة . أهذا هو رد فعلك على الأمر ؟

– ياسيدي . قال جونتار ، لقد تصورت أنني سأحتجز ليوم كامل ولكن السيد المراقب لم يعاقبني إلا بأربع ساعات فقط !

– أمل ، قال السيد بيتزو ، ألا يضحك السيد والدك بمرح هكذا مثلك ، كما أنني لا أعرف ماذا أفعل لكي أطيل لك عقوبة تبدو لك قصيرة بهذا الشكل !

وأمسك السيد بيتزو بالورقة الأخيرة ، وهو ما يزال يتكلم ، وغرس لانيو أظافره في عضلة ذراعي .

– إنها تخصني ، غمغم ، أنا متأكد أنها تخصني .

أجل ، كانت تخصه ؛ فقد نظر السيد بيتزو إلى الورقة ، وقال :

– وفيما يخص « الاحتجاز ليوم كامل » ، للذي قُلف ، فيما يبدو ، قاوررة متنتة أثناء درس التاريخ لذا فسوف يأتي غداً صباحاً من الثامنة حتى السادسة مساءً ، وهو الأمر الذي يعد تساهلاً معه على فعل كهذا .

ومد يده له بالورقة القتالة ، وأخذها لانيو ، ولكنه لم يجرؤ على النظر فيها أمام الجميع ؛ ووضعها في كراسة نصوصه وتوجه للخروج عندما قال السيد بيتزو .

– عقوبة ثقيلة كهذه ، ربما يكون لها نفع كبير ، وسوف أساعدك في الاستفادة منها ، فلنكي توظف هذا اليوم على نحو أفضل ، مستترجم لي ،

نسختين، من الاثني عشر درساً الأولى من كتاب الإنجليزية "English Comrade" وسوف تتحسن إنجليزتك تماماً!

ومع إعلانه بهذه العقوبة الإضافية، تيلد لانيو تماماً، على حين قهقهه بيرلوديه وغمغم الجمع، فقد احتج البلداء، وسخر الطلاب المتقدمون بنفاق. ووجدت صديقي يتفوه بألفاظ المسبة، ويدفع عنه حلقة المتسكعين، فاقتلته إلى ممرات المدرسة الداخلية.

وفي ركن من الفناء، تفحصنا الشهادة، ولم يكن شيء غير عادي، فقد كانت تعلن أن الطالب لانيو، بالصف الخامس ٢، سيحتجز بالمدرسة يوم غد الخميس، من الثامنة صباحاً حتى السادسة مساءً، بسبب «قذفه بقرورة منتنة أثناء حصة التاريخ».

ولاحظت من فوري أن المكتوب هو قرورة منتنة واحدة لا قارورتين، وبغير ذكر تكرار الفعل ووافقني نيلب على هذه الملاحظة. فقارورة واحدة ليست بالشيء الخطر جداً، وبوسع لانيو أن يقول لأبيه إن تلميذاً بجواره مررها له وهو يعمل وأنه قذفها بعيداً من قرفة منها، بغير حتى أن يعرف ماهي، وأنه كان أول من فوجئ بها، بل وإنه لرتعب، من هذه الرائحة المقززة التي أوجعت قلبه. وبدت لي هذه الرواية مناسبة، فأعلنت، في انفعال صداقي:

وما عليك إلا أن تقول إنني أنا الذي أعطيتك القارورة!

- مادام الأمر هكذا، قال لانيو، يمكنني أيضاً أن أقول إنك أنت الذي قذفتها!

- إذا شئت، فأبوك لا يعرف أبي، وبالتالي، فهو لن يخبره بشيء!

- نعم، قال نيلب، ولكن إذا جاء يشتكي بالمدرسة ويقول للمراقب إنك أنت المذنب؟

— لن يصدق المراقب، قال لانيو، لأنه رأي من النافذة، ثم إنه، إذا جاء أيي للمدرسة، فإن لديهم أشياء أخرى يقصونها عليه ولن تروني بعد ذلك هنا! ولن أنقل هنا ما تحدثنا فيه طيلة اليوم، لأننا رحنا نعيد نفس الحديث مائة مرة.

وأثناء حصّة المراجعة المسائية، دمدم رعد، وهطلت قطرات كبيرة سريعة في التو على زجاج النوافذ، الذي راح يهتز بأثر الرعد

كانت قاعة المذاكرة هادئة؛ فقد جلس السيد. باير بمنبره، يقرأ جريدة. وراح نيلب يلتفت من حين لآخر ليبتسم ابتسامة صداقية، ولكن بغير أن يتسبب في أية ضحكة. ورحنا نستمع إلى صوت مصباح الغاز، الذي كانت مسارب الدخان تتراقص عليه فوق زجاجه.

وللصدفة البحتة، كنت قد أخبرت أُمي بأنني سأتأخر على الأقل عشرين دقيقة هذا المساء، لأنني سأضطر للمرور لدى أحد الأصدقاء لأخذ منه بعض الكتب. وكان لانيو جاهزاً، قبل دق الطبل بخمس دقائق.

— لقد أخبرتهما، قال، وهما في انتظاري كلتاها. تعال معي، تعال، ستقول لأُمي، ستقول بأنك أنت الذي فعلت هذه الفعلة.

وأغلقت الكتب والكراسات وكان الطبل ما يزال يدق حين خرجنا من باب قاعة المذاكرة. كان الرعد قد هدأ وراحت تلتصع خيوط دقيقة من المطر في الضوء الأصفر لمصابيح الغاز. وكاننا بالانتظار، ساكنتين، في ركن الشارع الضيق، واقفتين تحت مظلة واحدة.

كانت الخالة، النحيلة الطويلة جداً، تنتظر وعلى رأسها قبعة تشبه قبعات السيدات اللاتي تجتمعن المعونات لجمعية جيش الخلاص، وكانت عيناها واسعتين زرقاوين كالبحر.

واقترنا منهما .

- هذا هو مارسيل، قال لانيو .

وبغير حتى أن تنظر لي، سألت الأم، بصوت مختق:

- هل أتيت بها؟

ومد لانيو يده لها بالورقة.

عند هذا المشهد. صاحت الخالة صبيحة مختنقة، «يا إلهي! » ووضعت راحتها على خدها، كما لو كانت تسند رأسها. وفردت الأم الورقة واندفعت تقرأ فيها بصوت عالٍ ؛ وتبعثها الخالة، وهي تمسك بالمظلة المفتوحة.

كانت المرأة المسكينة تحاول قراءة السطور الصغيرة السوداء التي كانت تمثل لها أهمية كبيرة فيما يخص سلام عائلتها . وعبر رذاذ المطر الذي التمع تحت الضوء، رأيت ارتجاف يدها، السمينة، البيضاء، التي تضع خاتماً في كل أصبع من أصابعها، ولم تتمكن من القراءة فأخذت الخالة الورقة.

وبصوت منكسر، قالت:

- قذف ... كرية ... كرة

- قارورة منتنة، قال لانيو.

وردت هذه الجملة عدة مرات، بنبرات مختلفة، كما لو أنها كانت تأمل من وراء ذلك في تغيير معناها، ثم قالت بتصميم:

- أولاً، لماذا يسمعون ببيع القوارير المنتنة للأطفال؟ وهل يسمعون المسدسات؟ كم هي غريبة، الجمهورية! إنه مدير سوق هذا السيد سيبيه (الرئيس) ومن المفروض أنه هو الذي يجب أن يعاقب. فهو الذي قذف هذه القارورة المنتنة! أجل هو الذي قذفها بالفصل عندما سمح بوصولها ليد هذا الصغير المسكين!

- اهديني يا أنا، قالت الأم. لاتحدثني بصوت عال هكذا .

واستدارت نحو ابنها.

- هل أنت متأكد من أنه أبلغ أباك ؟

- قال لي إنه سيرسل له «نسخة» من هذه الورقة لمكتبه.

- لمكتبه! رددت الخالة في استنكار. لمكتبه! أي فقدان للثقة هذا

وبدا لي أن اتعدام الثقة البغيض هذا كان جزءاً وفاقاً، لكن النساء وبصفة خاصة الخالات، لاتقدرن الأمور بطريقتنا ...

وكانت الأم مشلولة الحركة، ورأيت دموعاً في عينيها. وغمغمت: «لو أنهم أرسلوها هذا الصباح، فسوف تصل في بريد الساعة السادسة، وسنجدوها بالمنزل.»

- اسمعوا، قال لانيو، لابد أن نقول لأبي إن هذه عقوبة ظالمة، لأنني لست أنا الذي قذف هذه القارورة. وسنقول إن من فعل هذا هو مارسيل.

- إنه لن يصدق هذا! قالت الخالة.

- وإذا صدق، فسيذهب للمدرسة غداً صباحاً ليحتج ومن ثم وأصاب الثلاثة الصمت، وظلوا ساكنين، تحت رذاذ المطر الذي أضفى حالة من الوحشة على الموقف. وفجأة، ألقى لانيو بكتبه على الأرض، واندفع نحو أمه وتشبث بها وهو يشهق. وانهمرت دموع الخالة، تحت المظلة المرتعشة. وأصابني الاضطراب لهذا المشهد. ورغبت في البكاء أنا الآخر، وأنا أجمع كتب المسكين التي تبثرت .

ثم فكرت في تضحية لانيو، الذي قبل أن يوقع الاحتجاج عليه بدلاً مني في عملية المتنوقين واتخذت قراراً بطولياً.

- اسمعي ياسيديتي، أنا عندي فكرة!

وفتحت الخالة، التي أصابها الفواق، عينها على اتساعها:

- أية فكرة؟ يا إيرين، يقول إن لديه فكرة، أية فكرة؟

- إذا شئتم، سأقول أنا للسيد. لانيو الوالد، إنني أنا الذي قذقت بالقرارورة المنتنة ... ثم أقول له إنني طالب حاصل على منحة وأنه إذا ذهب للقاء المراقب، فسوف يحرمونني من منحتي، وربما يؤدي هذا الفعل أبي، الذي هو معلم -نفسياً- أذى مميتاً!

- هل ستفعل هذا؟ قالت الأم المضطربة.

وصرت موضع إعجاب ليطولتي.

- نعم سأفعل ذلك في التو.

ونظرت لي الخالة بعينين مجنونتين، وأطلقت تنهيدة ما وقالت:

- إن الله هو الذي أرسل لنا هذا الطفل!

ونزلنا بخطوة سريعة طريق الكانبيير، لأن لانيو كان يسكن بشارع الفردوس، وهو شارع البرجوازيين الأغنياء. وراحت المرأتان أثناء سيرنا توجّهانني لما سأفعل وتحديدان سيناريو هذه الملهاة المأساة. وأمسك لانيو بذراعي، وغمغم وهو يتنشق دموعه:

- ستنجح الخطة! ستنجح الخطة!

وبدأت أقلق، فالبطولة مثلها مثل فطيرة الجبن، لا تحتل الانتظار حتى تبرد وقلت فجأة:

- هل يمكن أن يضريني؟

- بالطبع لا! قالت الأم. إنه قاس، ولكنه ليس مجنوناً.

- ثم إتنا، قالت الخالة، سنكون معك، نحن الاثنين!

- لربما كتب لأبي!

- لا أعتقد هذا، قالت الأم وعلى كل حال، لو أنه فعل ذلك، سأذهب أنا لمقابلة أبيك، وأقول له كل الحقيقة! وأنا على يقين من أنه سيكون فخوراً بك!

ووضعت الخالة يدها على كتفي، كما لو أنها تؤمن على وجودي، بينما كان لانيو ممسكاً بذراعي، وكان الاثنان يدفعانني للأمام، باتجاه التضحية ...

كان يبتهم بالفعل بيتا جميلاً، سلمه مضاء بالكهرباء، وبه سجادة حمراء على الدرج، وكان العمود الأول للدرازين موضوعاً بدلاً منه تمثال لامرأة من الرخام، في ثوب من البرونز. وكانت بديعة الشكل.

وصعدنا ببطء للدور الأول، بغير أن نحدث ضجة، وكانت المرأتان تتوقفان أثناء الصعود كل ثلاث درجات، لتتنصتا ما إذا كان الأب قد رجع؟ ترى هل سنجده بانتظارنا في الرواق، واقفاً وعصاه في يده؟

ولم يكن قد عاد، واقتادتنني أم لانيو إلى بهو جميل يكاد يكون متحفاً صغيراً وأجلستني في مقعد بديع أسود من خشب من نوع خشب البيانو، ولكنه مفتول بشكل ملولب؛ ثم قالت لي:

- اجلس هنا، فلا يجب أن يراك في التو. وعندما يصل، سنحاول أن نمهد له الموضوع، وسأتي لكي أصطحبك إليه في اللحظة المناسبة. لا تخش شيئاً. سيمر كل شيء على أفضل ما يكون.

وخرجت ولكنها عادت حاملة على طاولة علبة كبيرة من الكرتون، مليئة بمكعبات الشوكولاتة، وسلّة صغيرة مستديرة، يعلوها شريط مضفر، مليئة بالفواكه المسكرة من كل الألوان.

- تفضل كل من هذا، قالت، ولا تقلق. كان هذا شيئاً من السهل قوله،
وخطر لي فجأة أن هذه الأم الرقيقة لديها بالطبع حنان على ابنها أكثر مما لديها
حنان علي، وبأنتي سيصيني، ربما، الأذى بسببه.

ولكن ما الخطب! إن علي ديناً لا بد من أدائه تجاه لانيو. ومن ثم، إذا ما
شرعت في شيء علي إكماله. وتناولت قطعتين من الشيكولاتة مرة واحدة،
لأنني خشيت ألا يكون لدي من الوقت ما يجعلني أفيد من هذا الوضع
الطارئ.

ولم أسمع أية ضجة. ورحت أتأمل بإعجاب الديكور الفخم، وأنا ألوك
الشوكولاتة ثم نهضت، ورحت أتأمل المتحف عن قرب.

كانت هناك ساعة مذهبة معلقة فوق المدفأة، بين شمعدانين زجاجيين لكل
منهما عدة أفرع. وفوق ميناء الساعة، كان يوجد تمثال صغير، يمثل امرأة
صغيرة عارية. كانت تجري بسرعة حتى أن إحدى قدميها تلمس الأرض
بطرف إصبعها والقدم الأخرى تتراجع في الهواء، بعيداً خلفها. وكانت
تمسك، وهي تجري، بقوس تشده، وحولها كان جمع من الكلاب يتفافز.
واقتربت، ألتمس بأصابعي صدرها الذي كان رائعاً. ولكن تبين لي أن هذه
اللوحة الرائعة. كان ينقصها الشيء الأساسي فقد كان القوس بلاوتر! وبدا لي
أن هذا أمر يؤسف له، وقررت أن أوصي لانيو بأن يضع لها وترأ مطاطياً مزدوجاً،
مذهباً ببودرة الذهب.

ولأنني لم أكن أسمع شيئاً مازلت، أخذت في عجلة قطعة شوكولاتة
محشوة، وعلى طاولة ما (مذهبة هي الأخرى)، شد انتباهي وجود أفيال صغيرة
خزفية، وتماثيل لحود ملونة، وعرائس يابانية لها شعر حقيقي، وحمار له وير
حقيقي، يهز رأسه عند لمسه. كان المكان جميلاً، وكان به كثير من التحف
الفنية كما لو أنه فترينة محل للتحف.

وبعد أن تخيرت قطعة من البرتقال المسكر، رحت أتأمل بإعجاب الثريا المعلقة بالسقف. كان بها على الأقل عشرة مصابيح كهربائية، معلقة في خزامية من اللؤلؤ، في منتصفها تماماً، وإلى الأسفل، ملاك من الزجاج له أجنحة خضراء يعزف في بوق ذهبي ... وخطر لي أن هذا الجو سحري، بما أن المصابيح كلها كانت مضيئة لاستقبال المدعوين ... وصرت معجباً بصديقي، تحت تأثير هذا الغنى، فباكتشافي هذه الفخضة، تبين لي مدى تواضعه، لأنه لم يحدثني أبداً عن ثروته، وأنه كان طيباً كما لو أنه كان فقيراً. ولم أتردد لذلك في أن آخذ مشمشة مسكرة، مرشوشة بالسكر، وبدأت أتذوقها، عندما سمعت صفعه باب، ثم صوتاً غليظاً قوياً مزمجرأ، تبعه صوت امرأة تحدث في سرعة، ثم هذان الصوتان معاً، ثم صوت لإغلاق باب آخر، ثم لم أعد أسمع إلا غمغمات، وانتبهت لطعم المشمش في فمي. وفكرت في « أنهم بصدد إعدادة للموقف ».

وتمنيت لو أن هذا الإعداد طال بما يسمح لي بأن أتلهذ بهذه المشمشة التي التصق نصفها بسقف حلقي. وفتحت الخالة الباب فجأة، وكانت تبتمس، ولكنني لاحظت جيداً أنها كانت تدعي هذه الابتسامة لكي تطمئنني. وبإشارة من رأسها، دعني، فتبعها.

لم يكن لانيو مغالياً فيما يقول، فقد كان أبوه بالفعل طويلاً وعريضاً كأنه دولاب وكان شعره الشائب، القصير، ينتصب متصبلاً فوق رأسه، وعيناه السوداوان، الصغيرتان الحادتان، تلتمعان تحت حاجبيه الغليظين اللذين انتفش أسفلهما فيما يشبه أرجل العنكبوت.

كان واقفاً إلى جوار مكتبه، ممسكاً بالورقة في يده.

وعند ظهوري، تحدث بصوت خشن، كأنه صوت جنرال مبحوح.

— أهو أنت إذن، أيها السيد، الذي قذفت القوارير المتتة في فصول المدرسة.

وأحيت رأسي، في خضوع، ولم أجب بشيء.

- والأدهى من ذلك، الأدهى، هو كيف تتسبب في عقاب رفيق لك بدلاً منك؟

وحافظت على التصرف كالذليل، وأنا أنظر إلى السجادة، التي كانت مزينة بزخارف خضراء على أرضية حمراء. وصار صوته أعنف من ذي قبل.

- هل أنت مدرك مدى فداحة ما فعلت؟

كان عاقداً ذراعيه، في انتظار إجابتي. لكن المشمش الملتصق بسقف حلقي شل لساني؛ وعندئذ، كرر قوله:

- هل أنت مدرك؟

- نعم نعم، يا إدوارد. إنه مدرك!

- بل لا! قال بإصرار، إنه لا يعرف مدى تأثير ما فعل، ولابد من وضع النقاط على الحروف أمامه. وأشار بأصبعه على ابنه، الذي لم يد عليه أي انزعاج، ولكنه كان يتسم ابتسامة شاحبة لشهيد مظلوم.

- هنا الغلام، قال، الذي، يبدل جهداً مضنياً من بداية هذا العام - منذ شهر أكتوبر - لكي يتفوق. والذي حصل على درجات أعلى من المتوسط بالسلوك في شهادته الفصلية، ولم توقع عليه عقوبة احتجاج واحدة من ثمانية أشهر، ها هو، بسببك، ينال عقاباً بالاحتجاج! فتضيق كل جهوده هباء، وعليه أن يبدأ من الصفر! نعم. من الصفر. قال لانيو بيرود:

- دع هذا عليّ يا أبي!

- أرايت، يا إدوارد، قالت النخالة، إنه يتعهد بأن يبدل جهده من جديد!

- لأنه لا يدري، هو الآخر، مدى خطورة ما حدث. إنني متأكد من أن

أساتذته سيحتقدون بأنه عاد لما كان عليه بالعام الماضي، وسوف يركزون مراقبتهم عليه بشدة وعندما نقتنع بفكرة أن طالباً يرتكب فعل قذف القوارير المنتنة، فسوف نضع كل الذنوب الأخرى على رأسه! والآن، فإن عليه أن ينتبه لأقل حركة تصدر عنه، وعند ارتكاب أحد لحماقة جديدة أياً ما كانت، فإنه هو الذي سيحتجز. وهذا كله نتيجة فعلك.

- يا إدوارد، قالت الأم، أعتقد أنك تغالي بعض الشيء .

- بالإضافة إلى أن الأساتذة الآخرين، قالت الخالة، لا يعرفون حتى أنه قد عوقب. أليس كذلك يا جاك؟

ورفع جاك رأسه، وقال بصوت ناعم:

- لم يعرف أحد سوى السيد ميشيل ... وربما السيد المراقب أيضاً. ولكنه مع مجيء الأسبوع المقبل، سيكون قد نسي كل شيء! ...

وفكر الرجل الضخم عدة ثوان، وقال لي بفظاظة:

- في عمرك، يمكنك ارتكاب الحماقات، ولكن، على الأقل، عليك تحمل مسؤوليتها. ولو أنني كنت في مكانك للذهبت واعترفت.

- ليس بوسعه أن يفعل هذا، قالت الأم. قلت لك. إنه حاصل على منحة، ووالده معلم فهو ليس ثرياً، إذ إنه معلم. ولو أن هذا الصغير فقد منحة، فلن يتمكن بعد من مواصلة دراسته! ...

- إذن كان عليه أن يقدر ذلك قبل إقدامه على الجرم! ثم إننا عندما نكون حاصلين على منحة، فعلياً أن نلزم الهدوء. فلا يجب أن ننسى أن الحكومة تدفع هذه المنح لهم من ضرائبي - وهذا واحد منهم يعكرو صفو فصل - ويتسبب في إدانة ابني! إن له عقلية غريبة. ولو أن الشباب الحديث هكذا، فسوف يكون لنا منه جتود هزليون! إننا أيها السيد لن نستعيد الأكراس واللورين

بالقوارير المنتنة!

- وبدت لي هذه الفكرة فكهة، ولم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام.
- ثم إنه يضحك! صاح معلم الشحن. نحدثه عن الأقاليم الضائعة، وهذا الشيء يضحكه! وهذا هو الأدهى.
- وتدخلت الأم على استحياء:
- اسمع يا إدوارد، لا تنس أيضاً أنه كان من الشجاعة بحيث أنه أتى ليقول لنا الحقيقة.
- أنت التي أرغمته على الحضور؟
- إطلاقاً، قالت الخالة، إنه هو الذي عرض ذلك علينا!
- وخطا الأب بضخ خطوات، ثم عاد باتجاه مكتبه ووجه الحديث لابنه:
- ولماذا لم تقل ساعتها الحقيقة؟
- لقد قلت: إنه ليس أنا، ولكنهم لم يصدقوني.
- ومتى حدث ذلك؟
- صباح الاثنين.
- ومنذ صباح الاثنين، ألم تفكر في قول الحقيقة؟
- واكتسب وجه لانيو في التو تعبيراً مستكراً.
- أنا؟ قال. أشي يصدق؟ بالطبع، لا! هذا شيء لا يجب فعله!
- ومع ذلك فأنت تعرف أنك ستعرض للعقاب!
- نعم أعرف ولكنني عرّكت على أن أقول لك الحقيقة وأملت أنك

ستصدقني!.

- أنت مخطئ! فلو لم يأت هو إليّ هنا، لما صدقتك .

- انظر يا إدوارد، صاحبت الأم، كيف أنك تكون ظالماً بعض الأحيان!

- هذا صحيح، قالت الخالة، المتأثرة، فأنت لا تتق أبداً بهذا الطفل! وفكر الأب ثانية لبرهة، ثم أعلن:

- عموماً، ليس الأمر برمته شيئاً شنيعاً.

واستدار ناحيتي. أما أنت، فموقفك ليس نبيلاً، بالطبع ليس نبيلاً لقد جئت إلى هنا ، هذا صحيح، لكنه كان يجب عليك، قبل أن تغذف القارورة التتنة، أن تفكر في السيد والدك. إنه رجل أمين، والدك. فما الذي سيقوله إذا علم بتصرفك؟

وأزعجني جداً، أن تأتي سيرة أبي في مسرحية الكذب والنفاق هذه. وراح يلح:

- نعم، ما الذي سيقوله؟ ما الذي سيقوله أبوك؟

وكانت لدي رغبة في أن أقول له: سيقول عنك إنك مصران غليظ محشوا ولكني، بالفعل لم تولدني الشجاعة، وهزرت رأسي بحزن، ثلاث أو أربع مرات، وأنا أحاول أن أذيب بلساني نصف المشمشة الذي ظل ملتصقاً طيلة الوقت بسقف حلقي.

ومر صمت طويل. وراح معلم الشحن الضخم يتمشى بخطوة بطيئة من الباب حتى النافذة، وبدا مستغرقاً في تفكير عميق. وانتظرت المرأتان، صامتتين، ولكن في اطمئنان. وجلس لانيو على مقعد عاقل ذراعيه، ناظراً للسجادة- لكنه كان يغمز لي بعينه في كل مرة يدير لنا فيها أبوه ظهره، ويخرج له لسانه.

وأخيراً توقف المفكر عن المشي، وقال:

- لا بأس! بما أنه أتى واعترف هنا، فلن أقول شيئاً لأحد، لا لأبيه ولا للمدرسة.

- يرافو قالت الخالة، يرافو يا إدوارد، إنك رجل كريم وصاحب قلب نبيل!

- ولكن حذار من المرة المقبلة! أضاف، وهو يصوب نحوي أصبح التهديد.
- لن تكون هناك مرة مقبلة! صاحت الأم، التي كانت تبكي من الفرح.
أليس كذلك يا جاك؟

وبدا جاك مقزراً، لأنه نظر مدعيّاً البراءة، وصاح:

- ولم تقولين ذلك لي؟ إنني بريء!

- معه حق، قال الأب. فكل ما فعله هو أنه تلقى العقاب لكي لا يشي بصديق، وهذا في صفه. نعم هذا في صفه. وهو أمر لا يشينه.

واقترب من ابنه وهو يواصل الحديث، ووضع يده الضخمة على شعر الرأس الأكرت لهذا المدلل، الذي تصنع التواضع والارتباك.

- لقد قبل أن يتحمل خطأ شخص آخر، لأنه رفض أن يقال عنه: إن لانيو الصغير، ابن معلم الشحن، يشي برفاقه. وأنا أحترم هذا. نعم أحترمه.

وكان يحترم هذا الموقف، بالفعل، فقد بدا لي فجأة أنه قد كبر أكثر؛ إذ رأيت ابتسامة بدعية تتفتح على هذا الوجه الغليظ، والتمتع الضوء في عينيه.

جاءت نتيجة هذه المغامرة عجيبة.

فأولاً، وجد لانيو، بعد يومين من هذا، عند استيقاظه صباحاً، أمام سريره، دراجة تبرق ذات سرعات، ومقعد محشو، وبدالات بمساند كاوتشوكيه، فقد قام

معلم الشحن الرهيب بتقديم موعد عيد الميلاد لابنه. وهذه المكافأة التي جاءت في غير مكانها، ضاعفت من مسؤوليات الابن، وأرهبته. فشرع صديقي في العمل بحماسة مذهلة، أو كما يقال أطعم الفم تستح العين، فقد قام بعمل موضوعات اللاتينية. وراح ينسخ -حرفياً- مسائلي، وخصص أيام الخميس لكتابة موضوعات الإنشاء الفرنسية بمعونة خالته.

الأكثر من هذا، أنه كان ينسخ دروس اللاتينية، بحروف كبيرة، على ورقة مقطوعة من دفتر، وكان يشبك هذه الورقة من أعلاها تحت ياقة سترة ريموسا، الذي كان يجلس أمامنا، الذي كان يصير بهذا الشكل كالرجل الذي يضع إعلاناً على ظهره ليحمل وبشكل واضح، أمامنا بميل نحو الأسفل، حكاية فيدرا، أو قواعد أفعل التفضيل المعروضة بين كتفيه الهزيلين. وكان لعمليات الغش هذه أثر كبير على وضعه، فقد حصل لانيو، بفضلها، على درجات جعلته يمتلئ بالزهو والثقة بنفسه؛ ومن جهة أخرى، بتأثير تفكيره في خدعه الدراسية، صار يهتم بالدراسة الفعلية ويدأ أنه من السهل عليه أن يذاكر دروسه بدلاً من إضاعة الوقت في إعداد عمليات الغش المعقدة. وأخيراً، وبعدما بدأ الأساتذة يعدونه تلميذاً جيداً، أصبح بالفعل تلميذاً جيداً، وذلك معناه أنه لكي يستحق الناس ثقتنا، لا بد لنا من أن نبادر بإعطائهم هذه الثقة.

بالطبع، لم يحصل على الامتياز، ولكن حصل على ترتيب الثالث مكرر في اللاتينية والرابع في الفرنسية، وكانت نتيجة، أطاررت صواب الخالة في الفصل الأخير من العام، ولكن لأنها كانت أسيرة لما فعلته في الماضي، تطلب الأمر منها أن تزور شهادة أخرى (بسبب تغير الخط في الشهادة الأصلية، مما كان من شأنه حبك الموضوع على معلم الشحن)، ولكنها لم تبدل درجة واحدة ولا ملاحظة واحدة. وهكذا لم تصبح الدراجة الجميلة مكافأة على عملية نصب، وإنما مكافأة جاءت سابقة لأنها فحسب. أما أنا، فإن إخلاصي للمصداقة عاد عليّ بالنفع الكثير. فقد حملت لي الأم والخالة أولاً عرفاناً أبدياً، وصرت أدعى

كل خميس للنزوات التي أصبحت حقيقية، لأن لانيو لم يعد يحتجز. وكانت هذه الفسح تقودنا إلى قرية الكرمة، أو قرية البوياديس أو إلى تلال الألاوش. ولكن في الظهر، بدلاً من أن نأكل الخبز والسجق، كانت الخالة الغنية، تدعونا إلى غداء حقيقي في مطعم القرية، حيث كانت تقدم لنا مع الطعام فواخ الشهية (وعندما قصصت على يول أنه بالمطاعم، يقدمون لنا عشرة أطباق صغيرة من فواخ الشهية قبل الأكل، بها كل شيء وأنا يمكننا أن نطلب منها ثانية ما شئنا، أثار هذا نهمه الطبيعي، وسأل أبي ما إذا كان ممكناً أن يتمتع مرة بهذه الأعاجيب).

حوالي الساعة الرابعة، كنا نعود لبيت لانيو. وكانت أم لانيو تعد لنا وجبة خفيفة، باباس بالروم، وكعكة الميرخ، والملقوف بالكريمة وعجينة اللوز المشكلة على هيئة التين، المغطاة بطبقة سميكة خضراء، والتي تذوب بنعومة تحت الأسنان، لتعطي طعماً لذيذاً باللسان. وأحياناً، في حدود الساعة السادسة كان السيد لانيو يصل، ويحيي ليلقي نظرة على ألعابنا ... وفي المرة الأولى التي فعل فيها هذا، أصابني الموقف بالمفاجأة وقلقت بعض الشيء وأنا أستمع إلى خطواته بالرواق. فقد فتح هو باب البهو، حيث كنا نلعب الضامة ونحن مفترشون السجادة، وقال لي: أه! أهو أنت، أيها اللص؟

ثم شد على يدي، كرجل. وسأل بعدها زوجته:

- ألم تقدمي لهم وجبة خفيفة، على الأقل؟

وبغير أن ينتظر إجابتها - فقد شاهد الأطباق على الأرض - تظاهر بأنه يتشمم الهواء، وقال:

- ما الخطب ألم يقذف أخصائي القوارير المنتنة شيئاً منها اليوم، إن الرائحة تكاد تكون رائحة الكريمة بالفانيليا.

ورنت ضحكته مججلة حتى أن الملك الزجاجي تأرجح من تأثيرها، على
خشخشات كريستالات الثريا ...

وبالمدرسة، ورغم أننا أقسمنا على الاحتفاظ بالسر، لم يستطع لانيو أن يقاوم
لذته بأن يقص كل الحكاية لبييرلوديه، وقد بالغ، بالطبع، في تصوير غضب
أبيه، ولم يجعلني أدخل في الموضوع إلا في اللحظة التي ارتفعت فيها العصا
لتهوي على مؤخرته العارية، كما جعلني أمام هذا الوضع أركع على ركبتي
وأنا أشق، بينما راحت اعترافاتي البطولية تشل ذراع الجلاد.

وأقسم بييرلوديه في بداية الأمر ألا ينشي بالسر، ثم راح بمجد شجاعتي،
وأعلن وهو يشد على يدي الاثنتين أنني تصرف كرجل وصديق. وأثار هذا
التقريب العلني فضول زكريا الذي تمكن من أن يتنزع من بييرلوديه تفاصيل
الحكاية. وراح بمجد شجاعتي، وراح ابن هوميروس، في فسحة الساعة الرابعة،
ينشد ملحمة الحكاية في جمع مصغ له، وحملني السامعون على اكتشافهم
كالمتنصر وداروا بي في الفناء. وأخذوا يمجدون بطولتي، وبنون على صداقتنا،
وكانت براعتي هي السبب في استحقاقني للثناء والعرفان من كل طلاب الصف
الخامس، وحتى طلاب السنوات المتوسطة. فمئذ افتتاح أول مدرسة ثانوية،
كانت عقوبة الاحتجاز تنسب في الصفعات والركلات بالمؤخرة، والوعود
الحانقة بالانكباب على الدراسة فوراً بشكل نموذجي وأنواع اللوم المهددة الأبوية
التي تستمر غالباً لعدة أيام، وقد قلبت أنا الآية فجعلتها تسفر عن دراجة هدية،
وتزين بالحلوى، وبالتهاني المجددة في جو من الزهو العائلي، وكان السيناريو
الذي نفذته أمراً في متناول الجميع!

ولم يتأخر البعض في استخدامه، فعلى هذا النحو ذهب بييرلوديه ذات مساء
ليعترف في بيت دوفرنه، ويتحمل المسؤولية الكاملة عن ديوس وضع على مقعد
بيتونيا ؟ وتمت مكافأته على ذلك، عندما ذهب دوفرنه، الذي كان مازال غارقاً

في العرفان، بعد ثلاثة أسابيع، يلقي بنفسه عند أقدام والد بيرلوديه ويعترف في خضوع بأنه هو الذي راح ينوح في الممرات الأمر الذي أسفر عن عقوبة ظالمة لابنه.

وعلى هذا النحو أيضاً كان المذنب المفتعل يعرض نفسه بلا خوف أحياناً للوَمِّ الوحشي، غير الموجه، لأب ليس أباه، على حين كان البريء الزائف يذهب لتحمل العقوبة المصحفة في ظل تعاطف وتقدير جميع عائلته، متأثراً وفخوراً بأنه قبل بإباء تحمل خطأ شخص آخر، مضحياً بيوم خميس كامل على مذبح احترامه لنفسه، ومذبح الشرف المدرسي، والصدقة.

وقد جاء النقد الوحيد لي من نيلب، زميلنا المتخصص بدراسة الإجرام، الذي بدا لي على نحو ما غيوراً.

- إنها حيلة بارعة، قال، وللأسف لا يمكن اللجوء إليها إلا مرة واحدة!

- مرة واحدة مع عائلة، صاح بيرلوديه، ولكن يمكن استخدامها مع ألف عائلة!

وهو أمر عظيم منه أنه فكر في هذه الحيلة، وأنا أرى أن عليه أن يكتب روايات!

مباراة جوريف

أثناء الإجازة التي توجت ذلك العام، عام الصف الخامس، وجدت ليلي قد

تغير، فقد صار شاباً تقريباً، وصار له زغب أسمر خفيف تحت أنفه الطفل محطداً ظل شارب رجل.

وصار متعلقاً بألمع الصيادين المخالفين بالمنطقة، وهو موند دي باريون. ولأن العم جول كان قد اشترى كلباً، كلباً صغيراً أبيض، من نوع الكوكر الإنجليزي، أعلنت لجوزيف أنه لم يعد بعد في حاجة إليّ للعثور على الطرائد أو مطاردتها، ورافقت ليلي وموند.

كان يسكن عنبراً لم يكن إلا عبارة عن دور أرضي طويل، تعلوه سقيفة، وتمتد عنه زريبة، بها خنزيرة هزيلة مخيفة، لكنها كانت طويلة طولاً غير عادي، غارقة حتى بطنها في مزيلة من صنعها، وهي تصرخ من الجوع طيلة اليوم.

كانت واجهة العنبر مبقة وقد زال ملاطها، لكنها كانت تظللها على نحو بديع شجرتا توت، من أيام حقبة دود الحرير.

ومن خلال الضوء الخفيف بالمطبخ الواسع، القادم من مصاريع نوافذه النصف مغلقة دوماً، كنت ترى الزنابير تتراقص ملتزمة في الغبار الذهبي لشعاع شمس كبير. وكانت تأتي لتتغذى على فضلات المائدة من آثار الحساء الذي جف في الأطباق اللزجة، وبقايا أرجل العصافير، وقشور الجبن، وحببات العنب المتعفنة، وقلوب التفاح أو الكمثرى. وكانت تتدلى على الحوائط، معلقة، جداول الثوم، والبصل، والطماطم الشتوية، وكانت الأرضية ذات البلاط المنبجج تعج بكل أنواع الحطام، من الكراسي المخلعة، والمقالي الفخارية التي بلا أذرع، والأباريق المهشمة، والدلاء المثقوبة، وبقايا الحبال المنسلة، والأقفاس المعوجة، وكل سقط متاع الأدوات الزراعية غير الصالحة للاستعمال.

وأخيراً، في ركن، كان فراش، عبارة عن مرتبة قطنية طويلة مفردة على الأرض، بغطاء مثقوب يمثل غرفة النوم ... وكان مظهر المالك لهذا البيت متناسباً مع بيته. فقد كان يرتدي طيلة الوقت بنطلوناً قديماً جداً من القطيفة

الصفراء، كان في حالة شديدة الرثالة، مرقعاً عند الركبتين وعند الفخذين يقطع مستطيلاً من القطيفة الرمادية. وكان قميصه رمادياً، هو الآخر، لكن هذا لم يكن لونه الطبيعي، وكان طيلة الوقت مفتوحاً من على صدره، بما يمكن من رؤية شعرات صدره الرمادية والبيضاء التي تتشابه مع فراء الغرير.

كان يغتسل بدون ماء، هارشاً نفسه، لكنه كان يوم الأحد، يهذب ذقنه بمقص بستاني. وذات يوم كسر معصمه، حين سقط من على سلم؛ ولأنه كان يقوم بعلاج نفسه دائماً، لم تلنحم عظامه ثانية.

وبقي له بهذا الشكل، بين الكوع والقبضة مفصل زائد، فكان بمستطاع يده أن تتخذ أوضاعاً مذهلة، حتى أنه كان بمقدوره أن يلفها كاملة حول نفسها، كما صار شكل ذراعه مشابهاً لشكل ذراع عصارة. وكان يقول إنه مريح جداً له على هذا النحو، ولكنني لم أكن أحمل النظر إليه عندما كان يحركه، لأن ذلك كان يسبب لي ألماً في القلب.

واتخذني صديقاً مقرباً له، وعلمني تقنيات نصب الفخاخ للأرانب، التي صارت لدي بعد ذلك قدرة على نصبها. فقد كان يجب أولاً تحديد مكان نصب الفخ، بعيداً عن الريح، بين عرعرتين أو صنوبرتين وحفر حفرة نظيفة جداً. وعلى حافة هذه الحفرة نضع حجراً كبيراً على طرف باقة من سنابل القمح، أو الشعير. ولم تكن القوارض تتأخر في اغتنام هذه الفرصة، وكنا بصفة مستمرة تقريباً نحدد مسار مرورها ابتداء من اليوم التالي، فتصبح مؤكدة بعد ذلك عودة هذه الحيوانات النهمة كل ليلة، وكان موند يقول :

- إنها تعطف!

وكم كان ذلك الاعتلاف قاتلاً فلم يكن علينا في هذه الحالة إلا أن ننصب الفخاخ أمام باقات السنابل. وكنا نصيد منها اثنين أو ثلاثة كل يوم تقريباً. ومن وقت لآخر كان موند يعطيني أجملها، فكنت أحمله مزهواً إلى

أمي.

وقد تكشف لنا ذات يوم، في وادي الباس نوم، باقات سنابل لم تكن لنا. وغضب موند وراح يسب اللص المجهول الذي جاء لينصب الفخاخ في أراضينا؛ ولكنني عندما رحت أنزع الباقة من مكانها، أوقفني بحركة:

— لا تلمسها! فلو أننا أخذنا هذه السنابل، سيضع غيرها، هنا أو في مكان آخر. وهناك شيء أفضل يمكن عمله، إذ يجب التبول عليها! فهو لن يكتشف ذلك، ولن تقترب الأرانب في هذه الحالة منها! وإذا فعلنا ذلك مع كل الباقات التي نصبها، سوف ينتهي به الأمر لليأس. هيا، تحركوا تبولوا أيها الأطفال!

وهو ما فعلناه بذمة. لكن اللص لم ييأس سريعاً، وتضاعفت الباقات العدو، وهو ما كان يجعل موند، يسقينا قبل الذهاب ثلاثة أو أربعة كؤوس كبيرة من الماء، حتى يشحننا وكان يوجهنا لفعل ذلك الواحد بعد الآخر، في جرعات صغيرة، الأمر الذي كان معذباً جداً، إذ كان علينا أن نتوقف بالأمر عن التبول، لنبدأ فعل ذلك عند الباقة التالية؛ ولكن كان من الضروري أن يثمر تعليمنا، وتمكناً في نهاية المطاف من التعود على التبول بشكل متقطع.

أثناء ذلك، كان جول وجوزيف يتصيدان بشكل مجيد وراء كليهما، الذي راحوا يقصون عنه الأعاجيب. فهذا الكوكر الصغير كان يتسحب بمهارة تحت الأدغال؛ ويطارد الفرائس، بشكل خفي، ويعود دائماً بالدراج أو الأرنب الجريح. وذات يوم، وعند رؤيتهما لشبح أرنب بري يجري بالغابة، أطلق كل منهما النار في نفس الوقت، ولم يخطئاً هدفهما، لأنهما أصابا الكوكر المسكين الذي سقط صريعاً في التو.

ويخجل شديد من هذا الفعل، فسرا لنا اختفاء الكلب قائلين إنه راح يطارد كلبة أغوته، ولم يعترفا بالحقيقة إلا بعد مرور عدة سنوات. وقد غالى العم في التمثيل إلى درجة أنه سأل عدة مرات، عند عودتهما من الصيد، ما إذا كان

الكوكرك قد عاد إلى البيت، وهو الذي دفنه بيديه بالقرب من نافورة بريجيت، تحت كومة من الأحجار. وهي كذبة وقحة بالفعل، لابد أنه تظهر من فعلها في الاعتراف. على كل حال، لجأ الصيادان إليّ في طلب خدمات، وقد استجبت لهما، ولكن ليوم واحد فقط كل يومين، لأن اليوم الثاني كان مخصصاً لموند.

كانت سعادة العائلة شبه كاملة، وكنت أنا سعيداً تماماً إذا نحينا جانباً الواجبات التي كان عليّ أن أدرسها بالإجازة.

وأرهنني جوزيف بمتسابقين الدراجات الذين راحوا يطاردونني حتى في الحلم فبسبب هولاء السادة لم أقرأ أيداً الجرائد التي تنشر أنباء سباق فرنسا للدراجات في شهر يوليو. فقد كان العم جول يجيء في السادسة صباحاً ليكلفني بالعمل الذي أقوم به، يصبح ميكسوس سكايفولا، وإيجيلوس وسبييون ناسيكا، واسم الفاعل والماضي المستمر. ولكي يتوج وحشيتة، كان مثاله المحب هو إله الريح، وكنت أريد اللعب. وكان هذا يمتعه. ولكنني كنت أدرسها، بغير رغبة، وبوجه مكتئب، حتى أن العم كان يقول: حقاً هل تعضك اللاتينية؟ ولم أكن أجب بشيء، ولكنني كنت أرغب في عضه هو، آه كم كانت كلمة العض هذه مناسبة.

إلا أنني يجب أن أعترف بأن موند دي باريون كان كثيراً ما يواسيني بيلوتارك، وكيرس - الخامس، اللذين لم يكونا إلا صحفيين متواضعين، تصنع منّا كتاباتهم أطفالاً محشونين بالتفاهات.

وذات مساء جميل من سبتمبر، قطعت عليّ الدرس زيارة السيد فنسان، كاتب الأرشيف بالمحافظة، الذي كانت له مكانة معنوية عالية بالقرية. وكان بصحبة موند دي باريون، وليلي، الذي لم يكن لديه ما يفعله في هذه الزيارة، والذي جاء معهم من أجل أن يستمتع برؤيتي.

وأجلسهم أبي تحت التينة، ونادى على العم جول، الذي قام وتبعته أنا.

كان موند دي باريون يفتر ثغره الأهم من خلال ذقنه بإبتسامه، وكان السيد فنان يتحدث بجديّة ، بل وبعوض القلق، بينما راح العم يفتح زجاجة نبيذ أبيض، وراح بول يقفز، وهو يمتص صمغ اللوز، على رجلي جوزيف.

- إليكم ما سيحدث، قال السيد فنان. هذا العام، ستكون مسابقة دورة الكرات الحديدية هامة بشكل خاص. فسوف تقدم الدورة جائزة قدرها مائتا فرنك، وخصصت لنا العمديّة إعانة قدرها مائتان وخمسون فرنكاً، ليكون المجمل أربعمئة وخمسين فرنكاً. ويجب أن نضيف إلى ذلك اشتراكات المتبارين. وقد تلقينا بالفعل طلبات تسجيل ثلاثين فريقاً، وأنصوّر أن الرقم سيصل إلى أربعين يوم الأحد. وبحساب عشرة فرنكات رسم تسجيل لكل فريق، سيكون لدينا أربعمئة فرنك إضافية، ليكون كل المجموع تسعمئة فرنك وخمسين، ولقد قلصنا من عائد الجائزة الثانية، لكي نرفع من قيمة الجائزة الأولى، التي ستكون سبعمئة وخمسين فرنكاً.

- اللعنة! قال العم جول، هذا مبلغ ليس بالقليل!

ولم يكن بخيلاً، ولكنه كان يحترم النقود بسبب أصله الريفي.

- لاحظ، قال السيد فنان، أن الدورة قامت بصفقة جيدة ؛ فكبر حجم الجائزة الأولى هو الذي جذب الأربعين فريقاً، أي مائة وعشرين لاعباً، وبالطبع عدداً كبيراً آخر من المستطلعين، الذين سيقدمون النفع لنا كشرائهم لحوالي ثلاثمئة مشروب رحي، وحوالي مائة وجبة غداء، ومائة زجاجة بيّرة، وهي الأشياء التي سنشتريها من مال صندوق الدورة، الذي سنستعيد أضعافه بعد البيع، لكن ما يزعجنا في الأمر هو أن ييسوجيه جاء ليقدم طلب اشتراك في المسابقة، وأنه هو الذي سوف ينشل السبعمئة وخمسين فرنكاً!

كان ييسوجيه هذا، هو ساعي برید منطقة الألاروش، الذي يحرز خمس كرات ناجحة من ست. وكان مع فيسيل، المصوب الدقيق، وبنجانل، الذي هو

لاعب وسط لايشق له غبار، يشكلون مصدر رعب للاعبين الضواحي، وكان يقال عنهم إنهم «محترفون». كما أنهم كانوا أنفسهم يقولون ذلك في زهو، ولأن فيسييل كان من منطقة (المحاور)، وكان بنجتل من (فالتين)، أطلقوا على فريقهم اسم «الثلاثي العالمي لمنطقة البوش دي رون».

- إذا كان بيسوجيه قد اشترك، قال موند، فالأمر منته.

- الواقع، قال جوزيف، إنني رأيتهم يلعبون العام الماضي، وقد انتصروا في المباراة النهائية على فريق أونوريه، الذي كان طالعه سيئاً. إن هؤلاء الأجانب مهرة فعلاً، ولكن بدا لي أنهم أيضاً مخادعون. ومن رأيي، أنهم ليسوا فريقاً لا يمكن هزيمته.

وابتسم ابتسامة صغيرة أسعدتني جداً.

- يرافوا صاح السيد فنان، فهكذا يجب أن يكون الكلام! كما أنني لا أقول ذلك لكي أنافقتك، لأنني أرى أنك تقذف الكرات بتحكم مثلك مثل بيروجيه.

- أنت لم تتابعني كثيراً وأنا ألعب، قال جوزيف، وربما رأيته في يوم من الأيام التي كان فيها حظي طيباً.

- لقد شاهدتك على الأقل ثلاث مرات، قال السيد فنان، ورأيت عدليك وهو يصوب، إن له طريقة غريبة في قذف كراته، لكنه يحرز دائماً نتائج طيبة.

وابتسم العم جول بطريقة خيثة، ورفع سبابته وقال:

- العبرة دائماً بالنتيجة!

- تماماً! قال السيد فنان. ثم إننا لدينا موند، الذي هو لاعب وسط جيد - وهكنا سيكون لدينا فريق جيد يلعب باسم البراري، وسيكون لديه فرصة في

مقاومة بيسوجيه وربما هزيمته.

- للأسف، قال أبي، فليس لدينا وقت كثير للتدريب.

- مازال أمامكم ستة أيام للتدريب ولكي تدرسوا عن كُتب أرض الملعب، التي ستجري عليها المباريات النهائية.

- لا بد من المحاولة، قال موند. فما الذي سنخسره؟

- سنخسر ربما جائزة السبعمئة وخمسين فرنكاً، قال العم، ولكن قد يكون لنا عزاء في المائتي فرنك، قيمة الجائزة الثانية!

كانت القرية قد أعدت ست فرق، ثلاثة منها ليس لها فرصة على الإطلاق في كسب أية مباراة، وإنما كان تقديمها دسيمة من السيد فنان، الذي أسرَّ بخطته.

فقد أعلمنا بأنه، بعد أن استعلم، عرف بأن بيسوجيه يعرق كثيراً ويترك نفسه بسهولة للوقوع تحت إغواء البيرة المثلجة، وهو ما يجعل ضرباته، عند المساء تفقد، أحياناً دقة تصويبها. لذا يجب جعل الدورة تستمر لأطول وقت ممكن، وهو السبب الذي دفع السيد فنان لإشراك أربعين فريقاً على الأقل، حتى لا تتم المباراة النهائية إلا في أعقاب أربعة أشواط كل منها من خمس عشرة نقطة، في حدود الساعة السادسة مساءً، بعد إنهاك قوة بيسوجيه.

لذا، راح فريق البراري يتدرب بالقرية، على نفس الأرض التي ستقام عليها المباراة النهائية، وكان فريق أونوريه بنفسه هو الذي تتدرب معه. وكنت أجلس على حاجز أرض الملعب، بين يول وليلي، نشجع لاعبين بصيحات الإعجاب وبالتصفيق. وكان العم جول وجوزيف يقيسون انحلاجات الأرض، ويسجلون العلامات بالطباشير على جذع الدلب (لكي يتمكنوا من تحديد المسافات من أول نظرة). ويتفحصون أقل حصوة ملتصقة بالأرض باهتمام دقيق. وكان العم

جول رشيقاً، وموند يقوم بدوره خير قيام، وكان جوزيف مبهرأ، والسيد فنان متألّفاً. وفي اليوم الخامس، كان سعيداً لدرجة أنه نصح لاعبيننا بالتوقف عن مراتهم، وأن يريحوا أنفسهم ثمانية وأربعين ساعة، كما يفعل أبطال ألعاب القوى. لذا تم ركن الكرات جانباً، وتحجّنت هذه الفرصة لكي أقوم بتلميحها، بمساعدة أمي وليلي.

ومستيقظين في ساعة مبكرة، أخذنا ليلي في طريقنا، ثم موند دي باريون، وفزلنا بانجما القرية. كنت أحمل شنطتين صغيرتين، تحتويان على كرات أبي وكرات العم جول. وحظي ليلي بشرف حمل كرات موند.

وعندما وصلنا، دقت أجراس الكنيسة، فجرى العم جول في خطوات رياضية لأنه خشي أن يتأخر عن القداس الذي أقيم خصيصاً للاحتفال بالمتبارين.

وكانت بي رغبة بدافع الفضول الخالص، للمشاركة في هذا القداس، لكن جوزيف، الذي كان علمانياً متشدداً، اقتادني إلى الساحة، التي كان بها بالفعل عدد من اللاعبين يتدربون على التصويب، أو يعاينون الأرض معاينة الخبراء.

وكان من بينهم رجل، متوسط الطول، أسود، شاحب الوجه، محفور الوجنت، مستنداً إلى الحائط، يشاهد هذه التدريبات في برود، وكان يحمل كيساً من الجلد، معلقاً بطرف أصبعه اليساية، به كرتان فضيتان.

- هذا هو ييسوجيه، قال موند.

- تصورته أطول من ذلك، قال أبي.

- لأنه عندما يلعب، يحتل كل الميدان.

وخرج السيد فنان من القداس قبل انتهائه.

- عليّ أن أعد قرعة اللعب! وتوجه إلى مكان تنظيم الدورة.

وكان احتفالاً مهيباً. فقد اصطف أمام الحلقة، تحت أشجار الدلب، جمع من الجمهور قوامه مائتا شخص على الأقل. وكنا نتعرف على اللاعبين من الأرقام التي وضعوها لفرقهم مكتوبة على كروت معلقة بخيوط على صدورهم. وكان فريق البراري يحمل رقم ٣٣ وفريق يسوجيه يحمل رقم ١٣، الأمر الذي كان بالنسبة لنا تذكيراً طيباً.

وفي نهاية أرض الملعب، أمام الواجهة، كانوا قد أقاموا منصة. وعلى هذه المنصة. وضعت منضدة طويلة. ووراء المنضدة، جلس السيد فنان رحوله شخصيتان هامتان هما: رئيس جماعة الكرة المرحمة بمقاطعة شاتو جومبير (الذي كان نحيلاً ومهيباً في بذكرته السوداء) ورئيس جماعة الرباعي الكروي ؛ وكان شاباً من المدينة، ولكن الجميع كانوا يتعاملون معه باحترام، لأنه كما قيل محرر رياضي وأنه سيكتب عن المسابقة في جريدة الريفني الصغير. كما كانت هناك أمام المنضدة، فتاة صغيرة شديدة الجمال في السادسة أو السابعة من عمرها، كانت تقف خجولة للغاية وعلى رأسها شريط أحمر معقود على هيئة فراشة عملاقة.

رون السيد فنان جرساً وقال :

- سيدائي وسادتي، نفتتح الآن دورتنا الواحدة والثلاثين للكرة، التي ستجري بحسب قواعد اتحاد كرة البوش دي رون، والتي وُزع منها نموذج مطبوع على كل لاعب. ولأنكم أقبلتم في أعداد كبيرة (وأشكركم على ذلك)، فالدور الأول سيتكون من تسع عشرة مباراة، توجب علينا أن نوفر لها تسعة عشر ملعباً. وهذه الملاعب ليست جيدة للغاية، ولكن ذلك أمر ليس مهماً بالنسبة للاعبين في مهارتكم، ولكي لا يحدث خلاف، فقد رقمنا الملاعب، وسوف تكون الأرض الأولى من نصيب الأول في القرعة، وهكذا دواليك. ولأن

الساعة الآن بلغت الثامنة والنصف، فلست أريد إضاعة وقتنا في كلام طويل، وأترك الخيار للقدر ولاختيارات يد هذه الصبيّة البريئة.

وأتابع ذلك، بأن مد يده للفتاة الصغيرة بكيس للسحب من النوع الذي يستخدمونه عادة في اليانصيب.

ويخجل، مدت يدها وسحبت قرصين خشبيين، وأعلن السيد فنان:

- رقم ١٣ سيلعب ضد رقم ٢٢ على الملعب رقم ١، أي على طرف الساحة وسمعت تهديدات الراحة، وفرك العديدون أيديهم بسعادة، فقد أفلتوا من يسوجيه، على الأقل في الدور الأول. وكان الفريق رقم ٢ مكوناً من ثلاثة فلاحين من رويساتل. وقد استقبلوا نتيجة الاقتراع هذه في استسلام مبسم، في الوقت الذي راح يسوجيه فيه يتمجلهم ليقتادهم باتجاه المساحة كأنه يقتادهم إلى المذبح. وجاء من نصيب فريق البراري أن يواجه، بمقتضى الاقتراع، فريق إورور، الذي كان مكوناً من لاعبين جيدين لكن سمعتهم لم تكن مرعبة، كما أن الاقتراع أعطى لهم الملعب الرئيسي، الذي تمودوا عليه ودرسوه، وظلوا مع ذلك بانتظار نهاية الاقتراع حتى يفرغ لهم الميدان الذي سيلعبون عليه.

وظللت، بالطبع، مع ليلي، وفرانسوا وبعض الآخرين، من بينهم السيد فنان - نشاهد فريق البراري، الذي يلعب ضد فريق إورور.

وكان نجم العم جول ساطعاً، وراحت كراته، تتوقف بالضبط عند نقطة الهدف، سالكة مسارات غير متوقعة، ولم يكن أي راضياً، لأنه كان يخطئ كرة كل كرتين، وبدا عصيباً، لكن موند، على الرغم أو بفضل ذراعه اللولبي، كان يلعب بمهارة. وبعد مرور نصف ساعة، «فازوا» بثمانية أهداف ضد اثنين. ولأن انتصارهم بدا لي أمراً مؤكداً، اقترحت على ليلي عبور الساحة، لمشاهدة تطورات مذبحة يسوجيه. وعندما خرجنا من الممر الضيق، سمعنا صوت اصطدام المعدن، ثم سمعنا صوت يسوجيه يقول :

- ١٥ صفراً إنها لمسخرة!

وانفجر الجمهور مقهقاً، مصنفقاً لبيسوجيه، وراح رجال رويساتل يلمون كراتهم، ويضعونها في أكياسها الصغيرة بغير أن يرفعوا أعينهم عن الأرض. وراح البعض يسخر منهم، ثم راح بعض الغلمان يجرون في اتجاه الدائرة وهم يصيحون «المسخرة المسخرة» كما لو أنهم ينادون على فتاة بهذا الاسم، عندئذ أمسك يسوجيه بكراته التي جمعها له أحد المعجيين، وقال بصوت خفيض:

- أعتقد أن بانتظارنا آخرين!

وكان يبدو عليه التصميم بطريقة أخافتني.

أمام الدائرة، كان قد تجمع اثنا عشر لاعباً أنهموا مبارياتهم، وبين هؤلاء، سعلت برؤية فريق البراري، الذي هزم فريق إور ١٥-٨. وكان من السهل التعرف على الفائزين، فقد كانوا يطرقعون كراتهم بعضها ببعض، أو ينظفونها بمناديلهم وهم يستندونها على أكمامهم وكان المهزومون قد ارتدوا ستراتهم؛ ووضعوا كراتهم في أكياسها أو حملاتها، وكان البعض منهم يتعاركون، وهم يلقون بمسئولية الهزيمة على بعضهم البعض.

وعلى المتضدة الرسمية، راح الصحفي يسجل بعناية نتائج كل مباراة على سجل صغير وهو يكتب أسماء أعضاء الفرق. وأثناء ذلك، راح السيد فنانس يفرز أرقامه لسحب الدور الثاني، فقد كانت تجب تحية أرقام الفرق المهزومة.

مع انتهاء ذلك العمل، قرأ السيد فنانس بصوت عال النتائج. التي استقبلت بالتحية والتصفيق وبعض الاحتجاجات. ثم، وفي صمت كامل، وعندما قدم كيس القرعة للفتاة الصغيرة، ارتفع صوت يسوجيه.

- وماذا عن الاحتفال ؟

عندئذ راح الشباب يصيحون في صوت واحد:

- المسخرة! المسخرة!

- إنها التقاليد، قال الصحفي. وأعتقد أن من واجبنا احترامها! وعند هذه الكلمات، دخل شابان إلى قلب الدائرة جرياً، وهم يحملون، في جو من الجبور العالم، لوحة مساحتها متر مربع، وقد أمسكها كل منهم من طرف.

وتقدم الخاسرون الثلاثة، وهم يضحكون في ارتباك، والجمهور يحييهم بالتصفيق. وتسلمت حتى الصف الأول، قرأت، لدعشتي، أن هذه اللوحة كانت تصور مؤخرة! لاغير. ليس لها أفخاذ، ولا ظهر، ولا أذرع. إذ ليس فيها إلا صورة مؤخرة مجهولة، مؤخرة حقيقية، لونها الرسام بلون أحمر فاقع بدا لي مبالغاً فيه. وصاحت أصوات من بين الجمهور:

- اركموا!

وبانقياد، ركع المهزومون الثلاثة. وكان اثنان منهم يتظاهران بالضحك، لكن الثالث كان يحني رأسه، وهو بمتقع، لا يقول شيئاً.

عندئذ اقترب الشبان باللوحة من وجه رئيس الفريق، وقام هذا الأخير بوضع قبلة خجولة بشفتيه على هذه المؤخرة المجسمة.

ثم انفجر ضاحكاً، ولكنني لاحظت أنه لم يكن يضحك من قلبه. وكان أصغر أفراد الفريق، إلى جاتبه، محنياً رأسه وهو يضغط على أسنانه بما جعل فكيه يبرزان أسفل وجنتيه وكادت أموت من الخجل من أجلهما ... ومع ذلك، فقد حياهم البعض بالتصفيق، كما لو يوزف لهم التهتة على هذا التقليد، ودعاهم السيد فنان لشرب كأس، لكن الرئيس رفض بإشارة من رأسه، وابتعدوا بغير أن يتيسوا بكلمة.

وجرت المباريات الثانية والثالثة بغير حادث يذكر، وراح ييسوجه يسحق فرق أونوريه، وكاموان، واحداً وراء الآخر، مسجلاً ضد الأول ١٥-٤ والثاني

١٥-٢. وكان من الواضح بالفعل أن الثلاثي العالمي للبوش دي رون يعرف جيداً إصابة أهدافه، وبدأت أتشكك في إمكانية فريق البراري المحاور، وفريق الفصول الأربعة.

وعند الظهر، لم يكن تبقى في التصفية إلا خمس فرق هي: فريق بيسوجيه وفريق البراري وفريق الكابوسيل، وفريق فالتنين، وفريق روكفير.

وعدنا للغداء بالحصن الجديد، مزهوين بهذه الانتصارات الأولى، مع ليلي وموند ضيوف الشرف، رغم اعتراضات موند، الذي لم يتصور أن يأكل وهو جالس وقد انتهى مع ذلك إلى القبول، لكنه وأثناء مرورنا بيته، هرع ليذهب لحيته ثانية بالمقص، بل بلغ به الأمر حد غسل يديه.

ثم جلس إلى المائدة في مظهر طيب. وأثناء ذلك سألت أبي:

- بما أنه لم يبق في التصفية سوى خمس فرق، كيف سيجري تحديد المباريات فيما بينها ؟

- إن ذلك أمر بسيط قال جوزيف، فأول من سترسو عليه القرعة سيلعب الثاني والثالث يلعب الرابع. أما عن الخامس، فسوف يستريح ويدعى للجولة الثانية كما لو أنه فاز.

- لكن ذلك ليس عدلاً قالت أمي.

- لو أننا كنا نحن الذين ستحظى بهذا، قال موند، سنجد أنه في منتهى العدل!

- وبعد ذلك، ماذا سيحدث ، قال جوزيف. فيما أن كل جولة تجري فيها التصفية لنصف الفرق، تصل حتماً إلى رقم زوجي! وبما أن الرقم الإجمالي للفرق لا يصل بنا إلى وضع زوجي مثل ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، ٦٤. إلخ .

ولكن ... قال العم جول، وشرع يشرح نظرية رياضية، ورفضت الاستماع إلى هذا الدرس الإضافي في الحساب ورحت أنخيل الرجال الثلاثة راكعين أمام هذه المؤخرة الضخمة، التي لم أفهم لأي شيء ترمز، ولكنني لم أجرو على الحديث عنها، خاصة على الطاولة.

وفي الساعة السادسة مساءً، بدأ الدور الأخير لهذه المسابقة؛ يحسب ما أعد السيد فسان الماكر. وكان الجو مازال بعد حاراً، والشمس تتراجع نحو المغرب بسرعة. وصارت المباراة النهائية ما بين ثلاثي البوش دي رون الذي لا يقهر، والذي انتصر بسهولة على خصومه، وبين فريق البراري العزيز.

كنت أنا ويلي موزعي العواطف ما بين الاعتداد برؤية أبطالنا يصلون إلى المباراة النهائية وبين الخوف من فكرة الهزيمة المخزية التي سيلحقها بهم يسوجيه الرهيب.

وعند دخول يسوجيه إلى الأرض ورؤيته لجوزيف فريق البراري، ابتسم ابتسامة صغيرة لم تعجبي. بل إنه في الاقتراع بوجهي العملة، كسب الحق في أن يقذف أولاً بالقلعة التي تحدد الهدف، وهو الأمر الذي بدا لي نذيراً سيئاً -وبدأت المباراة، بين حاجزين من الجمهور كل منهما مكون من ثلاثة صفوف. وكان هناك صمت شديد مع انطلاق كل كرة، وهي تدور مباشرة تحت قبة من التنهدات القلقة، وكان توقفها يتبعه انفجار من صياح الإعجاب أو اللعنات، ثم التعليقات التقنية.

ولسوء الطالع، لم يكن الحظ إلى جانبنا، ورأى البعض سريعاً أن موند لم يعد صاحب المفصل الزائد. ولم يستطع يسوجيه، الذي كان ساعياً للبريد خارج حلبة اللعب، من أن يكتسب قهقهة صغيرة ساخرة عندما طاشت كرة موند، صانعة زويدة غريبة نتجت عن عدم تحكمه في قدمه غير الثابتة، وهي تعود ثانية للوراء بعد أن لمست الأرض. وامتنع جوزيف، واحمر وجه العم جول

وصار مثل الفلقة، وحصل فريق بيسوجيه على ثماني نقاط من ثلاثة أهداف ... وهز ليلي رأسه حزناً، وغادر البعض من مشجعي أرض المباراة منسجحين في هدوء.

وهزني الغضب، بفعل الحظ الوقح لهؤلاء الأجانب والنحس الغريب الملازم لفريقنا. وبعد أن تفحص العم جول طويلاً أرض اللعب، قذف كرتة عالية بحيث ارتطمت بفرع شجرة دلب وسقطت على رأسه، بما جعله ينطق بحرف الراء المتضمن بكلمة الجزال كامبرون (خراء)، وراح الأجانب يقهقهون بشكل ساخر.

وعندما تفوق فريق بيسوجيه باثنتي عشرة نقطة مؤلة، أعطى السيد فنان، موظف الأرشيف بالمحافظة، الأمر ببدء حفل الرقص بالميدان، لكي يحول الانتباه عن هذه النتيجة المؤلة. وسعد جميع المتفرجين بهذه الحجة لكي يهربوا إلى الميدان ... وتبعناهم أنا وليلي، ولخص الخباز الانطباع العام بما يجري قائلاً :

- إنها مذبة!

وأضاف السيد فنان المغموم :

- ليت الوضع لا يصبح مسخرة!

وأصابتني هذه الفكرة بالاضطراب؛ فقد تخيلت جوزيف والعم جول راكعين أمام هذه المؤخرة، وقد قدمهم إليها بيسوجيه الخيف. وباله من عار أبدي لعائلتنا! واقشعر بدني، وكرر ليلي على مسامعي قوله:

- إنه خطأ موند! فلم يكن له أن يلعب الكرة بذراعه الطري هذا الذي يشبه الكرشة! كل هذا بسببه!

وكننت من رأيه، لكن ذلك لم يفد بشيء؛ وبينما كانت الأوركسترا تعزف البوك، رحت أخشعي خلف جذع شجرة توت كبيرة، وتبعني ليلي بغير أن ينس

بكلمة.

وصنعت الموسيقى ضجة شديدة، وراحت الفرقعات الصادرة عن الأبواق ذات المكبس تملو حتى تتعانق مع أصلاء التاومي. وكان الجميع يرقصون، وكنت سعيداً بذلك، فعلى هذا النحو لن يذهب أحد للفرجة على تقليد المسخرة، لو أن الفريق انهزم بسبب نحسه ١٥ - صفر.

على أية حال لن أذهب أنا، وكنت متأكداً من أن السيد فنان لن يحضر ذلك هو الآخر، ولا السيد. فيرو، الخباز، ولا الجزار، ولا أي شخص من أصدقائنا الحقيقيين. لكن هل سيذهب الأطفال للمسخرة من خزني أبي؟ قلت ذلك بصوت مرتعش، لليلي.

- تعال، قال لي، تعال!

واقترادني إلى زقاق، يقع فيه اسطبل السيد، فيرو، وأخذ المفتاح من ثقب بالحائط، ودخل، وخرج ومعه كراياج حوذوي وعصا قوية من الخيزران، أعطها لي:

- بهذا، قال، لو أنهم ذهبوا للحضور، لن يجعلهم يستمرون طويلاً.

كان الرقص متواصلاً بالميدان. وكنت أنا أنتظر وقلبي يدق، ولكنني لم أحرز على الذهاب إلى الحلقة، التي كان شرف اسمنا فيها في خطر.

رغم ذلك ولأننا كانت قد مضت علينا عشرة دقائق غادرنا فيها ذلك المكان القتال، غمرني شعور مفاجئ بالأمل.

- ليلي، لو أن المباراة كانت انتهت لكننا عرفنا الآن، وإذا لم تكن انتهت، فذلك يعني أنهم ربما يكونوا قد سجلوا نقطة على الأقل. لأن الآخرين لم يكن ينقصهم سوى ثلاثة نقاط، ولا بد أنهم لعبوا بالفعل أدوارها الثلاثة.

- هذا صحيح، قال. نعم، إنهم سجلوا نقطة بالتأكيد، وربما نقطتين، وربما ثلاثاً. أنا لا أقول إنهم كسبوا، ولكن الأمر لن يصير مسخرة على الأقل ... هل تريد مني أن أذهب وأستطلع الأمر؟ وقبل أن أجيب، كان قد ذهب.

كان البوق يعزف الفالس، وكل الشباب يرقصون بالميدان، الذي كان قد غمره الظل، لأن الشمس قد توارت وراء القبة. ورددت لنفسى:

- نقطة على الأقل! نعم لا بد أنهم سجلوا نقطة!

وظهر ليلي بزاوية الزقاق. ولكنه بدلاً من أن يأتي صوبي توقف، ووضع يده على فمه، وصاح بصوت جلي وقوي:

- فريق البراري متقدم بـ ١٣ ضد ١١٢

وتوقفت الموسيقى تماماً، واربتك الراقصون. وصاح من جديد:

- ١٣ ضد ١٢ لصالح البراري! تعال سريعاً!

واتجه صوب الحلقة، وجريت خلفه. وجرى عازف البوق إلى جوارى وتبعه كل الجمهور. وعند وصولنا إلى موقع اللعب، رفع مدير الدورة ذراعيه لنا، وراحنا يديه للأمام.

- انتبهوا، صاح. قفوا مكانكم! لا تشوشوا اللاعبين! أستحلفكم الصمت! إلزموا الهدوء.

واصطف الجمهور على طول أرض اللعب، وكان الرجال يسرون على أطراف أصابعهم. كان اللاعبون الستة تحت الدلب متحلقين، حول عشر كرات أحاطت بقطعة الفلين. وكان أربعة من بينهم أبي واقفين، وقبضاتهم على خناصرهم. وهم ينظرون إلى العم جول ويسوجيه، اللذين كانا مقععين. وكان العم جول يقيس الأرض بخيط، ويسوجيه ينظر إليه شزراً. ثم صاح فجأة:

- نقطة واحدة فقط لاغير! قلت لك !

- لديك حق، قال العم جلول وهو يقوم واقفا. لم نحزز إلا نقطة واحدة.
ولكن تظل لنا كرة نلعبها. وأشار إلى جوزيف، الذي تقدم، ويديه كرة. وكان
هادئاً مبتسماً. وهو يتأمل اللعب ويقول :

- إذا قذفتها من أعلى، فلن أكسبها، وهناك احتمال أن أدفع بكرتهم هم
للأمام.

- بالتصويب، قال ييسوجيه، هناك احتمال أن تزحج كرتكم أنتم. وإذا لم
أنجح في كرتي، فلن يغير ذلك من الأمر شيئاً، لأننا ستظل لدينا بعد ذلك كرة
بنياتل ...

- نعم، قال جوزيف. ولكنني إذا نجحت في إصابتي، فسوف نسجل خمس
عشرة نقطة .

وعاد باتجاه بداية الحلقة بخطوة والثقة. وبأمل أن يتسبب له في الاضطراب
جري ييسوجيه فجأة باتجاهه، ونظرة متشككة للقدم اليسرى لجوزيف، وانحنى
لكي يتثبت من أن هذه القدم لا تلمس خط الدائرة .

أثناء ذلك، تحرك بنياتل، الذي ظل قريباً من اللعب، ثلاث خطوات جانبية
لكي يلقي بظله على الكرة الهدف. وصاح السيد فنسان من بين الجمهور.

- أيها الصديق! أبعد ظلك عن هنا! ابتعد عن طريق الشمس والكرة!

لكن الوغد بنياتل تظاهر بأنه لم يفهم أنه هو المخاطب. عندئذ اقترب موند
دي باريون منه، وقال بمودة:

- يا بنياتل، تزحزح قليلاً

وبغير أن ينتظر لكي يتزحزح من تلقاء نفسه، وضع يده السليمة على

كتفه، ودفعه للوراء مترين، وهو يقول له يعناد :

- آسف، لا تؤاخذني.

- إنها القواعد! صاح مدير الدورة، فلا بد أن تكون الكرة في الضوء.

ولم يلح بنياتل. وراح جوزيف، وكعب قدمه اليسرى في قلب الدائرة، ومقدم رجله مرتفع عن الأرض، ينظر طويلاً للهدف، في صمت احتفالي. ولكنه عندما بدأ يستعد لقفز الكرة، تعالي صرير خمس سعلات مزقت حنجرة فيسيل اللاعب الثالث بفريق ييسوجيه، وتوقف جوزيف، بغير أن ييدي أي نفاذ صبر، لكن الجمهور راح يغمغم مستنكراً، وصاح الزيار الضخم، ملك الحمص:

- فيما يبدو أنهم في قرية يظلون مصابين بالسعال الديكي حتى سن المائة!

واقترب موند من فيسيل، وقال بصوت عال:

- إن أفضل علاج له، هو ضربه على ظهره!

ولكنه عندما رفع يده الضخمة، تراجع فيسيل أربع خطوات للوراء، وهو يقول: لا، شكراً ... لا داعي لذلك!

وحل الصمت ... عندئذ، قفز جوزيف القفزات الثلاث القانونية، وطار كرتة في الهواء، ملتمة كأنها شمس صغيرة ... وتوقفت أنفاسي، وراحت يد ليلى تنقبض بقوة على ذراعي، بينما كانت هذه الكرة الأخيرة تواصل الانطلاق ولا تهبط بعد ... وفجأة، دوى صوت طرقة والتمعت كرة ييسوجيه السوداء المتاعمة فضية. فقد تمكن جوزيف من إصابة الهدف. وقال وهو ساكن ومبتسماً ابتسامة خفيفة:

- بهذا نحصل على خمس عشرة نقطة!

وانفجر التصفيق، المختلط بصيحات الإعجاب، واندفع الجمهور نحوه، بينما أنهى السيد القسيس صلاته، ونزل يبدو عبر الزقاق وهو يرفع طرف ثوبه بيديه الاثنتين .

عندئذ، شرب الجميع الشمبانيا -نعم، تم إرغام جوزيف على شرب كأس مترعة منها وأسمرت أُمي فكانت أول من تذوّقها بشفتيها. ثم رفع العم جول كأسه، وذكر ألف صفة رائعة، ولكن صحيحة جداً، عن شجاعة جوزيف الحبيب، وعلمه، وإحكامه، وعن أنه لم يصب باليأس، وعن شجاعته التي تستحق الإعجاب (ولقد ذكرت ذلك قبلاً، لكن العم جول كرره عدة مرات) وبعد ذلك، أعلن جوزيف (بتواضع) أن العم جول كان يبالغ (ولكنه لم يبالغ بالمرّة) وأنه جول، هو الذي كسب المباراة بخطته، وذكاته، ومعرفته الرائعة بالأرض. ولكنني أعتقد أنه كان زائع البصر قليلاً، وأنه كان يرتاب في أفرع الدلب التي صوب نحوها كراته. ثم هنا أُمي موند دي ياربيون، وقال إن ذراعه كانت معطلة قليلاً في بداية المباراة، وأنها خذلته؛ ولكنه بعد ذلك، وعندما استعاد سيطرته عليها، وفي قذف الكرات الأرضية، تمكن من إحراز نقاط جميلة جمال الذين صفقوا في نهاية مسابقة «الريفي الصغير». وهنا السيد فنسان الجميع وأعلن أن يسوجيه ورجاله أخطأوا برجلهم، فقد كانوا مدعويين لشرب الشمبانيا هم أيضاً، لأنهم لعبوا بمهارة شديدة، وأنه ليس خطأهم أن واجهوا فريقاً أقوى منهم. وأخيراً، وبعد تصفيق شديد أزعج أعضاء فريق البراري الثلاثة، ودعا أُمي للحضور رسمياً لتفتتح الرقص معه.

وهكذا رأيتها تدور بين ذراعيه على صوت الفالس المدوي.

كانت تبتسم، وفمها نصف منفرج، ورأسها مائل للوراء، وكانت تدور بسرعة ويرتفع ثوبها، وتمكن الجميع من رؤية ساقها. كانت تبدو كأنها فتاة صغيرة، ولكن عليّ أن أقول إنها لم تحول عينيها أبداً عن جوزيف، الذي راح

يرقص، مع خبازة إوور، واضعاً يده على خصرها، وكانت شابة جميلة سمراء.
وكان يحدثها وهو يرقص، وبدا لي أنه كان يطرئها ويجمالها.
وراح العم جول، هو الآخر، يرقص في احتفالية تعبيرية مع أنسة عجوز
ترتدي الدانتيل، كانت ترقص وعيناها مغمضتان، على حين تركت الخالة روز
نفسها ليدي مصطاف مجهول، ولكنه محترم.

زيزي

كان الأستاذ المشغول عن فصلنا، بالصف الرابع ٢١، هو السيد. جاليازي،
المعروف باسم زيزي.

كان طويلاً نحيلاً، مقوس الظهر بعض الشيء، وكان ذا لحية مدببة،
أصابها المشيب ولم يكن أنفه المعقوف صغيراً؛ وكانت نظراته الرمادية الزرقاء
تطل مباشرة من عينيه المتحجرتين، الزجاجيتين، فكان عندما ينظر لليمين أو
لليسار، تدور رأسه، ككشاف المناورة وكان صوته ضعيفاً ولكنه واضح، وطريقة
نطقه تفصل بشكل صارم بين كل مقطع لفظي وآخر.

لا أقول إنه كان يخيفنا، ولكنه كان يقلقنا، كأنه سحلية وكنت على يقين
من أنه شخص بارد الدم من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

كانت سطوته شديدة، وقد أثبتنا لنا من أول يوم، عندما طرد الأخوين التوأم
لفصل التأديب.

كان هذان الأخوان المهرجان يونانيين من عائلة مرسلية كبيرة. وكانا
وسيمين كتمثالين، ومن أبناء الذوات، ولا يمكن تمييز أحدهما عن الآخر،

وكانا يرتديان ملابس متشابهة على نحو شديد. أحدهما يدعى ببساطة بيركلي، والثاني أرسطو.

وقد طردا بالفعل من عدة مدارس داخلية، حيث كانا يستغلان تشابههما الشديد لكي يشيرا اضطراب الأساتذة التعمساء، وقد وعدنا بأن يمتعنا ببعض الجولات على طريقتهما. ولكنهما لم يجدا لذلك فرصة.

كان بيركلي يجلس في الصف الأول، بالقرب من الباب، على حين كان أرسطو مبعداً لأعلى الفصل، في الممر الأخير، إلى جوار النافذة المطلة على فناء الداخلية وأصاب زيزي الدهشة في بادئ الأمر من رؤية نفس التلميذ في مكانين مختلفين وكان عليه أن يتكبد مشقة أن يذرع الفصل ذهاباً ورجيعاً ثلاث مرات برأسه الدوارة لكي يتأكد من أنه لا يحلم، وعندما يتقن من ذلك، سألهم عن أسمائهم الأولى، التي أضحك ذكرها كل الفصل.

عندئذ، وبغير أدنى احترام لأجدادهم القياصرة، أعلن زيزي أن هذا التشابه الشديد يريكه وأنه لا يتصور أنه قادر على تحمل تواجد تلميذ مزدوج بفصله. لذا أنذرهم بأنه لن يسمح لهم بالتواجد في فصله بعد الظهر إذا لم يضع كل واحد منهم ربطة عنق مختلفة في اللون عن الآخر، بانتظار ذلك، طلب من الفيلسوف والجنرال أن يذهبا لقضاء فترة الصباح في غرفة المراقبة، وبأن يترجما معاً أو كلاً على حدة الفقرات الأولى من قصير.

وبعد الظهر، عاد أرسطو برباط عنق أحمر، بينما عاد بيركلي برباط عنق متموج اللون.

وأجلسهما زيزي في مقدمة الصف الأول، جنباً إلى جنب، أمام المنصة. وهكذا، وقد ميز بينهما التجاور واختلاف الألوان، لم يفقد التوأمان شجاعتهم، فمن وقت لآخر - وأحياناً مرتين في اليوم الواحد - كانا يبدلان أسمائهما وأربطة عنقهما، وبدا أنهما يحصلان من هذه الحيلة الصغيرة على سعادة كبيرة

خاصة.

ولم يحاول زيزي، الذي كان يخمن بالطبع ألاعييهما، أن يتعقبهما أبداً في ذلك. واكتفى هذا المعلم الذي تثقف بالمدرسة الرواقية الفظة، بتوقيع العقاب أو مكافأة كل رباط عنق منهما على حدة، وكان ينادي على كل منهما حسب رباط العنق، بغير أن يتنازل ويستفسر عن هوية واضعه.

وأصاب التوأمين، اللذين ضاعت شخصيتهما بفعل هذا الإهمال، وتقلصت إلى مجرد أربطة العنق، حالة من الإذلال الشديدة، حتى أن أرسطو حلق شعره تماماً ولم يبد زيزي أي دهشة لذلك، فأنتهيا إلى أن يقبلا خضوعهما صاغرين، وصارا قادرين على عرض شروح قيصر.

كان قيصر هذا هو ديانة زيزي. وكان يشبه نخلة جزر الباسفيك، التي يصنع منها الأهالي أفواسه، وأكواخهم، وسقوفهم، وخبرهم، وسهامهم. وملابسهم، فكان مدرسا زيزي يستلهم من قيصر كل شروحاته للنص، وكل الدروس وكل عقوبة يوقعها علينا ... بل لقد صنع منه اسماً دارجاً حين قال:

– السيد شميدت، أنت معاقب بالاحتجاز ساعتين، وبواحد قيصر وهو ما يعني أنك ستترجم لي فقرة من قيصر ...

وقد بذلت في بادئ الأمر جهداً شديداً للمشاركة في هجوم الغالين عليه، ولكنه كان أمراً مضنياً لي، أن أتابع عمليات الزحف والتراجع كهؤلاء المتطوعين الانتحاريين، عبر الغابات التي تعج بالحواجز الشائكة، المجهزة، في (خطوطها الأمامية) بجحافل من أسماء الفعل، المحصنة بأسماء الفاعل وأسماء المفعول، التي لا نستطيع الخلاص منها إلا بالتعثر في الأحرار التي تنق فيها جوقات أسماء المفعول المطلق.

ومع ذلك – كانت هذه الحرب تجذبني على نحو عاطفي، بسبب فيرسا

مختبريكس بطلنا القومي الأوفرنى - ولأن انتصارات قيصر كانت تثير حنقي لأنها لم تأت إلا نتيجة الخيانات، والتقدم التقني، وأدوات الحرب.

كانت هناك الأنواع المختلفة من القواذف والمقاليح والمنجنيق، وكانت سيوف الفيالق من الحديد المطروق، على حين كانت سيوف أجنادي الغاليين من البرونز، الذي ينفث من أول ضربة، وكان من الضروري تقويمها في التواء، بتثبيتها في جماعها، وبالتصويب على الجناحين، وأثناء هذه العملية كانت الفيالق تقوم بدفع سيوفها الصلبة في مركز (أفرن) أو (سجويريج) بطريقة لا يمكن انتزاعها.

وكان لانيو نفسه غير مستعد لذلك، بينما اجتاحتني رغبة عارمة للتدخل شخصياً في هذه المعارك. ورحت أتخيل نفسي على رأس فصيلة من الممنوحين، المسلحين بينادق فلوير، تلك التي تطلق في المهرجانات، فبمدد معقول من الخراطيش. سيكون بإمكاننا قلب الموازين في حرب الغاليين هذه، واقتياد الفيالق التي تعدو حتى (روبيكون)، لكي يتمكن الرجل الصغير الأصغر من أن يكون أول المجتاحين لها، وبلا أي تردد، ولكن ذلك لم يكن إلا حلماً، وتضاعفت مرارتي لأن قيصر اقترب من جيرجوفيا.

لحسن الحظ أكد لنا بيدق صغير، كان يراقبنا أثناء الفسحة، ويثرثر برفاقية مع التلاميذ، أن أجدادنا الغاليين كانوا ألماناً، وسويسريين، وفلامانديين، وأن فيالق روما كانت روسية، وبلغارية، وصربية، ومجرية. لذا عدلت في التواء عن المشاركة العاطفية في هذه المعارك بين الأجانب وبعضهم البعض، ورحت أنظر من ذلك الحين إلى هذه الشروحات باعتبارها ديواناً لا ينتهي من النصوص اللاتينية.

في ذلك الوقت حدث حادث طارئ قلب حياتي المدرسية .
فلانيو - الذي كانت أمه تعطيه مبالغ طائلة، أي خمسة فرنكات أسبوعياً -

كان قد عشر، في محل تاجر الكتب القديمة على ثلاثة ملازم من بفالويل، يسعر فرنك واحد للثلاثة. وقد تبقى له فرنك واحد فقط، لأنه أنفق الباقي في الليلة السابقة على شراء الكراملة الطرية؛ فاشترى لتوه الملازم الثلاثة، ولكنه اكتشف في عمق المحل كتاباً صغيراً أصفر بفعل الزمن، دفعه الفضول لكي يفتحه، فوجده يحتوي على الترجمة الفرنسية لشروحات قيصر، ومعها، في أسفل الصفحات، النص اللاتيني، ولم يتردد لأكثر من ثانية، وضحي ببفالويل مقابل يوليوس قيصر، بما أنه كان يتمتع بحس واقعي، وفي صباح اليوم التالي، في حصة المذاكرة الأولى، التي يجيء موعدها في الثامنة إلا ربعاً، وضع على درجي هذه الرزمة من الورق الأصفر، التي صارت بالنسبة لنا أكثر نفعاً من درابزين في سلم.

ولابد من القول، بلا تواضع، إنني عرفت كيف أستخدمه بمهارة. فبعد العثور على الفقرة التي تعرض النص اللاتيني المقرر علينا للأسبوع، كنت أنسخ الترجمة! ولكن لكي لا أوقظ الشك المرضي في نفس زيري. كنت أضفي مصداقية على فروضنا بكتابة بعض الأخطاء.

كان الأمر يتطلب، بالنسبة للاتيوي، تناقضين في المعنى، وخطأين، و«غلطتين إملايتين» وبالنسبة لي تناقضاً واحداً، وخطأ بإحلال للمضاف بدلاً من اسم المفعول المطلق، «وثلاثة أخطاء إملائية».

وشياً قشياً، بدأت أقصص عدد أخطائنا، وخففت من خطورتها. ولم يشك زيري في شيء وذات يوم، وأمام كل الفصل، هنأنا على التقدم الذي أحرزناه الأمر الذي جعلني أحمر حتى أذني. ولأنني كنت أستشعر الخجل بسبب الغش الذي فعلته رحت أفكر في قلق شديد بالإثناء، الذي سيدور الامتحان فيه بالفصل، تحت رقابة زيري نفسه، وعندما جاء يوم الاختبار، أملاًنا صفحة من تيت - ليف، وكنت خائفاً في بداية الأمر. ومع ذلك، وبإعادة قراءتي للنص،

بدا لي أنني فهمته جيداً، وسعدت سعادة كبرى عندما جاء ترتيبى الثالث، على حين جاء ترتيب لانيو الحادي عشر، وفهمت حينذاك أن عملية الغش التي قمت بها أفادتني إفادة كبرى. في تطوير قدرتي على العمل، ومهاراتي الطبيعية.

أنا أكتب الشعر

في تلك الحقبة، كان علينا أن نودع فناء الصغار - حيث صرنا كباراً - ونرتقي إلى فناء السنوات المتوسطة، الذي صرنا صغاره. وهو موقف مثل بعض الشيء، ولكن له بعض فوائده، لأن طلاب الصف الثالث والثاني، كانوا يعطوننا أحياناً حلول المسائل الرياضية والهندسية. كما أنهم علمونا بعض الكلمات البنيقة الجديدة، غير المعروفة في فناء الصغار، وعلمونا التدخين، بالاختباء وراء عمود من أعمدة السقيفة، وإخفاء الدخان المتصاعد بواسطة اليد اليسرى التي نستخدمها كمروحة. وأخيراً، أعطونا نصائح ثمينة حول أساتذتنا الجدد، الذين كانوا أساتذتهم، وكشفوا لنا الاسم الحقيقي لبويتوس، الذي صار أستاذنا المسئول بقاعة المدرسة بعد أن أسفنا على وداعنا للسيد باير العزيز.

وهذا الاسم لم تكن له علاقة باسم بيتومان الشهير، كما اعتقد لانيو. ففي واقع الأمر كان بويتوس يدعى ليو، ولكنه كان كل عام، بالشتاء أي في فصل الزكام والتزلات الشعبية، يحل محل أساتذة الأدب الذين كانت الحرارة تعلق في بيوتهم. وفي كل عام يملئ على الطلاب نفس الدرس اللاتيني المعنون «موت بويتوس سيسينيا»، بما أنهم لم يكونوا هم نفس الطلاب

وهذا البويتوس الذي كان بالقطع نبيلاً رومانياً، حكم عليه بالموت بواسطة الامبراطور كلود، ولا نعرف لماذا ؛ ولكن بكرم خاص، سمح له الامبراطور بقتل

نفسه، وبعث إليه بخنجر شديد الجمال.

وتفحص بويتوس هذا السلاح، بأن تخمس حده بطرف أصبعه، وهز رأسه، وراح يفكر طويلاً. عندئذ، تقدمت زوجته (آريا)، وأمسكت بالخنجر، وأغمدته في صدرها وهي تقول: "Poet, non dolet" أي: «يا بويتوس، إنه لا يؤلم».

عندئذ، أخرج بويتوس الخنجر المدمى، وأغمده في قلبه، وسقط فوق جثة زوجته.

وجرى تخليد انتصار هذه السيدة الرومانية، التي لفظت أنفاسها الأخيرة لكي تطمئن زوجها بمناهج الصفوف النهائية بالثانوي، يضاف إلى ذلك أن السيد بويتوس، وكان يحث تلاميذه على النطق الصحيح، فكان يقول: «يا صغيري، غير مؤلم»، "pété, non dolet" وهو ما كان يثير ضجة من الضحك المجنون بالفضول، وقد حكوا عن طالب مهرج من الصف الأول ب يدعى بيربادس، لم يتردد ذات يوم في حصة الترجمة من أن يترجم هذه العبارة البطولية على طريقته قائلاً:

الضراط ليس مؤلماً (لأن كلمة pété تعني ضراط بالفرنسية - المترجم) وجئني من وراء ذلك عقوبة بالحجز ليوم كامل ومجدداً مستمراً بما أنني أتحدث الآن عنه بعد مرور ستين عاماً على ذلك.

ولم يكن بويتوس هذا مرحاً، ووقوع خياره مائة مرة على قصة هذه المذبحة يثبت هذا بوضوح، ولأنه كان شخصاً قصيراً، فقد كان يجهد نفسه ل يبدو قاسياً؛ لكن هذه القسوة لم تكن تعبر عن نفسها إلا بالتهديدات التي كان يتلفظ بها بصوت خفيض، بفم متقلص إلى حد ما، والتي كانت كافية لإحلال الصمت بقاعة المذاكرة، بسبب الجرم المأسوي المحيط به بلاشك.

وطبيعي، أنني تقاسمت دكتي ثانية مع لانيو، وتبعنا، بالانتقال إلى الصف

الرابع كل زملاء الصف الخامس، فيما عدا زكريا الذي أعاد السنة.
وحدث لي كشف هام أثناء المذاكرة المسائية، فيما بين السادسة والسادسة
والنصف مساءً.

كنت قد انتهيت من ترجمتي اللاتينية، وكانت للفقرة الثالثة والستين من
الكتاب السادس لقيصر "Decfion, Haeducrum, Cognita" خلاصة المعرفة
للصغار، وبانتظار قرع الطبل المسائي الأخير، رحت أتصفح القطع المختارة من
الأدب الفرنسي، حين أوقعني الصدفة على قصيدة لفرانسوا فاييه.

كان مؤلفها يحدث أباه، الخطاب من روبرج، ويَعده بألا ينساه أبداً: لأن
ريشتي الريفية ابنة لبلطتك.

وبدا لي هذا التحويل للبلطة إلى «ريشة» قمة البلاغة الشعرية، وشعرت
بالرجفة المقدسة للجمال. وطفرت الدموع من عيني، ودخلت في مملكته تحت
أعين هذا البويتوس، الذي لم يشك في شيء.

وبعد أن قرأت هذا العمل الرائع ثلاث مرات، حفظته

وقلق لانيو، الذي سمعني أحمس:

— أهذا درس للغد؟

— لا.

— لمتى إذن؟

— إنه ليس درساً.

— إذن لماذا تحفظه؟

— لأنه جميل.

وبدا له هذا السبب سخيلاً للدرجة أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الفهقهة التي تسبب عنها إندار قاس من بويتوس نزل على رأس شميدت المذهول.

عند الخروج، كان شميدت يصحينا كل يوم حتى محطة الترام، بنهاية الخط بموقف ليوتو. وفي الطريق، تلوت عليه بصوت مرتجف بعض الشيء هذه الأبيات الرائعة، واستمع لها ونحن سائران، محبياً رأسه، ومرهقاً سمعه، ثم أعلن بكل حماسة أنها «ليست بطلاة»، ثم لفت انتباهي بغياء إلى أن هذه البلطة لابد وأن تكون صغيرة جداً لكي تكون كافية بالكاد لأن تصنع منها ريشة، وشرح لنا بجدية فائقة أن بلطة الحطاب تزن في حدود الثلاثة كيلو جرامات، وثلاثة كيلوات من الفولاذ وأن بإمكانها أن تصنع مائتي علبة من الرشاش من نوع الصول (Sergent Magor).

واستنكرت هذا النقد الفظ، وأجبت به بأنه لم يفهم شيئاً. وأنه ينظر للأمر بطريقة خردواتي ثم تركناه وحده، على محطة ترام تحت مصباح غاز مرتعش، ولم يبد عليه أنه تأثر على نحو آخر، فقد راح ينظر إلينا ونحن نتركه في سخرية وأثناء صعودنا طريق ليوتو أمسكت بذراع لانيو، وعادت تلاوتي عليه وحده.

واستمع لي، مقطباً، لكنه لم يقل شيئاً ورأيت بوضوح أنه كف عن التفكير. وتركته عند السهل، بمنعطف شارع القديس - شافورنان، ورحت أفكر، وأنا أهبط شارع تيروس، في أن سخرية شميدت وعلم فهم لانيو لا يدلان إلا على شيء واحد، وهو أنهما ليسا شعراء.

واستنتجت أنني كنت شاعراً، وأنني كنت غيباً لعدم ملاحظتي ذلك قبلاً، وأنني يجب علي أن أبدأ في تأليف الشعر من الغد إذا كنت أسمى وراء المجد والثراء في سن العشرين.

وتخيلت لنفسي في تلك الحالة صورة فوتوغرافية بمكتب عملي، محاط

فيها بالكتب القيمة، تحت تمثال نصفني مكمل بالغار لي. وجبهتي العارقة تستند إلى راحة يدي اليسرى، وأنا أكتب قصيدة لأبي، بقلم جبر، وهو ما كان أحدث اختراع، رأيته لدى السيد المراقب العام. هذه القصيدة التي ستصبح أنشودة، تعرض أمجاد جوزيف، الذي كسب مسابقة الكرة، وصعق اللراج الملكي، والمخاط أخيراً بعرفان تلاميذه ؛ وسوف أنهى القصيدة بهذه الأبيات المجيدة التي أستلهم فيها فرانسوا فاييه:

إنني لن أنسى أبداً أنني مدين لك ماحيت

وأن قلمي الجبر هو ابن لريشتك.

صباح اليوم التالي، وعند حصة المذاكرة الأولى، أعلمت لانيو بمشاريعي، وهنأني وأعلن أن ذلك لا يدهشه، لأنني في رأيه لي عقل شاعر. وأعلمني فضلاً عن ذلك أنه كان يعرف بالفعل شاعراً آخر، كان يعمل وراقاً، وبائع جرائد في شارع روماء، وأنه كتب بنفسه الأبيات المطبوعة على بطاقته. ولكنني لفت انتباهه لأن هذه القصائد لم تكن أبداً تتعدى الأربعة أبيات، وأنها لا تعدو أن تكون أللهيات، وليست قصائد حقيقية.

شاعر إذن، ولكن مثل من الشعراء؟ هل أكون مثل فيكتور هوجو؟ لا. ليس الآن. إذن، هل أكون مثل ألفريد دي موسيه، لا. فهو شديد الحزن. هل مثل لافونتين؟ لا. فهو شاعر أطفال ... وقررت أخيراً ألا أقلد أحداً، وأن أترك نفسي لإلهامي الخاص، وأن أولف كتاباً من خمسين صفحة على الأقل، عنوانه: «كتاب الطبيعة».

وأثناء حصة اللاتينية، وبينما راحت الكتيبة الرابعة من الفيلق الخامس تتعثر في الأحراش، بدأت تأليف عملي الشعري الأول. وقد أسميته قبل أن أكتبه «قتامة» لأن هذه الكلمة كانت تعجيني، لإيقاعها، لكن إلهامي لم يطاوعني على المضني وراء هذا العنوان ؛ وكتبت، كما لو كنت أكتب رغباً عني،

أنشودة الجدجد (وهذا هو الوحي) . في الساعة العاشرة عندما راح قيصر
يستجوب إيبوريديريكس انتهت من المقطع الأول .

وخلال المناكرة من الساعة العاشرة حتى الظهر، أتيت على نهاية المقطع
الثاني، وبعد تفكير طويل، مصحوب بالإيماء والغمغمة التي أثرت كثيراً في
لانيو وأدهشته - كتبت الثالث في دفعة واحدة .

وأخيراً، وفي فسحة الساعة الرابعة، وبعد أن ناجيت نفسي طويلاً ، رضيت
بأن أذيع لأول مرة عملي على الملأ، أي أنني ذهبت وجلست على دكة تحت
السقيفة بين لانيو ونيلب، وقرأت - بصوت خفيض - أنشودة الجدجد .

ولولا عمتي العجوز ماري، لكانت هذه القصيدة ضاعت تماماً. فقد قضت
حياتها تجمع الكروت التي تصلها: «نهدي لك التحية من سانت مالو»،
«للكرى الحسنة من طولون» ، وكذلك إيصالات الغاز، وإنذارات الجبابة،
والرسائل، أي باختصار كومة من الأوراق القديمة كانت تسميها «وثائقها»
وبين هذه الوثائق عثرت، بالصدفة على مقطعين من هذه القصيدة، أردهما
للقارئ:

لأنني جدجد صغير .

أسود، مسالم، ووحيد ...

بخاصرة شق محراث، أصفر اللون

بعيداً عن مناقير الطيور الصغيرة

أعيش في ثقب تحت الأرض

في المساء أخرج لأغني

تحت ضوء القمر صديقي ...

وأحدث النجم الفضي
عن رونق ليالي الصيف
بالريف النائم.

عند هذا الحد، للأسف، تمزقت الصفحة، واختفى المقطع الرابع -المفضل
عندي-، ولكني مازلت أعرف مضمونه:

فأنشئ الجدجد ، الغيورة من «النجم الذي يشع» جاءت نحوه، مختفية في
العشب ؛ لكن المنشد الصغير قال حين رآها:
ورحت أغني بصوت مختلف
فجأة من أجل أنثاي.

وقد ضاعت الأبيات الثلاثة الأولى من ذلك المقطع الأخير للأبد ...

ولكن ماذا في ذلك ! لقد فقدنا نصف الملحمة الشعرية لأرسطو. ومن
ثلاثين مسرحية لمينندار لم تتبق لنا إلا عشرة أبيات، ففكرة أن يكون الزمن،
القادر على إهلاك كل شيء، احترام على الأقل مقاطعي الأولى وأبقى عليها،
تعد شيئاً لصالحها.

في نهاية قراءتي، غمرت لانيو الدهشة، وأعلن في نفس واحد: إنها رائعة!
«إنها رائعة! سأقرؤها لأمي! إنها رائعة!». وكانت دهشة نيلب أكبر، فقد ذهب
إلى حد عدم تصديق أنني كاتبها، وأغرق في الضحك، وقال ببساطة:

- من أين نسخت هذه القصيدة؟

وأجبتة بحمية:

- لقد نسختها من رأسي!

- غير معقول، قال نيلب.

- ماذا؟ صاح لانيو باستنكار، لقد رأيته يكتبها!

- أنت رأيته يكتبها، قال نيلب، لكن ذلك لا يعني شيئاً. وأن أقول أنه قرأها في كتاب، وأنه حفظها عن ظهر قلب، وبعد ذلك، لم يكن من الصعب عليه أن يتظاهر بأنه ألفها.

وأطرتني كثيراً هذه الفرضية المشينة.

- يا صغيري، قلت له، إنك تسعدني بهذا! نعم، تسعدني! فإذا كنت تعتقد أنني نسخت عن هوجو أو عن فرانسو كوييه، أو حتى عن فرانسوا فاييه، فإن هذا معناه، أن هذه القصيدة رائعة! ولكي أثبت لك أنني أنا الذي ألقتها، فسوف أشرح لك كل كلمة فيها!

ثم وبهو عثي، ولكن باقتناع أكيد، قمت بشرح النص لهما، بحسب منهج زيزي، أي أنني قمت بشرح تفصيلي لجماليات عملي، وإليكم ما قلته!

- «إنني جدجد صغير».

وكان هذا البيت الأول بسيطاً ومباشراً، فهذا الجدجد يتكلم، الأمر الذي يبدو مدهشاً. لكن لافونتتين أنطق الزرزور، وجعل النملة تجيب عليه. وهو ما يسميه البعض بالتجاوزات الشعرية. من ناحية أخرى فإن كلمة «جدجد» كلمة موحية. وعندما ينطق بها أحد، يمكن أن نتخيل (الحصن الجديد)، في أمسية ما، من أماسي الإجازة، وأشعة الشمس الأخيرة تعلو أشجار الزيتون. بل حتى يمكننا أن نشم رائحة الجديان.

- «أسود، مسالم ووحيد»

وهذا وصف في ثلاث كلمات، للملامح الشخصية

- « في خاصرة شق محراث أصفر اللون »

ويدهي أن شق المحراث ليس له « خاصرة » ، بما أن هذه الكلمة لا تنطبق إلا على مخلوق حي . لكن ذلك ما يسميه البعض الاستعارة . والشعراء كثيراً ما يلجأون للاستعارات ، وشق المحراث ، كلمة شاعرية ، وهي كلمة موحية .

فأنا عندما أقرأ كلمة « شق المحراث » ، أتخيل صديقي (فرانسوا) ، الذي يغرس حد المحراث اللامع الذي يقلب رائحة الأرض ، وهذا يجعلني أنفعل انفعالاً شعرياً ثم أستمع لغناء شحارير الباس - نوم . وهذا هو الشعر .

- « بعيداً عن مناقير الطيور الصغيرة »

وهذا ، موقف درامي ، لأن الطيور الصغيرة تترص بالجدجد لتأكله .

- الطائر الصغير ، قال نيلب ، ليس طائراً صغيراً كما يفهم من ذلك ، وإنما هو طائر شديد الصغر مازال بعد في عشه .

- إنه في النثر مثلما تقول ، ولكن في الشعر ، قصدت بهذا القول أنه طائر ليس ضحماً ، مثل العصفور أو الشرشور . وهذا يدعى ، المجاز ، بما أن كل شيء يجب أن يقال . فحتى فيكتور هوجو نفسه استعان بالمجاز الشعري . وكذلك أنا أيضاً .

- إنها مقنعة ! قال لانيو ، أكثر من هذه المداخلة غير المقنعة .

وتابعت الشرح :

- « ولكن ، لكي أهرب من فرخ الطير هذا .

فأنا أسكن في ثقب تحت الأرض » .

وهنا ، نرى مباشرة الثقب الصغير المستدير ، وقرن الاستشعار الدقيق الأسود وهو يطل منه ، مباشرة عند جذر باقة من الهندباء ، أو ربما الخشخاش .

وعرضت بنفس المزاغم، المقطعين التاليين، وخلصت إلى القول، مدعياً الحق: لاحظوا أنها قصيدتي الأولى، ولست أعرف حتى ما إذا كنت سأنشرها! عندئذ قال لانيو في وقار:

— إن ما هو رائع حقاً، هو أنها مقفأة بالكامل! وهو ما أراهن يا عزيزي، أن سقراط نفسه ليس بمقدروه فعله!

— هذا ليس مؤكداً، قلت في تواضع. فأنا لا أجرؤ بعد على مقارنة نفسي به.

— أما أنا، قال نيلب، فأقول لك ببجد، إنه إذا لم تكن نسخت هذه القصيدة، فأنا على يقين من أنك ستصبح عضواً بالأكاديمية الفرنسية.

وقد أثبتت لي الأيام أنه لم يخطئ، فالتواضع لايجيء—إذا جاء—إلا مع كبر السن، ومع ذلك، فأنا أفهم وأغفر هذا الزهو السخيف «لشاعر» في الثالثة عشرة من عمره لأنني عرفت منذ وقتها عدداً كبيراً جداً من السادة والسيدات الذين، بعد مضي زمن مراهقتهم بوقت طويل، يكتبون بتأثر عاطفي القصائد الغنائية، والأناشيد، وحتى القصائد الملحمية. وهم يفعلون انفعالاً جاداً، وغنائيتهم عفوية، ولهم نفوس شاعرية جميلة. وعندما يقرأون علينا أعمالهم، لا يستطيعون منع أنفسهم من البكاء، لأنهم يعيشون ثانية حالة الإلهام التي ألهمت وجدانهم. والتي اعتقدوا أنهم استطاعوا وضعها في الكلمات. فهذا الذي يتحدث عن فرانسواز، وتتضمن أسطر المقطعين والنصف التي كتبها حكاية الحب الأول في الشباب؛ يقول «جرادة» ويستمع إلى الموسيقى الخفيفة البعيدة المنبعثة من أول مساء للإجازة؛ وهو ينطق «بحمية» صلاة المساء، ويرى الكنيسة الصغيرة الريفية، غير المضاءة جيداً، ذات مساء شتوي، حيث ركع أمام أمه العزيزة. لكن السامع لايعرف مفاتيح هذه الكلمات، وغالباً ما يكون لهذه الكلمات عنده معان أخرى. فلعله لم يذهب أبداً لصلاة المساء؛ وتذكره كلمة

جرادة بهذا الزنجي الضخم الذي قلاها في المقلاة، والذي ألح عليه في أن يقرش واحدة على الأقل، ويأن فرانسواز هو بالتحديد اسم طبّاخة حولاء، كانت تنبأه بأنها تبصق كل يوم في الحساء حتى فصلت في نهاية المطاف.

وهو ما يجعل المستمع المندهش لا يسمع إلا طنيناً مضجراً للكلمات، ويبدو له أن انفعال الذي يلقي الشعر أمامه أمر غامض على نحو يثير الرثاء.

وانشغلت طيلة عام الصف الرابع هذا بكتاباتي الشعرية. فقد كتبت ثلاثين قصيدة في تخليد الطبيعة الأم. على ألسنة الزرزور، والنبع، والريح، والعنديل، والراعي، والبذور، والحصاد. وكنت أذهب يوم الخميس إلى بيت لانيو، وأطبعها على آلة النسخ، بتعاون وحماس خالته، التي اعتبرني عبقرياً يولد. فكانت ترسل نسخاً من أعمالي إلى الجرائد، والمجلات، مصحوبة برسائل على طريقتها. ولأن أحداً لم يرد عليها، استنتجت أن هؤلاء الناس قد قرروا القيام «بمؤامرة صمت»، لكي يخفوا المواهب الشابة، وكتبت لهم صفحات وصفحات تنهك فيها عليهم، ويحدث لي الآن أن تصلني رسائل من مجنونات من هذا النوع، تجعلني أفكر بجنين في خالة لانيو، التي كانت تعاني من اضطراب في الهرمونات، نتجت عنه في رأسها أفكار غريبة شاذة «لم يعرف بها المنطق».

في سنوات مراهقتي البعيدة وعلى ذلك مدرسة مرسيليا الثانوية القديمة، كتبت الأشعار. وقد بدأ كل الكتاب تقريباً بهذه الطريقة.

ونحن لا نفهم جمال النثر، قبل أن نبلغ سن الخامسة عشرة، فلا نشعر جيداً بعبقرية أسلوب مونتاني أو شاتوبريان. وما يحبني في الشعر، هو التمكن، وكنت أعتقد بسذاجة أن كتاب النثر خضعوا لكتابة النثر لأنهم لم تكن لديهم القدرة على كتابة القوافي. ولأنني تمكنت بسهولة منها، تصورت نفسي أقوى بكثير من بوسويه وبلزاك.

ولقد أعجب زملائي بموهبتي، وشجعني أساتذتي، لأنهم تصوروا أن هذا

الهوس كان تدريباً رائعاً لي في اللغة الفرنسية.

وقد كتبت على هذا النحو عدداً كبيراً من القصائد الصغيرة، وقصائد الحب لزملائي المحبين، الذين كانوا يكافئون عبقريتي بالكراملة الطرية من ماركة الكلب القافر، وأحياناً بالسجائر.

وعندما انتقلت للصف الثاني، قررت أن أتخلى عن كتابة الغزليات والمرائي لكي أبدأ عملاً ما، من نوع (مأثرة العصور)، أو (الإلياذة). باللغة الحديثة بالطبع. وكان البطل العظيم للقرن العشرين بلا نقاش هو نابليون. لذا فقد وقع خياري عليه. وبعد أن قرأت دروسي في التاريخ بحثت عن استهلال فخيم كاستهلال الإنياذة، "Arma Virunqu cano" (سلاح الشعر المؤدى)، ولكنني فهمت سريعاً أنني ليس لدي النفس الملحمي، وعدلت عن كتابة ملحمة الامبراطور. واعترفت بإحباطي لأببير كوهين فقال:

- كنت أعرف أنك ستعدل عنها.

- لماذا؟

ولأن صداقتنا كانت أقوى من تواضعنا، أجبني:

- إنك شاعر مرات كبير، من نوع راسين أو ألفريد دي موسيه. وما تستطيع فعله أنت، هو كتابة مأساة من نوع بيرينيس، تمثل قصة حب جميلة.

وأعجبني فكرة أن أكون شاعر رثاء من الطراز الراسيني لأنه مادام كوهين قال ذلك، فهو ليس بالنسبة لي أمراً قابلاً للتشكيك فاستعرت من مكتبة المدرسة ديواناً في المرابي اللاتينية، جمعه السيد أرنو أستاذ الصف الأول بالمدرسة. وتعرفت من خلاله على بروبرك، وتيبول، وأوفيد، وكاتول.

كنت أجد إلى حد كبير اللاتينية، لأنني كنت أتحدث اللهجة الريفية مع جدي وأصدقائي من قرية الكرمة، بالقرب من أوبان. وهذه اللهجة قريبة من

اللاتينية أكثر من قريبها من الفرنسية. وبديهي، أن الكلمات قد غيرت من هيئتها عبر القرون.

لكن بتلك الحقيبة، التي لم تكن مع ذلك بعيدة، كان أهل الجنوب يتحدثون مازالوا اللغة الرومانية، لغة إقليم الأوك. وكان الريف ما يزال مستعمرة رومانية، وأرض مهجر لزراع التوابل، واللمبارديين، والنابوليين، وكان بالمدراس العامة في ذلك الوقت عدد كبير من الغلمان الذين كانوا أول من تعلموا القراءة في عائلاتهم، وأول من تكلموا الفرنسية.

وكان تلاميذ أبي يدعون: رو، ودوريك، ولوران. لكن كان الكثيرون منهم يدعون: لومباردو، وبينوشيه، ورينييري، وكونسولين، أو سوكوداتي.

ذات مرة، لم يحضر إلى المدرسة لمدة أسبوعين، غلام وسيم كان يدعى فيوري أوكاشيابوا، وكان أبوه رخاماً. وعندما عاد، سأله أبي عن سبب غيابه. فأجاب بأن والده قد اصطحبه إلى إيطاليا، لكي يزور جدته، التي كانت عجوزاً جداً، والتي لم يكن قد تعرف عليها.

— أنا أصدقك، قال أبي؛ لكن لابد أن تأتي لي بورقة من والديك تؤكد ما قلته. وهذه هي القاعدة.

وبعد ظهر ذلك اليوم، عاد لأبي بورقة كراس مطوية أربع طيات. فتحها أبي وقرأ هذه الرسالة، وهو مذهول. في منتصف الورقة، لم يكن مكتوباً سوى كلمة واحدة، مكتوبة بأحرف كبيرة: napator

— ما معنى هذا؟ قال أبي.

— معناه، قال كاشيابوا وهو محمر من الخجل، أنني قلت الحقيقة، وأني لم أخطئ.

— هذا كاف تماماً، قال أبي، بغير أن يبدي أي دهشة. ووضع الورقة في

جيبه. لكنه على طاولة الطعام، قص الحكاية على أمي، وأراها هذه الكلمة الغريبة، «إنها جديرة، قال، بأن تنقش بالهيريوغليفية على تابوت فرعون ... وتوجب عليها أن تشرح لي معنى هذه العبارة الغامضة، بما أنني كنت أهوى الكلمات ...

وقد أضحكني جهل الرخام، فعندما تكون معرفتنا قليلة، نكون شرسين ضد من معرفتهم أقل منا ... وحكيت الحكاية همساً لفلورنتان، الذي حكاها لدوبوفيه الذي حكاها لدافين، وأطلقنا على كاشيابوا اسم ناباتور، الأمر الذي أضحكه هو نفسه؛ ولم يكن مجد أبيه ساطعاً في الهجاء، ولم ندرك أن مجده كان مزدهراً بأعمال الرخام التي كان ينقشها بدقة على شواهد القبور.

لقاء مع إيف

كل يوم، أثناء الفسحة القصيرة للساعة العاشرة، وفي حوش الخارجية الكبير، كنت أتمشى، حالماً، تحت أقواس الفناء، وأنا أولف؛ متظاهراً بحالة الوحي. ولكنني عندما كنت أرى، عبر الباب الموارب لدورة المياه، حزاماً معلقاً يشي بوجود أحد فيها، كنت ألم من تحت شجرة دلب؛ حفنة من الحصى، ثم، أختفي وراء جذع، وأتيقن من أن أحداً لا يراقبني، وأقذف بحفنة الحصى من أعلى الباب الواطئ.

وكنت أرى في التو جذعاً يفر ثائراً، جذعاً حقيقياً لشخص بلا أذرع، كما لو أنه تمثال نصفي بمتحف، لأن ذراعي الضحية تكون في ذلك الوقت مشغولة بمحاولة ارتداء السروال. وكان الجذع يصبح ببعض الشتائم، التي تنتهي

بالتهديدات، ولكن بغير أن يراني، لأنني أكون حينئذ مختبئاً وراء الشجرة التي تخميني، مستمتعاً بالنتائج الصوتية الناجمة عما فعلت.

وفي الصمت الذي يحل ثانية، كنت أتيقن ثانية من أن أحداً لا يراقبني، عندما ينزل الجذع ثانية ليكمل مهمته التي قوطعت. وكنت أقذف، على سبيل اللهو، حفتين أخريين من الحصى. وأنا أعلم أن المقرفص الهائج لن يعود للظهور فوراً، لأن الامبراطورة الطبيعة تكون ممسكة به، لكن صيحاته الراحدة تظل تدوي من وراء الباب. وكنت أقذف عندئذ الحفنة الأخيرة التي تخيرتها من زلط أكبر، مختلط بالتراب، ثم أهرب باتجاه الأقبية. وهناك، كنت أتصنع، وأنا أسير بخطوات بطيئة، أنني أوصل حالة الإلهام التي أنا فيها، وأنا أراقب ما سيجري من أحداث.

كان المرجوم يظهر أخيراً؛ ومن الحركات المربحة لأكتافه، يتضح أنه أدخل أذيال قميصه بينظلولونه في عجلة شديدة، وهو يذرع بنظرة متوحشة أرجاء الفناء. وكان يمسك بحزامه، ويربطه أثناء خروجه، ثم ينقض على واحد من الأبرياء يكون مشغولاً بلعب البلي وحيداً، ولا يفهم في بادئ الأمر سبباً لتلك الركلة التي أصابته من وراء، فيتنقض بدوره لتوه مهاجماً المعتدي.

كانت تلك المعارك السخيفة تبهجني، إلى أن يأتي بيدق المراقبة، الذي يقتاد المتعربين إلى مكتب السيد المراقب العام.

لكنني ذات يوم -وكان عليّ أن أحترس، لأن الحزام الذي تعلق بالباب كان شديد الطول- عند أول رشقة حجارة، رأيت رأساً شديدة الضخامة تظهر، تلاها كتفان ضخمان. كان طالباً من الكبار الذين لم يكن لهم أن يجيئوا إلى فناءنا، لكن الحاجة دفعته لذلك. ولم يتردد ذلك الشخص لحظة واحدة. فبغير أن ينطق بكلمة، شد بينظلولونه بسرعة خاطفة، وفتح الباب، وأمسك بحزامه وهو يخرج، وقفز عليّ. وشدني من وراء الشجرة التي تمسكت بها، وجلدني بعنف

على قصبتي رجلي. وكان بيدق المراقبة بعيداً، واندفعت باتجاهه، وهو يجلدني في كل خطوة بحزام الجلد الثقيل ؛ واحترقت قصبتي رجلي، وسقطت على الأرض، حين سمعت شتمة غاضبة، وانبطح «الكبير» فوق حصي الفناء وذقنه أمامه ؛ وكان غلام يكبرني بالكاد، قد طرح هذا الوحش وأوقعه أرضاً بحركة مصارعة جميلة بالقدم.

كان المدافع عني أسمر اللون، ذا وجنة شاحبة محفورة، وأكتاف عالية وعريضة وراح ينظر للمطروح أرضاً ببرود، لكن قبضتيه كانتا في مستوى أنفاسه. ونهض الآخر ؛ وكانت ذقنه قد احمرت من السقطة، وهو شديد الحقن.

– أيها الصغير الوسخ ! قال بعنف. أيها الصغير الوسخ.

وأجاب الغلام الأسمر، بصوت متحفز:

– ماذا جئت تفعل هنا أيها الأبله !

وأصابت العملاق الدهشة من هذه الشتمة، فاندفع باتجاهه، رافعاً ذراعه، ممسكاً بالحزام مطيحاً به وراء ظهره، في استعداد لأن يضرب به ضربة طائرة ؛ وللصدفة السعيدة النادرة، اصطدمت حلقتة المعدنية الثقيلة، بطرفها، بأعلى رأسه، وطنت طنة مكتومة. فتوقف مشلولاً، وأمسك برأسه بيديه اللائنتين، واستدار باتجاهي، وهو في قمة حنقه، مما سمح لحليفي لأن يركله ركلة بديعة في مؤخرته ؛ لكن تلك الضربة الناجحة، لم تؤثر إلا في التعجيل بهجومه عليّ.

وأمسكني من شعري، فأخفيت وجهي بين ذراعي المفرودين، حين سمعت دوي صوت جهوري :

– ما هذا الذي يجري ؟

وكان هذا السؤال، الذي لم تعقبه أية إجابة، صادراً عن بيدق المراقبة، الذي هرع يجري بساقيه الطويلتين. وأمسك بيده كتف الكبير، وقبض على كتفي

باليد الأخرى، واقتادنا بخطوة واسعة إلى مكتب المراقب العام، محاطين بجمع من الهواة، يجرّون إلى جانبنا، وهم يشجبون بصوت عال فعل المتطفل.

وعندما وصلنا أمام باب المراقب العام، لمحت الغلام الأسمر وراءنا. ورغم خطورة الموقف، ظل محافظاً على رباطة جأشه بشكل يدعو للإعجاب.

واستدار بيدق المراقبة دفعة واحدة، وصاح عليه في وجهه!

- ماذا تفعل هنا هل تريد أن تعاقب أنت الآخر؟

فأجاب الغلام بلا تلثم:

- أنا أيضاً، تعرضت للضرب، ولذا فقد رأيت كل شيء، وأنا شاهد. فالكبير هو الذي بدأ العدو.

- ليس صحيحاً! جأر الآخر ... لقد جئت إلى دورة مياه هذا الفناء، لأن دورة مياهنا مزدحمة، ثم

لكن صوتاً قاطعاً أوقفه عن المواصله، وكان هذا الصوت صوت المراقب العام، الذي خرج من كهفه.

- وماذا جئت تفعل بدورة المياه هذه؟

وشرع الكبير في الإجابة على هذا السؤال، حين قال السيد المراقب العام له بخشونة:

- اخرس! إنك تكذب! لقد جئت هنا لتدخن! لست أنا الذي تضحك عليه! لقد كنت تدخن! اخرس! إنها المرة الثالثة التي نفاجتك فيها تدخن! أربع ساعات احتجاجاً! اخرس!

وقص البيدق باختصار، قصة المعركة التي لم يرها إلا من على البعد. وقلت أنا إن الكبير المتوحش قد هاجمني من الخلف بضربة حزام، وإنه لولا

التدخل الشجاع للغلام الأسمر، لكنك بلاشك نقلت إلى المستشفى.. وكنت أتحدث بنفاق واضح، وبصوت طفولي متقطع، وحاولت جهدي أن أبدي فزعي.

- يضاف لهذا، أعدد المراقب العام، أنك جرؤت على إرهاب طفل! ثمانية ساعات احتجاجاً! وإذا رأيتك مرة أخرى في هذا الفناء، فسوف تطرد من المدرسة، اخرس. وراح الكبير، الذي عدل منذ أن سكت عن الكلام، يدعك رأسه وقد أطلت من بين كتفيه رقبتة الطويلة وراح يحرك رأسه يميناً ويساراً، وقد بدت الحيرة في عينيه، والبلادة على مظهره.

- اذهب! قال المراقب العام.

ودار الكبير على عقبيه، ثم، ذهب إلى مصيره، مسدلاً كتفيه ومحنياً رأسه.

- وماذا عن هذين الاثنين؟ سأل البيدق.

- هذان الاثنين، قال المراقب العام، لا يوحى لي مظهرهما بالبراءة... وأفكر في أن أعاقبهما بساعة احتجاج لكي يتهدبا...

وتظاهر بالتفكير لحظة، بينما رحنا نحن ننظر الي أحذيتنا، وأيدينا خلف ظهرينا، وكرر:

- نعم إنني أفكر في ذلك! فما قولك أنت ياسيد بوانسو.

- لقد كان هذا الغلام أقوى منهما بكثير، قال السيد بوانسو في شهادته.

- إذن قال المراقب العام لنحتفظ لهما بهذه العقوبة للغلطة القادمة، هيا، انصرفا! وانصرفنا.

ولكي نتحدث على راحتنا، اقتدت حليفي حتى آخر الفناء. ورحت أرقبه، أثناء سيرنا، كان نحيلاً بعض الشيء، بلاشك لأنه كان ينمو بسرعة. كانت ساقاه طويلتين وكذا ذراعاه، وكانت مفاصلها مرنة، بحيث تبدو كما لو أنه غير

قادر على التحكم فيها كما يجب ... وكانت له بضع شعرات طويلة على ريلتي ساقيه، وظل شارب، تحت أنف مقوسة تقوساً خفيفاً، وكانت عيناه السوداوان ثاقبتين ملتصعتين، كانت فيه وسامة ورجولة جعلتني أشعر نحوه بالصدقة دفعة واحدة.

وجلسنا في ركن. مختبئين بعض الشيء وراء. عمود من الأعمدة، وأمامنا جذع شجرة دلب. وسألته:

- ما إسمك؟

- إيف بونيه.

- هل أنت طالب خارجي؟

- نعم.

وكان ذلك واضحاً، فقد كان يرتدي حذاء جميلاً أبيض، وربطة عنق حريرية زرقاء.

- بأي صف أنت؟

- بالصف الخامس أ.

- أنا، قلت مزهواً، بالصف الرابع أ.

- لكن يبدو عليك أنك أكبر من سنك.

- هذا لأن أبي طويل جداً، ويزن مائة كيلو جرام.

ولم أحدثه مباشرة عن أبي، فقد وجدته مهزوماً مقدماً في مباراة وزن الآباء. وتابع هو الحديث:

- إنه رئيس الميكانيكيين على الباخرة (أتوس)، ويسافر في خط مرسيليا

يوكوهاما. أي يسافر لليابان. وهو ما يجعله في معظم الأوقات غير متواجد بالبيت.

- وهل تعيش وحدك مع أمك؟

- مع أمي، وأخوي الاثنين. وهما أصغر مني ... ولأن أبي لا يأتي إلا كل ثلاثة شهور فهو ليس لديه الوقت لكي يزجرنا، وهو يغمرنا دائماً بالهدايا.

كان يأتي لهم بالعصي التي يؤكل بها الأرز، وبالأقفاص الصغيرة المصنوعة من الخشب الصلب التي بها تمثال قرد دقيق الحجم، منحوت هو أيضاً وراء قضبان القفص وبـ «عرائس البحر» المحشوة بالقش، والتي لا تزيد في الحجم عن سمكة هلوق البحر. وكان يأتي لزوجته، بالشيلان والإشارات، والسجاجيد الحريرية المزخرفة بالتنانين التي تطلق النار من أفواهها.

وقد بدت لي هذه الطريقة في الحياة رومانسية؛ ورحت أنظر له بإعجاب، أي بتطلع، ورحت أفنش عن الكيفية التي أبدو بها في نظره مهماً.

- أما أنا، قلت، فإن أبي يعمل مدير مدرسة، هي أكبر مدارس مرسيليا.

وكان هذا كذباً؛ لكن جوزيف كان قد قال لنا ذات يوم أثناء الطعام إنه يفكر في أن يحصل سريعاً على منصب مدير. لذا فقد كان من المشروع تحقيق هذا الأمل بتمجيده، خاصة أمام غلام يمتلك عرائس بحر محشوة، ويسير بقدمين حافيتين على التنانين.

وأحدث قولي أثراً كبيراً؛ ولكن لأنني لم أحب أبداً أكاديمي الخاصة، لم أسهب في الحديث في هذا الأمر، وعدت بلباقة للحقيقة، قائلاً:

- إنه فوق كل هذا صياد جيد.

ورحت أحكي عن صنائعه، وسردت مرة أخرى قصة صيده للدراجين

الملكيين بتصوية واحدة.

هذه الملحمة - بدون إدراكي - اغتنت على نحو كبير، بعد أن تمت حكايتها ثلاثين مرة، فقد تضاعفت أحجام الدراج الملكي بها، وتغيرت مسافة التصويب بما جعل أبي يطلق عليها من على بعد مائة متر وأكثر، كما تمت المبالغة في مشهد سقوطهما فوق رأسي، بإضافة أنهما أغرقاني في بحر من الدماء. وأضفت أن هذا الفعل كان عملاً فريداً من نوعه في العالم كله، بما أنه لا يوجد في تاريخ الإنسان المسجل، أي صياد تمكن من تحقيق «ضربة ملك» مشابهة. وابتسم إيف لذلك ابتسامة صغيرة، وقال بأدب:

- في هذا، أنصوّر أنك تخطئ، فقد أروني، منذ سنتين أو ثلاث، أثناء الإجازة صياداً فعل نفس الشيء.

وقطع هذه العدوان على مجد أبي أنفاسي.

- غير ممكن. أقول لك، إن هذا غير ممكن.

- ومع ذلك، فقد حدث. ولقد رأيت نفس هذا الرجل. وكان شخصاً من المدينة، يقضي إجازته في كوخ بالبراري، بعيداً عن قرية الكرمة، بل إن القسيس بنفسه قام بتصويره.

وانتابتي حالة من الزهو الهائل، وشيبت على أطراف قدمي، وصحت:

- حسناً، إنه هو! إنه أبي ذلك الذي رأيته، وهذه الصورة معلقة ببيتنا! وفي كل عام نذهب لقضاء الإجازة في البراري، بالحصن الجديد!

- هذا، قال في تعظيم شديد، شيء رائع... لأننا، نحن أيضاً، لدينا بيت في الكرمة!

- بالقرية نفسها؟

- لا! بعيداً عنها قليلاً! إلى اليسار، تحت طريق البراري، بيت كبير أبيض،
بمنتصف المنحدر الهابط بانجاه رويو.... وهو يدعى العنديل.

ولم نعرف بعد ماذا نقول، لأن هذا الاكتشاف بدا هو الحدث الأكثر إعجازاً
في حياتنا؛ ولم يكن هذا مصادفة وإنما موقفاً قديماً، فإيف كان يعرف تلالي!
وكان يركب كل يوم سبت يترام الباراس المجيد! فلم لم أراه أبداً عن قرب؟
ولماذا لم يسمح لنا القدر باللقاء، حتى حدوث هذه المعركة العجيبة؟

وراح يشرح لي، حين رأيت الحذاء الضخم الأسود يتقدم نحونا وفوقه كان
بيدق المراقبة يهدف بيديه؛ وهاجمنا على غرة، بصوت يعوي، فقد كان الفناء
قد فرغ بالفعل، ولم نكن قد سمعنا قرع الطبل.

ومضينا مسرعين، كل منا إلى فصله، ووراءنا صيحات التهديد المجنحة، التي
كانت تتوعدنا «لو تكرر ذلك». وكان أستاذ اللاتينية بفصلنا، الذي ندعوه
زيزي، له شارب غزير جداً، ولحية صغيرة بيضاء مدبية. وكان في نظرنا قاسياً،
لأنه كان من الصعب خداعه. ولم يكن لوصولي متأخراً أثر طيب في نفسه،
ومع ذلك، لم يقل زيزي لي شيئاً، ولم أكن بحاجة لاختراع سبب.

وكانت شروح اللاتينية قد بدأت؟ وفتحت في عجلة كتاب «قيصر»،
ووضعت رأسي بين قبضتي، ورفعت حاجبي، وأنا أتصنع التأثر بالدرس، وبينما
راح الغاليون يحاولون بلا جدوى محاصرة الفيلق الحادي عشر، رحت أفكر في
معركتي، وفي المعجزة التي أتت لي بصديقي الجديد؛ وأخذت أفتش عبثاً عن
مفتاح لهذا اللغز الكبير: ماذا أعاقني عن الالتقاء به قبلاً؟ ولماذا؟

وعند هذه السلسلة من التساؤلات، أضاف زيزي فجأة سؤالاً؛ وهو يشير إليّ
بسبابته، قائلاً:

- لماذا يكون أويديو في المفعول المطلق؟

ووقفت، عاقدا ذراعي، وأجبت بوضوح:

- لأنه لا يركب نفس الترام ...

وعبر شحوب وجه زيزي عن دهشة استنكار، في الوقت الذي اندفع فيه الدم إلى وجهي، وهزت فيه الفصل قهقهة هائلة. وخطب زيزي على مكتبه بمسطرة ثلاث مرات، ثم، راحت نظرتة تجوب الفصل كشعاع المنارة. فاجتزت الضحكات كلها. وفي الصمت الذي حل، قال :

- يا سيد، أنا أسامح مع الغباء، حين لا يكون وقحاً. وإجابتك ليست إلا عملاً من أعمال التهريج. لذا فسوف تترجم لي من أجل يوم الاثنين الفقرة السابقة من شروحات قيصر.

بعد ذلك ولتصوره بأنني نلت جزائي، تركني لأحلام يقظتي، وراح يوجه سهامه نحو ييكون، ثم نحو ألبير كوهين ؛ فقد ضحكا بصوت عال، لكنه اختصهما واحداً بعد الآخر بسؤال في الفعل المنصوب.

أثناء ذلك، رحت أفكر في إيف، وفي الحصن الجديد، والبيت المسمى بالعندليب، وامتلأ رأسي بالزواجر. ورحت أتساءل: متى يمكننا أن نتبادل حكاياتنا؟ كان إيف، لسوء الحظ، طالباً خارجياً، لذا فقد كان يغادر المدرسة في الساعة الرابعة! ولم يكن بمقدوري أن أراه إلا في اليوم التالي، وهو ما بدا لي أمراً غير مقبول. لذا قررت أن أقفز خارج الفصل عند ابتداء قرع الطبل، وأن أجري نحو فصله، لكي أقابله خارجاً؛ وسيكون لدينا بهذا الشكل بضع دقائق نتبادل فيها أهم أسرارنا.

لم يكن المحاربون المرحون الغاليون، الذين يضعون على جنوبهم سيوف الفضة والذين تراجعوا عند أول اصطدام، قد انتهوا في غضون تلك الساعة من الدرس لكن عصرهم بأكمله قد ولى، عند دوي قرع الطبل تحت قبة الفناء.

ومع أول نفرة للطليل، قفزت كالضفدع، واضعاً يدي على مقبض الباب، حين ارتفع صوت زيزي:

- من هذا الأرعن؟ أهو أنت ثانية؟ تعال هنا! ما هذا الجنون، ياسيد؟ أهذا هو كل ماتعلمته من دراستك؟ هيا، قف، إلى جوار السبورة! ولن تخرج من الفصل إلا آخر واحد!

وعندما وقفت لأكون عبرة، استدار هو للفصل، قائلاً:

- هيا اخرجوا!

وكان ذلك أمراً لا يمكن إصلاحه، وتمنيت، من كل قلبي لو أن هذا الجلالد القاسي القلب سقط ميتاً عند قدمي وهي أمنية عبثية. فلن أرى إيف قبل حلول الغد ...

وعندما خرج الجميع، مشى زيزي المتوحش هو الآخر باتجاه الباب وبخطوات بطيئة، ثم توقف حوالي نصف دقيقة. والتفت أخيراً إليّ، وقال: هيا اذهب، بينما كان هو يخرج. وانطلقت، وكان نهر التلاميذ يهدر متجهاً إلى الفناء، وكان من الصعب عليّ أن أعبرهم بغير أن أدفع البعض منهم، وهو ماجعلني أتعرض لكمية من الشتائم، ولركلة قدم في مؤخرتي، لحسن الحظ لم تكن قوية بسبب سرعتي في الجري ... ولكنني عندما وصلت أمام الفصل الخامس أ، لم أجده مسكوناً إلا بصورة دميمة كبيرة مرسومة بالطباشير تملأ السبورة السوداء، وكانت تمثل بالطبع السيد المراقب العام، لأنها كانت تضع قبعة منفوخة، ولحية، وأذني حمار.

كان إيف قد رحل إذن، بسبب هذا الكره زيزي، الذي لا يعرف بالتأكيد حجم الكارثة التي تسبب فيها لي.

ونزلت ثانية باتجاه باب الخروج، بخطوة حثيثة، لأبحث ثانية في كل

الاتجاهات. ولكن بغير أمل كبير، لأن التلاميذ الذين كانوا يخرجون أمامي، حاملين حقائبهم الثقيلة مدلاة في أيديهم، كانوا كائنات من عالم آخر، أي تلاميذ من الصف الثاني، أو الأول.

عندئذ، مضيت بلا اكتراث إلى آخر الفناء، حيث كان الطابور المزدوج للممنوحين بانتظار أوامر بيدق آخر لكي يتجهوا إلى قاعات المذاكرة، حصص الداخلية. وكان هذا البيدق من التحافة بحيث أنني كنت أتخيل أن سرته ملتصقة كعنكبوت على الجانب الأمامي من عموده الفقري. كانت له رموش طويلة صهباء حول عينيه الزرقاء، وكنا ندعوه الأزرق.

ورحت أتخذ مكاناً في آخر الطابور، وأنا أفتش مازلت بعيني في كل الأرجاء، كان لدي أمل في أن يكون ليف هو الآخر يبحث عني، أو، على الأقل ينتظرني لبضع لحظات. لكنني لم أجده، ولابد أنه رحل مسرعاً مع الآخرين، وكاد إحباطي يتحول إلى حزن شديد ...

فجأة، وجدت يداً تشدني من ستري. فالتفت، وكان هو الذي يشدني، وانفجر ضاحكاً من فرط السرور.

- هل تنتظرني؟

- نعم، وسأظل معك ...

- لكن هذا ممنوع، لأنك طالب خارجي!

- لا يهمني، قال. وإذا لاحظوني، سأقول إنني عدت لكي أطلب كتاب

اللاتينية الخاص بي من شوسون الذي هو طالب ممنوح معنا. فقد أعثرته له بالأمس، وهو في غرفة العبادة. كما أن الواحد عندما يفعل مايجبه، فلا يهم أن يعرض نفسه لبعض الأخطار.

في تلك اللحظة، سعل الأزرق، وقال في صوت مختنق:

- ضموا الصفوف!

ولأنه راح يركز بصره علينا، أخفى إيف أنفه في منديه وأحنى رأسه، لكي يخفي وجهه المعروف كوجه طالب خارجي.

ولم تكن به حاجة لهذه الاحتياطات المقتنعة، فالأمر لا يستدعي ذلك، إذا لم يكن في صفوفنا حيوان من نوع الأيل، أو عقيد في سترته الرسمية حتى يلاحظه الأزرق. فقد كان يعد -منذ عدة سنوات- لدرجة الليسانس في الرياضيات، ولم تكن عيناه تلاحظان أي شيء خارج رأسه، وكان كل تركيز فكره على معادلات الأرقام المتجمهرة في عقله الضيق.

وبصوت مخنوق، قال:

- اذهبوا!

وذهبنا.

في آخر فناء فسحة الداخلية، كانت توجد سقيفة كبيرة معدة من أجل أيام المطر، وراء الأقواس الرومانية العالية. كان الضوء تحت هذه السقيفة أقل نصوعاً منه في الفناء. وكانت هناك دكة ملتصقة بالحائط البعيد للسقيفة فرحنا نجلس عليها. هذه الفسحة التي استمرت ساعة، بدت قصيرة.

وأعلمني إيف أولاً أن جدته لأمه تعيش طيلة الوقت بقرية الكرمة، وأنها تمتلك عربة جميلة جداً - من خشب الأكايو اللامع- يجرها بسرعة عجيبة «نغل» نشيط. وعندما طلبت منه بعض الإيضاحات حول نوع هذا الحيوان الغريب أجابني بأنه يشبه في الظاهر حصاناً صغيراً، ولكنه من وجهة النظر العلمية يعد التركيب المعاكس للبقول، وأنه لا يعرف أكثر من ذلك.

كل يوم سبت في الساعة الرابعة، كانت أسرته تركب الترام، ليس الترام الذهاب إلى الباراس، وإنما الذهاب إلى سان مارسيل ؛ وهناك، كان النغل

الغامض، الذى يقوده فلاح، يأتي لانتظارهم، لكي يأخذهم، بسرعة، إلى القرية، ومنها يذهبون سيراً على الأقدام إلى العنديل، عبر ممر يحفه الزعرور، وزهور القويسة، ونبات السذاب، وإكليل الجبل ...

وهكذا انكشف الغموض، وصحّت إجابتي -التي وجدها زيزي سخيفة-. وعلمت منه بعد ذلك أنه يعرف تلالي معرفة غير عميقة، فهو لم يصعد إلا مرة واحدة حتى التاومي؛ وأن كشوفه الخاصة كانت تقوده في العادة لناحية كهف المصابين بالطاعون، وإلى (رأس بوجناو)، بناحية الألووش.

عندئذ، قدمت وصفاً رومانتيكياً للأحراش الحقيقية، التي كنت أعرفها، وراح يتأملني، فاغراً فاه، بشغف وقلق، وهو ماحدث لبشر العصور الوسطى عندما راحوا يستمعون إلى حكايات ماركو بولو. وقد كدت أطفح بالسعادة وأنا أحكي له عن الشعاب البعيدة للباس -توم، وعن نعومة نسائم المساء في الصمت الجاف لصخور البريكاتورى، وعن الخضرة التي تعبق بالروائح فوق أشجار صندل الجاريت، وعن رقص الهواء على الأحجار الزرقاء وعن الأصوات الزاجرة للأصداء، وعن الصقر الوحيد، الساكن أعالي السموات مطلقاً على مملكته الشاسعة.

ونظرت إليه، كان مستيقظاً مازال في حالة من التوحد، والسكينة.

السيد سيلفان

في ذلك اليوم، مشيت مع إيف على طريق الحصى الموصل إلى نهاية وادي اللباس -توم. وذهبتنا إلى بريكاتوري، وهو خور بلا أشجار، لكن أشواك الرند

والعرعر كانت تطول به حتى تصل إلى مترين .

ووضعتنا هناك الفخ الرباعي العجوز المغطى، على أمل الحصول على بعض الأرناب، لايهدف الصيد المخالف. وإنما بناء على طلب الطبّاخين، الذين أرسلونا للصيد من أجل إعداد اليخنة .

وحتى بالظل، في داخل الوادي، كان الجو حاراً الحرارة المحرقة، لفصول الصيف في الأزمنة الماضية. وكان صمغ الصنوبر يسيل كالعسل من الشقوق الحمراء بلحاء الشجر الأسود، وكانت الزواير تنشد بصوت عال جداً، بسبب جفاف أحبالها الصوتية. وكان يوجد منها المئات، جعلتها أصدااء الحرف تبدو وكأنها الآلاف. ورحنا نسير بخطى المتزهين، نجر نعالنا على الحصى، وكنا نتوقف كل عشرة أمتار، من أجل الإسهاب في الحديث.
وكان إيف يحدثني بالإنجليزية، وأرد عليه باللاتينية .

– بماذا يسمون الجدجد في الإنجليزية؟

How do they call a “Cigale” in english?” -

Eheu! cicadae autem Britannis ignotae sum, Cum,-

fabulam La Fontis traducunt, Cicada ‘gras hopper” vocatur,

للأسف! فالبريطانيون يجهلون وجوده! فالمرجع يترجم، الجدجد «بالجرادة»،
تفضل،

– لكن ذلك بلامع This is nonsens!

Optime! Ouia “grashoppers” locustae sunt

– عظيم! لكن الـ “grashoppers” هو الجرادة.

كنا مزهوين بتبادل الحديث بالإنجليزية غير ناضجة، ولاتينية خليط –ولكن عليّ أن أقول إنه بفضل هذا التحذلق، الذي تطلب منا نوعاً من انتباه العقل،

أحزنا تقدماً كبيراً في هاتين اللغتين ؛ لأن كلانا كان يسعى لكي يحصل على إعجاب الآخر، فأهم دافع للتقدم بالنسبة للشباب، هو المباهاة.

وحين رحت أبحث عن عبارة لاتينية تعادل عبارة «لا يهمني»، توقفت خطوطنا وتفكيرنا بسبب تعالي الصوت النحاسي لبوق آت من عمق الوادي، كانت أصداؤه تتردد في ثلاثة ترجيعات وهبط شحروان كانا في حالة من الحب بلاشك، في ياسمين البر، تحت شجرة ليلاب .

وقطعت الأصوات الزاعقة، في هذه الوحدة، أنفاسنا، ولكنها لم تقطع أنفاس العازف غير المرئي، الذي راح ينفخ، نفخة وراء أخرى، كأنه الفونوغراف، سلسلة من نفخات البوق النحاسية، جعلنا إيقاعها العسكري نفكر في رجال الدرك.

وخبأت في التوكيسي بدغل من الأعشاب، فقد كانت به ستة من فخاخ الدراج، ثم غادرنا الممر، وتقدمنا عبر غابة من السماق والرند، بلا ضجة نحو مصدر الموسيقى التي استمرت تتردد أصداؤها.

كان علينا أن نتجه ببطء حتى منعطف الوادي. وهناك، ومن خلال أوراق الشجر، رأيت فتحة بوق نحاسية، وراءها زوج من الوجنتا المنتفخة تحت أعين مغمضة، ثم رجلاً ضخماً ينفخ في النفير. ولم يكن الرجل من رجال الدرك، فقد كان يرتدي بنطلوناً من نسيج أزرق، وحمالات حمراء على قميص أبيض، بياقة مفتوحة. وتحت شجرة جوز عجوز، على كومة من الصخور، وضعت سترة سوداء مطبقة بعناية، تحت قبعة من قبعات الفنانين. وما إن نزع النفير من شفثيه، حتى كشف لنا عن وجه ذي ملامح محددة، ولكنها منسقة وبيلة. فأسفل حواجبه اللامعة، بدت عيناه جميلتين زرقاوين زرققة فاتحة ؛ ولم يكن شعره أشيب، وإنما كان أسود وكثيفاً تتخلله بعض الخيوط الفضية الملتصعة. وكانت كل هيئته تعطي انطباعاً مطمئناً بالذكاء والطيبة.

وأخرج من جيبه خرقة بيضاء، وراح ينشف بها فوهة نفيـره بعناية.
واستشرت إيف بنظرة من عيني، فغمز لي، وخرجت من الحوش، وتقدمنا على
الممر. ورفع الرجل المجهول رأسه ونظر إلينا، مندهشاً من هذا الظهور الذي لم
يكن ينتظره، ثم قال، بصوت مكتوم ولكنه مستساغ:

- طاب يومكم، أيها السادة! أمل ألا تكون معزوفاتي قد أزعجتكم فهل
حدث هذا؟

- أوه، لا ياسيد! قلت بأدب.

- لقد اندهشنا بعض الشيء في البداية، ثم استمتعنا بها بعد ذلك! أضاف
إيف.

- أما عن دهشتكم فليس يوسعي إلا أن أؤكدـها، فهو أمر بالفعل مذهش
سماع صوت نفيـر خيالة في هذه التلال، لأن هذا بوق خيالة.

وتفحص الآلة للحظة، ثم قال بنته، كما لو أنه قد اكتشف اكتشافاً:

- إنه مضبوط على مقام مي بيمول!

وأعاده إلى شفـتيه، وعزف نغمة واحدة طويلة.

- لقد أسمعـتكم الآن، قال، نغمة مي بيمول.

- من الواضح، قلت، أنك خدمت بالخيالة!

وفتح عينيه الزرقاوين مندهشاً.

- بل لا! إنني آسف لقولي هذا، لكنكم التيس الأمر عليكم.

وابتسم ابتسامة كبيرة، وغمز بعينه، وقال كما لو أنه يسر لنا:

- لا يوجد خيالة بالبحرية وأنا بحار! بحار، بالطبع في إجازة بما أنني أجـدف

في هذه اللحظة بهذه التلال، كما تلاحظون ... وأراكم مندهشين لذلك، ولكن: هناك أشياء كثيرة على الأرض وفي السماء، كما قال هوراشيو، الذي لم يلهم فلاسفتنا. إنني أتمنى ألا يغيب عنكم مغزى هذه الإشارة لهاملت، فأنا أرى أنه يبدو على مظهركم أنكم من شباب المدينة، ويحملني سنكم على الاعتقاد بأنكم تدرسون في سنوات قرية من البكالوريا. فهل أخطأت؟

- سوف نتقل للصف الثاني في شهر أكتوبر! قال إيف.

- أهتكم، قال المجهول، وأتمنى أن تهتوا أنفسكم. فالصف الثاني يعد سنة مرموقة، لأننا لانفعل بها شيئاً. وهي بالنسبة للكثيرين تعد سنة انتقالية، وبالنسبة للآخرين، تعد سنة إنجاز، تسمح برؤية عامة للشاطي، ويتعين تضاريسه وراح يأخذ سترته، التي وضعها على ذراعه، ثم وضع قبعة ذات الحافة الكبيرة.

- إذا لم يكن لديكم مانع فسوف أصبحكم، للمتعة، حتى فخاخكم.

ونظر إلينا لبرهة، كما لو ليستمتع بمفاجأتنا.

- بالطبع نعم، قال ضاحكاً، لقد رأيتم تنصيبونها بعد ظهر أمس، فقد كنت أتمد في ظل أكمة عرعر، أفكر في بعض معضلات القدر الإنساني، حين وصلتكم، وشهدت، بغير أن تروني، عملكم كصيادين مخالفين. وعليّ أن أعترف لكم أنني بعد رحيلكم ذهبت واختبرت نوعية التقنية التي تستخدمونها. وأنا أهتكم، لأن الفخاخ الثلاثة الأولى كانت موضوعة في الأماكن المناسبة، وبحسب قواعد فن الصيد. ولكنني أهت نفسي على أنني راقبت عملكم سراً، لأنني لم تعجبني طريقة تمويهكم على الفخ الرابع، وسمحت لنفسي بأن أضيف بضع أوراق ميتة، كانت - في رأيي على الأقل - لمسة نهائية لا بد منها للخدعة القاتلة ... وأتمنى ألا ترفضوا هذا التعاون الذي قمت به بشكل تلقائي ونزيه تماماً.

وشكرناه بحرارة شديدة، ثم مضينا معاً نحن الثلاثة إلى وادي بريكاتوري .
وبدا لي هذا الرجل الضخم مذهلاً ولطيفاً . كان يسير أمامنا، بغير أن يحدث
أدنى ضجة، لأنه كان -مثلنا- يرتدي خفين ليفيين. ومن وقت لآخر، كان
يستدير، ويتشم .

- كيف يحدث سألُه إيف، أن يجيء بحار ليتوه في هذه القرية ؟

- الواقع، قال، إنني لم أت هنا لكي أتوه، وإنما لأعثر على نفسي هنا!
وبما أنك استخدمت صيغة السؤال كيف يحدث ؟ فسوف أجيب عليك بكيف
حدث. كنت أقود، لعدة سنوات، واحدة من سفن الحرب الصغيرة التي تدعى
سفن الحراسة ، في المحيط الهندي. وقد كنت أطارد عدداً من القراصنة، الذين
لم يكن لديهم سلاح آخر سوى جرأهم التي لم تكن تدعمها فروسية العصور
الغابرة، وكنت أقرأ بيرلوتي تحت سيل منهم من الأسماك الطائرة. لكن كثافة
طيرانها لم تكن كافية لتظليل سطح مركبي، إلى أن طرحني أرضاً ذات يوم
شعاع شمس شديد فتبيست كشجرة ممددة متصلة. وهو الأمر الذي جعلني،
حتى بغير طلب، أحصل على إجازة طويلة، ووفق لي عليها لهذا السبب. وهز
رأسه، بابتسامة بدت لي حزينة.

- ولكن هل سترحل قريباً مرة ثانية ؟

- فوراً! قال بتصميم. فحقائبي جاهزة، ولست أنتظر إلا إشارة الأميرالية.
فأنا في راحة، في رأيي، من وقت طويل! ولكن عليّ أن أعترف -بالطبع فيما
بيننا- أن نتائج ضربة الشمس هذه طالت أكثر من المتوقع. ومن وقت لآخر
-وهذا بالطبع سؤال في الأرصاد الجوية -أو، بمزيد من الدقة، بالبقع
الشمسية- من وقت لآخر، أقول، لم أعد أشعر بها في طبعي. ولا تأخذوا كلمة
طبق هذه بمعناها الحرفي، ولا بالمعنى الذي يستخدمه البحارة عندما يطلقون
كلمة الطبق على الباخرة . فعندما بدا لي أنني بدأت أهذي، لجأت، بشكل

عقلاني جداً - وأرجوكم التحقق من ذلك - إلى علم الأطباء ... وقد وضعوني عندئذ رهن الإصلاح، في حوض للترميم، أو بكل وضوح، في بيت يدعى خطأ: مصحة، فأنت لا تقابل فيه سوى المرضى. ولقد قضيت به أربعة أشهر، وأريد أن أفسر هذا لكم.

وتوقف عن الكلام، بعد أن تلفت حوله، كما لو أنه خشي أن يسمعه أحد، ثم عاد للقول بصوت خفيض.

- ذات صباح، عند استيقاظي، وبتفحصي - كما أفعل كل يوم - لأفعالي وتصرفاتي في العشية، تحققت من أنني انحرفت باتجاه السفينة حوالي عشر درجات. وهذا أمر يمكن تقديره، فمهما يكن من أمر جنوح سفينة على هذا النحو إلى جانبها تظل أيضاً في حالة صلاحية للعوام في الطقس الحسن، مع ذلك لم أتردد، وأصدرت أمري: إلى الترميم! وهو السبب الذي جعلني لم أعد إلا الأسبوع الماضي، وأنا مستعد تماماً للإبحار. لكنني لم أتمكن هناك من عزف النغير، فهذه الآلة ليست تصلح للعزف بها في الحضر، لأن الأصدااء التي تصدر عنها هي التي تجلب المتعة. وهو ما جعلني، هذا الصباح، أحضر إلى هذا الوادي، قلقاً بعض الشيء، وعلى أن أعترف بهذا، فقد خشيت أن أكون فقدت، خلال هذه الشهور الأربعة، قوة ومرونة عضلات الشفتين، التي ينتج عن جفافها عدم قدرتي - ربما لوقت طويل عن عزف الأصوات المنفوخة. وبعد الاختبار الذي قمت به - أقولها بلا تواضع - يبدو لي أنني في أفضل أحوالي. وبالنسبة لكما، أنتما الاثنان (وفيما بيننا كأصدقاء) مارأيكم في ذلك؟

ولم أكن أبداً قد سمعت بكلمة الأصوات «المنفوخة»، لكنني أكدت له بحرارة أن هذه الأصوات كانت هي نفسها التي سحرتنا.

وأكد ليف على حكمي. مما حدا به، إلى أن يضع فجأة نغيره على فمه، ويولنا بوجهة من الألحان العسكرية، وبعد ذلك ببعض صيحات الصيد، التي قال

لنا أسماءها : الجمال، المتعبون ، الـ «دعه يجري» و «صبيحة الهجوم» .

ورحنا نشي عليه بما جعله يطفح بالسعادة ؛ ولم يعد بمقدوره التوقف عن الضحك احتيالا. أثناء ذلك ، ظل أثر فوهة الآلة مطبوعاً بشكل محفور على فمه - وكانت شفته العليا مزخرفة بنتوء أحمر في حجم الحمصة، بدا أنه يجعله قادراً - كالفيل في حديقة النباتات- علي رفع قرش من على بلاطة.

- هيا، قال بغته، هيا! لقد أضعت لكم وقتكم، إنه أمر لا يدعو لكثير من الإعتداد، أن يلح قبطان سفينة في طلب الثناء على طريقته في عزف النفير! هيا!

ومضى في خطوة سريعة موقعة باتجاه وادي بريكاتوري؛ وكنا نلحق به بمشقة، وقال لي إيف بصوت خفيض:

- إنه مختل قليلاً، لكن كل بحارة المستعمرات هكذا. يقول أي إن ذلك يسبب تأثير الويسكي!

ولم تمسك فخاخنا الأربعة إلا بأرنب واحد.

- إنه هو الفخ الذي وضعت عليه الأوراق الجافة الثلاثة! قال المجهول. أترون أهميه التفاصيل الصغيرة! لكم، أولاً، بما أنكم ستندوقون يخنة لذيذة، ولكن قبل كل شيء، لهذا القارض، الذي خدعته هذه الأوراق الجافة فاطمأن لها، وكلفت حياته! وبما أنني مسئول عن موته، وبما أنه سيقتهم - ساخناً، أياً ما كانت تلك السخونة مصطنعة - فإنه يبدو لي مناسباً أن أعزف على شرفه معزوفة (توزيع حصّة الكلاب).

لذا راح يعزف، وعينه مغمضتان، وفي مظهر متأثر، بينما أمسكت أنا بالأرنب من أذنيه.

وأعاد إيف نصب الفخ، ثم وضع صديقنا بنفسه الأوراق الجافة القتالة.

وقبل أن نأخذ طريق العودة، خبط بيده على جبهته فجأة، وقال:

- لقد تذكرت إني نسيت أن أقدم لكم نفسي! أنا أدعى سيلفان بيرار،
ورهن إشارتكم.

ولأنه بدا عليه أنه ينتظر أن نقدم أنفسنا بدرونا، فقد قدمنا أسماءنا وصفاتنا،
فأتبع ذلك، بأن خلع قبعته لتحتينا تحية كبيرة، وشد على أيادينا بطريقة حارة،
وبغير أن يكون مفهوماً لماذا، راح يهتئنا بحرارة على كوننا هكذا. ثم، وعلى
طول الطريق، راح يتحدث، مبتسماً هادئاً بسطوة كبيرة، وبغير أن يترك لنا فرصة
للكلام، فقد كان هو الذي يسأل وهو الذي يجيب.

- إنني أمارس هواياتي مرغماً، قال لنا، بسبب العمل العقلي، العمل الذي
له أهمية لاتغيب ربما عن أذهانكم.

وكان يتسم طول الوقت، كما لو أنه لم يكن يأخذ مأخذ الجد مايقوله لنا،

- لكم أن تعرفوا أولاً أنني انتهيت من إعادة ضبط هندسة إقليدس. فهذا
الإغريقي كان ذا عقل، لكن عمله شابه أنه خضع لأن يتضمن مسلمة! وحيث
أن التسليم، يقتضي ألا نبرهن، فهو يتوسل القارئ لكي يقبل بمبدأ بغير أن
يقوم على دعم هذا الطلب بأي منطق. ومع التسليم بأنه كان قوياً بعض
الشيء! حاولت أن أسد هذه الفجوة عبر برهنة صارمة على هذه المسلمة، برهنة
سوف أعرضها عليكم في يوم مقبل!

ولأننا هزنا رؤوسنا، وكانت أعيننا تلمتع بالدهشة والإعجاب، ابتسم ابتسامة
رضاء، وقال بصوت خفيض:

- هذا، بالطبع، يجب أن يظل سرّاً بيننا، على الأقل لحين نشر عملي،
الذي استشعرت الحاجة اليه منذ حوالي ألفين من السنين، والذي سيظهر قريباً،
بما أنه القسم الصغير الأول لنظريتي الكاملة، أما القسم الثاني فهو أيضاً برهنة،

على الإقتراح التالي لفرما: مجموع زوايا مربعين قد يساوي مجموع زوايا مربع واحد، ومجموع زوايا مكعبين لا يساوي أبداً مجموع زوايا مكعب واحد. هذا العمل جعلني أقضي وقتاً ممتعاً، وقد أسفت على انني تمكنت بسرعة من حل المسألة، التي بحث ألمع الرياضيين عبثاً عن حل لها لمدة مائتي وخمسين سنة.

واستعرض بعد ذلك القسم ج، ثم القسم د، وهلمجرا، حتى القسم ياء. وردد على أسماعنا أن نظريات باستير كانت سخيقة، وأن هذا العالم الكبير بتكذيبه للتوالد الذاتي، لم يكن له من هدف آخر إلا أن يثبت بهذا الشكل وجود الله؛ وراح يدين بقسوة عملية استئصال الزائدة الدودية، وأكد أنه إذا وافقت النساء الحوامل على السير على أربع، فسوف يلدن أطفالهن، بغير حتى أن يلحظن ذلك، وهذا يتطلب بالطبع اللحاق بهن بانتظام، لجمع المواليد الذين يسقطون على العشب، قبل تنبه الأم لما يحدث.

وعرج بعد ذلك على الفلك، ورفض القبول بعبقريه نيوتن، وأعلن:

— لو أن التفاحة كانت مكعبة الشكل، لما اكتشف هذا الإنجليزي شيئاً، وإني أجده أمراً مؤسفاً أن القانون الذي ينظم الكون يتم اكتشافه عبر شكل ثمرة الفاكهة.

وأكد بعد ذلك أن البواخر الحالية ليست سوى قاطرات، وأن عليها أن تسير على الماء بدلاً من أن تحك بطونها فيه؛ وبعد ذلك انتقد صناعة الألبان، وأطلعنا على أنه بصدد تنفيذ طريقة تصنيع للبن، تبدأ من العشب مباشرة دون المرور بالوسطاء الذين يخورون.

— هذه الخطوة، قال، والتي تبدو بسيطة في ظاهرها، تتطلب مع ذلك بعض العمليات المعقدة جداً. فالمبدأ الذي تقوم عليه هو التالي. أنا أسحق العشب، ثم أهضمه بواسطة سلسلة من حمامات السوائل الحمضية الخفيفة، في درجة حرارة ٣٧ مئوية. وبعد يومين من النقع، خمنوا ما الذي أستخرجه منه؟

- اللّبن! قلت.

- أبدا! لكن خطأك مغفور وأنا أهتثك ففي الواقع، أنا أستخرج منه ...
وراح ينظر لنا، كلا بدوره، نظرة منتصرة، ثم قال في صوت خفيض:

- الرّوث! وما الذي يظل في وعاء التقطير؟ إنه اللّبن! إنها مسألة سهلة
سهولة حكاية بيضة كولومب، ولكن كانت بحاجة للتفكير! ولأن تجاربي
مازالت طور الاختبار، فأنا أرجوكم ألا تتحدثوا مع أحد قبل الإحكام النهائي
للنظرية. إذن، لنصمت، لحين إشعار آخر.

وطمأناه على احتفاظنا بالسّر، وباركنا بحرارة. وصمت لعدة دقائق، متفكرا،
وهو يتسم من حين لآخر

كنا قد وصلنا إلى سفح هضبة (الأدرت)، وحمل النسيم إلينا بضغ أنغام
من صلاة تبشير بعيدة، فتوقف، يتصنّت، وأعلن عن إعجابه بالكنيسة
الكاثوليكية فهي، بحسب ما قال، أقوى تنظيم للدعاية شاهده في العالم، بما أن
لها وكالة في كل قرية، مقامة مجاناً في أجمل مبنى ومجهزة تحت سقفها
المقوسّ بالأجراس الرنّانة. لكي تدعو مستهلكي الميئافيزيقا الطامحين بالحياة
الأبدية.

وتصورت أنه يدين بهذا الشكل العقيدة المقدسة للعم جول، لكنني وجدتني
مخطئاً عندما أعلن أن هذه الدعاية الطنانة كانت لحسن الحظ في خدمة أجمل
الأفكار المصممة التي امتلكها الإنسان، وأن المسيحية كانت هي الأساس لكل
الحضارة، وأن البلهاء فقط هم من يتشككون في ألوهية إلّها المسيح. وعقب
هذا التأكيد الاحتفالي، توقف، وأشار لنا بالاقتراب منه، وأضاف، بصوت
خفيض:

- رغم ذلك، رغم ذلك، فقد قال قولاً أربكني حين قال: إنك الصخرة،

وعلى هذه الصخرة سأبني كنيسة. حسناً، لا، لا، لقد تأثرت بهذا اللعب بالكلمات. بالطبع، يمكننا أن نؤكد أن المخلص أراد أن يولي مقاليد القدر الإنساني لأتباعه، وأنه هبط بإرادته إلى مستوى التورية بالكلمات. ويمكننا أن نقول أيضاً أنه قال ذلك لكي يخاطب البسطاء الذين يعجبون باللعب بالكلام، وتبدلات الأحرف الأخيرة للألفاظ. وهذه الأسباب ليست سخيفة ... ولكنها مع ذلك، مع ذلك ... هنا تكمن مشكلتي الكبرى، حتى إنني لا أنام الليل بسببها أحياناً...

أثناء ذلك، كنا قد وصلنا الي مفترق طرق على إحدى القمم .

- هذا هو، قال، مكان وداعنا المؤقت، بما أنني أريد أن أراكم كثيراً، إذا كان ذلك الأمر يسعدكم. ولكنني قبل أن أترككم أرغب في أن أقدم لكم هدية من فكرة ثمينة خطرت على رأسي هذا الصباح، وأريد أن أعهد بها لذاكرتكم أتم، خوفاً من أن أنساها أنا، اسمعوا: إذا رأيتم ذات يوم سلكاً من الرصاص المعوج، ستقولون بالطبع إنه قد حدث شيء ما بمكان ما. فكروا في هذا.

ونظر إلينا برهة، بجدية، ويغير أن يتكلم، ثم تابع الحديث:

- اسمحوا لي الآن أن أطرح عليكم بعض الأسئلة، وربما أستودعكم سرّاً. وإذا لم يكن لديكم مانع، هيا بنا نجلس على هذه الأحجار الثلاثة، التي يبدو أن القدر أو العناية الإلهية قد أعدتها للقائنا.

وكانت هذه الأحجار تشكل نصف دائرة، تحت شجرة بلوط ذات سبع أو ثمانية جذوع. كانت شمس الصيف الكبيرة تهبط رويداً رويداً باتجاه البحر، وكانت شعاعاتها، الأفقية، تقريباً، تمر عبر الأفرع الواطئة للبلوط، وتذهب الوجه النبيل للسيد سيلفان. وكانت الجداجد، تصر معلنة عن اقتراب نهاية اليوم، وهي تلهث بإيقاع صريرها.

- أنظروا، أيها السادة، قال، هل يضجركم الحديث معي؟

واحتججت بشدة، وعلى نحو شديد الجدية:

- على العكس إنني من شغفي بالحديث لم أشعر حتى بطول الطريق!

- إنه من النادر، قال إيف بدوره، أن تتاح لنا الفرصة لسماع مثل هذا القدر من الأفكار الجديدة ... وقد قضينا بعد ظهر مفيد!

- ألم يصدمكم شيء مما قلت؟

- بالتأكيد لا! قلت، طبيعي أنني لم أفهم جيداً نظرياتك الرياضية، لكن كل الباقي كان مهما بالنسبة لي.

- هل كل ما قلته، في مجموعة، بدا لكم معقولاً، وحساساً ومنطقياً تماماً؟

وأجاب إيف:

- إن له منطق مبهراً!

- حسناً! قال السيد سيلفان. والتمعت عيناه ببريق الرضا.

- حسناً، كرر قوله وهو يفرك يديه. إنني أجد لزاماً عليّ أن أحدثكم عن الخفة العدوانية لبعض الأشخاص بالقرية؛ وأحدثهم لكم على سبيل التأكيد، كالبقال وخادمة القس، وساعي البريد، وعامل النافورة، ورئيس النادي إلخ فهؤلاء الأشخاص قد تخيلوا... (وابتسم ابتسامة مريرة) أن بإمكانهم أن يعاملوني كمجنون نعم، مجنون، بكل بساطة!

- هذا لأن أفكارك جديدة، قلت.

- بالطبع! صاح السيد سيلفان. وهؤلاء الناس ليسوا مؤهلين بالمرة لفهم الأقوال أو الأفعال عند تناقضها. ومن بين الوشائيات التي تناقلوها، أنهم راحوا

يرددون أن حوض الترميم الذي يستقبلني من وقت لآخر ليس إلا عنبراً للمعتوهين، كما يقول الإنجليز. بما يجعل الآباء، إذا ما حدثني طفل من أطفالهم، يهددونه بأنه سيحدث له ما لا تحمد عقباه. وإذا لقيتني امرأة في المساء بشارع من شوارع القرية، بهرع مسرعة للعودة على أعقابها، وتختفي ..

لاحظوا أنني مسؤول بعض الشيء عن هذه الأشياء، بما أنني لم أحاول أبداً أن أؤكد لهم أنني أتمتع بسلامة الحس المطلوبة، بل على العكس، أعترف، أنني قد حدثت مني، بسبب النزق، أن قمت أمامهم بأفعال غريبة، أو تلفظت بأقوال لا معنى لها، لأن هذه الفكرة السخيفة التي لديهم عن جنوني، كان يطيب لي أحياناً أن أؤكد لها، لأنها تبعدهم عني بمسافة كافية من الاحترام، بما يؤمن لي راحتي، وهدوئي.

ولكني معكم، وبما أنكم شبان مثقفون - ولن أظل أهتكم على ذلك كثيراً - حرصت على أن أقول لكم الحقيقة المجردة، وأؤكد لكم أنني لست مجنوناً!

- إنها فكرة غبية، قلت.

- بالضبط! صاح السيد. سيلفان. لكنه مهما كانت هذه الفكرة غبية، كما قلت بوضوح، فأنا حريص على أن أريكم مدى غباوتها.

- لا تحمل نفسك مشقة هذا الفعل، قال إيف. فقد ثبت لنا هذا!

- ليس بعداً! قال السيد سيلفان، المتألق، ليس بعد، ولكن سيحدث. سوف أحصي لكم هذا المساء. بعضاً من المنجزات وبعض وجهات النظر الفلسفية التي كان يمكن ألا أفهمها لو أن عقلي كان مجنوناً، وعليّ الآن أن أمسك بالأمور من طرفها الآخر، وأن أريكم كيف كان يمكن أن يتعدى على التوصل لشيء لو كنت مجنوناً حقاً. إنتظروني الآن دقيقتين، فأنا مضطر لعمل شيء، وابتعد

بخطوة سريعة وهو يضحك، واختفى وراء الطلل.

ونظر لي إيف، متفكراً، وقال:

- إنه عالم، وهو يجيد الحديث. لكنني أجده طريفاً بعض الشيء.

- بالطبع، قلت. ولكن تذكر أن كثيرين من الرجال العظماء تم اعتبارهم مجانين لأن الناس العاديين لم يفهموهم. ففلاحو القرية ليس بمقدورهم بالتأكيد فهم نصف ما قاله لنا، لذا فهم يتصورونه مجنوناً. أما أنا فأجده عظيماً - أنا أيضاً. هذا رجل يعاشر، لأن بمقدوره أن يعلمنا الكثير.

كنا قد استمعنا له بالفعل بغير شعور بأي إرهاق، بل باهتمام شديد. فالمرحلة تقبل طوعاً أكثر الأفكار شذوذاً، خاصة إذا كانت تتناقض مع الأفكار التي تدرس بالمدرسة.

- ربما لم يكن عبقرياً كبيراً، قلت، لكنه بالتأكيد شخص من نوع (بيك دي لاميراندول) أنا أرى ذلك...

لكن إيف قاطعني قائلاً بصوت خفيض:

- يا للعجب، ماذا ذهب ليفعل؟

وعاود السيد سيلفان الظهور من وراء الطلل، وتقدم نحونا متخذاً شكلاً غريباً. كان جذعه عارياً، وهو يطوق صدره السمين بقطعة سمينة من فراء النعجة. كان قد وضع في مكان القبعة علي رأسه دلواً قديماً متأكلاً من الصدا، له مقبض على شكل الحلقة. وقد أدخل حشفتي بلوط في فتحتي أنفه بما جعل أنفه تشبه حبة البطاطس، وكانت باقتنا سعتري تطلان من أذنيه، وقد علق طوقاً من اللبلاب على رقبته، وثني بنطلونه إلى ما فوق ركبتيه، مما جعلنا نرى على هذا النحو سماتي رجله المشعرتين. وبصوت مأساوي أغن، صاح بنا هكذا

يلبس المجنون، وهذا ما يفعل. واقترب منا ببطء، وهو يتهزز كخوريلا، فاحتأ
ذراعيه، ومدلياً راحتيه، وراح يغني فجأة، بصوت متقطع:

«بحشفتين في فتحتي أنفه

وبصوته التينور الجميل

إنه ضابط بحار مسكين

ضل في تحديد طريقه»

ثم صاح: إلى الغناء! وراح يغني من جديد، وهو يرقص رقصة عنيفة:

«وهوب هوب! يالأسى!

إنني أتحرك متثاقلاً، وأسير بلا هدف،

وهوب هوب! أين بوصلتي؟

فلم أعد أعرف الاتجاهي!»

وراح يدور فجأة كأنه إعصار، وهو يصيح هوب هوب بصوت له صرير. ثم
مضى، راقصاً قافزاً، على الطريق، باتجاه القرية. وتبادلنا النظر. مندهشين،
خائفين بعض الشيء. ولم يجد إيف ما يقوله إلا:

- يا للهول، يا عزيزي! ياللهول، يا عزيزي!

وأصابني الدهول، لكنني رغبت في نقاش الأمر.

- اسمع، يا إيف، لقد أعلمنا، لقد قال لنا إنه سيلعب دور المجنون، وبالتالي
فهو ليس مجنوناً! على كل حال، لو أنه ذهب هكذا إلى القرية، فلن نستطيع
تكذيبهم.

- أوافقك، ولكن بما أنه أعلمنا! فهذا وضع طريف، نعم، إنه يغالي في

التكنة قليلاً، لكن لا يمكن القول بأنه يجب القبض عليه كمجنون!
أثناء ذلك، وعلى البعد، راح السيد سيلفان يقفز قفزات عالية في الهواء
فارداً ذراعيه، مطلقاً صيحات «هويّا، هويّا!» التي راحت تمزق سلام ساعة
الغروب.

المصابون بالطاعون

إليك القصة التي حكّاها لنا السيد سيلفان، وهو جالس على حجر أحمر،
بمواجهة مقبرة المصابين بالطاعون.

- في ١٧٢٠، كما تعرفون، حاصر الطاعون مرسيليا. وبالطبع لم أشهده،
وأهنت نفسي على ذلك.

- ونحن نهتلك بدورنا، قلت أنا.

- ونهتئ أنفسنا أيضاً، قال إيف.

بعد وفاة لويس السادس عشر العظيم، صار أمير أورليان فيليب وصياً على
المملكة. وكانت هناك دساتير كثيرة بالبلاط. لكن فرنسا وبصفة خاصة مدينة
مرسيليا، كانت في كامل ثرائها. ويقول لنا المؤرخون إن كل مفوضيها كانوا
أغنياء جداً لدرجة أن نبلاء المدن المجاورة كانوا يتعجلون التحالف معها. وكانت
تجارتها الأساسية تجري مع بلاد المشرق، أي مع سوريا، وفلسطين، وجزيرة
قبرص، التي كانت كلها في آسيا، والتي كانت ترسل، عبر البحر المتوسط،
بالقطن، والصفوف، والجلود، والحرائر، وعدداً من البضائع الأخرى ... لذا
كانت مرسيليا غنية، فكل سكانها (باستثناء الكسالى والمحكوم عليهم بالأشغال

الشاقة المقيدين) يعيشون عيشة مرفهة. وكان بتلك المدينة السعيدة، حي صغير، أسعد من الأحياء الأخرى، وكان حقاً قطعة من الجنة. لم يكن الميناء القديم - لاسيدون الإغريقي - يزيد عن كونه فرجة صغيرة، شقها البحر المحيط بين سلسلتين صغيرتين من التلال، على حافة واد قليل العمق. وبعيداً عن الماء المالح، كان عمق هذا الوادي يعلو باتجاه القمم المحيطة بالمدينة. وعلى بعد ثمانمائة متر من لاسيدون، كانت توجد بجوار المنحدر، جهة اليمين، ريوه صارت تسمى فيما بعد تل دفيليير. كانت تكسوها بعض الأحراش من أسفلها، وكانت تلوح، بأعلى الحافة، جهة السماء، ضيعة ما يحيط بها حائط عال محاط هو الآخر بأوراق الدلب المهدبة وكانت توجد بهذه الضيعة ساحة صغيرة مستطيلة، محاطة من ثلاث جهات بالبيوت، التي كانت أدوارها السفلى مشغولة بالمحلات.

وبمنتصف هذه الساحة، وفوق عمود مغطى بالرغو وضعت سمكة كبيرة من الحجر تخرج رأسها من صخرة وتصب ليلاً ونهاراً، ماء شفافاً، يسقط بوفرة في صدفة من الصلصال. وكان يتفرع عنها شارع - كان في مجموعه طريقاً، يمر إلى يمين ميدان القديس ميشيل، ويعبر الساحة إلى آخر الواجهة، وينفذ شمالاً، ليهبط حتى شارع مادلين كانت هذه المنازل يسكنها البورجوازيون الأغنياء جداً، بسبب نقاء جوها، وجمال المنظر الطبيعي العريض الذي يطل عليه الساكن عند فتح النوافذ. كما كانت وراء المنازل حدائق كبيرة تسيجها حوائط حجرية ترتفع لثلاثة أمتار على الأقل، تضم هذه الحدائق اسطبلات كبيرة، وتؤوي أعداداً من الأحصنة.

وكان من الطبيعي، أن يكون سكان هذا الحي الصغير المستدق نوعاً من المجتمع، ومهما أحاطتهم المدينة من كل النواحي كانوا هم يعيشون على طريقتهم، التي تشبه بعض شيء حياة سكان القرى.

كانوا لا يتبعون الحكم المحلي لمدينة مرسيليا، ولم يكن لهم أي نظام خاص. ومع ذلك كان يتحكم فيهم الأستاذ بانكراس، وكان شخصية غامضة جداً، فلم يكن أحد يعرف من أين أتى لكنه كان طبيباً مرموقاً جداً، يذهب كل يوم إلى المدينة ليعالج أمراض البورجوازيين الكبار، كما كان يعالج كبير الأساقفة، وكان يبلغ من العمر ستين عاماً؛ وكان مازال بعد وسيماً، برغم تجاعيده وشعره الأبيض، وعلى الرغم من قصره، كان يبدو عملاقاً ذا لحية شديدة البياض مقصوفة ومديبة، ومحل عنايته الدائمة، ولأن يده كانت جميلة كان يزينها بخاتم أنيق ويرصع خاتمته بماسة، ماسة تلتصق بالزرقعة، كدليل لا يدحض على الثراء الشديد، الحاضر أو الماضي. وكان بالقطع غنياً جداً، أو على الأقل كان يبدو كذلك. وكان بيته في منتصف الواجهة نفسها للميدان، وهو أكبر المنازل، وبرغم أنه كان يعيش وحيداً، مع اثنين من الخدم، هما: السيدة التي تدعى ألييت، وكانت - كما يقال - عالمة بالمطبخ، والعجوز جويو، الذي كان فكه خالياً من الأسنان تحت شارب أشيب، ويبلغ من العمر حوالي خمسين سنة.

كان المرموقون الآخرون بالحي هم الأستاذ باساكاي، الجاني، ذو الأنف الطويلة التي ترتجف بين عارضين أسودين (سواد المشيب، الذي كان يدعوه لتمشيطهما بمشط) من الرصاص، وجاران الشاب، الذي كان في الخمسين؛ ولكنه يدعى هكذا، نظراً لأن أباه على مدى عمره كان يداعبه بهذه الصفة. وكان طويلاً جداً، وذا خدين محفورين بتجاعيدتين أفقيتين، وشارب خفيف تحت أنف غاطس، لكن عينيه كانتا ثاقبتين، وكانت أسنانه ناصعة. كما كان يوجد أيضاً السيد كومبرانو، صانع الجوخ، الذي صار غنياً جداً، لأنه كان يمون جيوش الملك.

كان رجلاً طويلاً جداً، يضني عنقوان نضجه العمري لحيته الذهبية، وكان فظاً، قليل الكلام، وذا صوت قوي مبوح دائماً ما كان يعارض محدثيه. ولم يكن يحبه أحد إلا في النادر، لأنه لم يكن يعطي اهتماماً للصدافة. ولكنه كان

رجلاً قانعاً وفاضلاً يذهب لسماع القداس الأول كل صباح، تتبعه امرأته، وأولاده الثلاثة وبناته الخمس.

وفي البيت الذي كان يحتل زاوية الميدان، على طرف الحاجز، والذي يشرف على الخلاء، كان يعيش القبطان. وكان يدعى ماريوس فيران، والذي عبر المحيط ثلاثين مرة لبيع الزنوج في أمريكا. ولأن أصحاب السفينة الذين كان يعمل معهم كانوا يتركون له نصيباً في الفوائد - وكان هو الذي يقوم بالحاسبة - جمع من رحلاته قدراً من المال ليس بمقدور رجل أمين أن يكسبه. وكان سخيّاً مع بنات الهوى اللاتي كان يقتادهن أحياناً إلى مسكنه (بعد حلول الليل) وكان ينثر أحياناً، على الساحة، حفنة من العملات، ليمتع نفسه برؤية الأطفال يتعاركون... وكان قد فقد، بسبب مرض حمله من أفريقيا، كل شعر رأسه، ولكن كانت تزخرف عري رأسه ندبة طويلة متعرجة تعطي له مظهراً حربياً.

إلى جانب هؤلاء المذكورين، كان يوجد بضع تجار صغار، مثل رومولد الجزار، الأحمر، كما يجب أن يكون الجزار، والذي هو شبه غبي عندما لا تكون في يده السكين؛ وأرسان، بائع الخردوات بالمفرق، الذي كان قصيراً جداً، وفيليسيان، الخباز الذي كانت فطائره المنفوخة المزينة باللوز المحمص يذيع صيتها حتى الميناء القديم. وعلى الرغم من أعمارهم التسعة والثلاثين، كان مازال يغوي النساء، لأنه كان أبيض البشرة جداً - ربما بسبب عمله في الدقيق - وكان صدره مكسواً شعراً ذهبياً. كما كان هناك أيضاً بامبيت، السماك؛ وريار النجار الأعرج؛ وكاليكست، الذي كان يعمل في ترسانة السفن الشراعية الحربية، وبعض الآخرين الذين سيأتي ذكرهم فيما بعد.

ومن الطبيعي، أنه كان بالحي نساء، وأطفال، وعواجيز؛ كانوا جميعهم وهم أكثر من مائة شخص، يعيشون في سلام، بما أنه ليس من الضروري هنا

الإشارة إلى حالات سكر القبطان ولا للخناقات المنزلية التي كانت فضلاً عن ذلك أقل كثرة مما يحدث اليوم .

مع ذلك، ففي الخلاء، الذي كان يحيط بكل المدينة، كان المذكورون يجلسون. ليتحدثوا في السياسة أو التجارة أو الإبحار. ومن وقت لآخر كان المغلوبون في لعبة البولينغ، الذين لم يعد لهم مكان في اللعب، يأتون ليستمعوا لهم، جالسين على الأرض في نصف دائرة، كالمتفرجين على المسرح القديم، فيما كانت النساء تملأن جرارهن من النافورة، على أصوات كرات البولينغ المتصادمة.

كانت لدى الأستاذ بانكراس إجابات دائماً على كل شيء، وهي إجابات طريفة ولكنها مع ذلك معقولة، في كل الموضوعات، فكنيت ترى من خلالها أن ذلك الرجل كان يعرف العالم جيداً، وربما يعرف باريس أيضاً.

ذات مساء - وكان ذلك في مطلع شهر يونيو، عام ١٧٢٠، عند طرح أشجار الدلب لأوراقها التي كان حجمها يتوقف دائماً على قوة الشمس، بما ثبت أن الله صديق للاعبين البولينغ رأى القبطان الدكتور عائداً من القرية، في العربة الصغيرة التي يقودها جويو، فتوجه نحوه، وعرض عليه أن يأتي ليتذوق معه بالخلاء زجاجة من نبيذ العنب المسكي كان على وشك أن يشربها وحده.

- بكل سرور، قال الأستاذ بانكراس. بكل سرور، فأنا بحاجة شديدة لأبعد عن خاطري بعض الأفكار غير المبهجة التي أقلقني.

- الواقع، قال القبطان، إن السياسة ليست بذات أهمية، وكل ما يقولونه حول الوصي على العرش وحول الحرب المحتملة، أمور أسخر منها ولا أوليها اهتماماً، لأنه إذا كان ...

- إن الأمر لا يتعلق بالإنجليز، ولا بالسياسة، قال الأستاذ بانكراس.

- هل لديك شواغل شخصية ؟ .

- شخصية وعامة، قال الأستاذ بانكراس.

ورفع كأسه، ونظر إليه باستشفاف، ثم شربه جرعة واحدة.

أثناء ذلك، تجتمع آخرون، ممن رأوا الزجاجة وتقدموا، بكتوسهم في أيديهم. فانفجر القبطان ضاحكاً، وجرى ليحضر زجاجة أخرى، بينما كان القادمون يحيون الدكتور.

- يا أصدقائي، قال عندما عاد وهو يولج فتاحة السدادات، إن علينا أن نشرب ثلاثة أقذاح متتالية في صحة الأستاذ بانكراس، لأن صديقنا لديه وسوس تشغله.

- وما هي ؟ سأل الجابي.

- إنها بالأحرى وسوس بعض القلق، قال الطبيب، أو ربما الوهم. أمل ذلك على الأقل.

وشرب كأساً أخرى من النبيذ أثناء ما كان القبطان يملأ الأقذاح ثم، عندما رأى أن الجميع ينتظرون منه أن يتحدث. تابع القول:

- يا أصدقائي، لقد قضيت نهاري بعيادات الميناء، بصحبة السيد كروازيه، رئيس الجراحين بمستشفى الشراعيات، والسيد بوزون، وهو جراح آخر مؤهل، قام بعدة رحلات للمشرق، ويعرف جيداً أمراض هذه البلدان، الشديدة الوبائية. كان قضاة البلدية قد دعونا لكي نفحص جثث الحمالين الثلاثة للعيادات خشية أن يكونوا قد ماتوا بالطاعون.

وعند هذه الكلمات، راح الجميع يتبادلون النظر، وبدا قلق شديد على الوجوه.

- ثم ماذا؟ سأل الأستاذ باسكاكي.
- حسناً، كان زملائي قاطعين في حكمهم! بأنه ليس طاعوناً، وقالوا ذلك بوضوح في تقريرهم للسادة قضاة البلدية.
- ولكن أنت، كيف ترى الأمر؟ سأل القبطان.
- وتردد الأستاذ بانكراس، ثم قال.
- أنا أمتنع عن الاستنتاج. بالقطع، أنا لا أؤكد أن هؤلاء التعمساء ماتوا بالطاعون لكنني رأيت بعض الخراييع في أجسادهم جعلتني أتشكك.
- ولاحظ أن أصدقاءه يتعدون بعض الشيء عنه، كأنهم خائفون.
- اطمئنوا، قال لهم. فعند فحص هذه الثنانات، خلعنا جميع ملابسنا، وارتدينا قمصاناً مبيلة بالخل القوي الذي مازال جلدي يحترقني بسببه. كذلك فقبل رحيلنا، تعمقنا تعقيماً طبياً. فضلاً عن أنني ربما أكون مخطئاً بقلقي هذا، فبعد أن شربت هذين القدحين من النبيذ، بدا لي أن زميلي كانا على حق.
- إن هناك أمراضاً كثيرة تأتينا عبر البواخر! قال القبطان. أنا أعرف مائة نوع من الحمى. وهي دائماً نفس الشيء. حرارة شديدة في الجلد، وبعض البقع الحمراء، والبقع السوداء، والتقيحات، والقيء، ولا نفهم شيئاً... وعندما يموت الكثيرون، يقولون إن ذلك هو الطاعون، لكي يموت من يظل حياً بفعل الخوف.
- خاصة في مرسيليا! قال المثقف، الذي كان قد وصل. وكان يدعى نوربرت لاكاساني، وكان في الثلاثين، ويعتقد أنه كان من الشمال لأنه كان من فالنسيا. كان يعلم الصولفيج، والتنغيم، والتتابع الموسيقي، وتطابق الألحان، ولم يكن المرسيليون مولعين بالموسيقى، وهو السبب الذي كان يجعل من

المثقف صاحب أفخاذ هزيلة. لكنه كان ذا قلب كبير، وكانت عيناه تلتمعان التماعه جميلة.

- ما الذي لديك لتقوله أيضاً عن مرسيليا؟ قال جاران الشاب.

- ما أريد قوله، قال المثقف، إني جئت هنا من خمس سنوات، ومنذ خمس سنوات كنت أسمع على الأقل ثلاث مرات أسبوعياً أن الطاعون انتشر بالعيادات.

- هذا صحيح تماماً، قال الأستاذ باسكاي. ولكن لابد من القول إننا لدينا أسباب قوية للخشية منه!

- إن المؤرخين، قال الأستاذ بانكراس، قد ذكروا تسع عشرة حالة وباء بالطاعون في هذه المدينة. ثلاث منها أو أربع استمرت فترات قصيرة. لكن كل مرة من الأخريات اكتسحت المدينة لأكثر من عام، وتركها شبه صحراء ...

- لم يتبق إلا ذكرى عائلات، قال الجايي ... فلدي مازال في دفاتري عدد كبير من الوصايا التي ذهبت أدراج الرياح، لأن الورقة جميعهم ماتوا في نفس الوقت الذي مات فيه الموصي.

- بالنسبة لي، قال جاران الشاب، كان يمكن أن تختفي عائلتي عن بكرة أبيها عام ١٦٤٩، ولحسن الحظ، بقي واحد من أجدادي، كان صانع سلاح في فيلق من فيالق الملك، لأنه كان بالألوزاس عند وقوع الوباء. لقد مات أحد عشر شخصاً من عائلتي، بسبب العدوى، واستمرت العائلة بعد ذلك بسبب الأصل الوحيد الذي تبقى متمثلاً في هذا الجندي الذي كان بالمنفى.

- أنا أفهم، قال المثقف، أن هذه الذكريات مخيفة بعض الشيء. ولكن مع ذلك، نحن لم نعد بعد في حقب الجهل، ولم تعد المراكب تدخل الميناء كما في الماضي بحرية ... فهنا كشف دوري، وشهادات صحيحة صريحة، وحجر

صحي.

- إنه بديهي، قال الأستاذ بانكراس، أننا محصنون أكثر من الماضي، وأن علمنا أحدث تقدماً هائلاً ... ويبدو لي أنه من المتيقن أنه في حالة الوباء ... في هذه اللحظة علا الصوت المبحوح القوي لتاجر الجوخ، الذي كان قد وصل.

- في حالة الوباء، قال، من المؤكد تماماً أن إرادة الله ستفقد، كما حدث دائماً، ولن تغير كل محاولات علاجكم شيئاً ... فما يهم، هو أن تكون مستعداً للقاء ربك، كما أفعل أنا، بما أنني جئت توا من الاعتراف.

وابتسم ابتسامة عريضة راضية. ثم أضاف:

- هل صحيح أنه لدى البعض أسباب للخشية من الـ ... مرض؟

- هناك بعض الشكوك فقط، قال الأستاذ بانكراس.

- إن الله يختبر المؤمنين! قال في احتفالية الأستاذ كومبارنو.

ثم استدار على كعبيه ذاهباً باتجاه بيته.

- الواقع، قال المثقف، أن لدينا رجلاً سعيداً لكونه مؤمناً إيماناً تاماً وهو لن يتسم ربما بهذا القدر عندما يجيء دوره ليموت!

- هيا، قال الأستاذ بانكراس، إنني أشعر بالنشاط التام، وأنصحكم إلى أن يحدث غير ذلك، ألا تفكروا في الأمر، طالما أن قلقنا لا يغير شيئاً ... إلعبوا إذن مباراتكم في البولنغ؟ وأنا سأذهب لأغرق في كتيبي، أيّ ما كان الموضوع ...

ومضت عدة أيام، إن لم تكن بلا موجة قلق، فعلى الأقل بلا كرب. فقد نسي المرسلون بسرعة شديدة الهواجس الخفيفة. وقد تسلفت إلى الساحة من المدينة مع ذلك بعض الشائعات، كانت تقول بأن جراح العيادات - وهو واحد

من اللذين كذباً الخطر - قد مات بالطاعون، مع أسرته كلها، ولكن لأن هذا الكلام انتقل من فم لأذن بين أناس لم يروا بأنفسهم، لم يصدق أحد هذه الحكاية تصديقاً تاماً على حين أنه في كل مساء، عند عودة الأستاذ بانكراس، كان الطبيب يجيب على أسئلة الذين يهرعون لمعرفة الأنباء:

- لاشيء مؤكد حتى الآن. حافظوا على هدوئكم، فإذا ما أعلن عن الوباء، سأكون أول من يندركم.

ولكنه كان يبدو دائماً مهموماً، وكف الرجال عن لعب البولنغ .

كان ذلك بعد ظهر العاشر من يوليو، عندما عاد الأستاذ بانكراس مبكراً، مسرعاً بحصانه الصغير وكان القبطان وحيداً، على الحاجز، يدخن متفكراً غليونه القصير.

- أيها القبطان، قال الأستاذ بانكراس، اجمع كل الرجال إلى بيتي، بأقصى سرعة ممكنة، عندي نأ خطير سأقوله لهم. وحاذر أن تتكلم معهم أمام النساء أو الأطفال ثم دخل إلى بيته على عجل .

بعد ساعة من هذا، كان الرجال مجتمعين في غرفة استقبال الطبيب، وكانوا مطرقين متفكرين، فقد عرفوا أي نأ سيتلقونه، وقد تيقنوا منه أكثر حين قالت لهم الخادمة:

- الأستاذ بانكراس يستحم الآن بالماء والخل، وقد أمرني بأن أحرق كل ملابسه.

- كلها؟ سأل الجاني.

- كل ما كان يرتديه، قالت العجوز ألييت. أجل، قميصه ذا الرباط، وصدرته الدانتل، وسراويله الداخلية من الصوف القبرصي، وردنجه الأزرق الجميل وتعليه المضفورين بالحرير ... كل هذه أيها السادة الطيبون، صارت الآن

رمادا في قرن المطبخ!

كانت ضخامة هذه التضحية تؤكد فداحة الخطر، وحل الصمت الثقيل ...
وانفتح الباب أخيراً بلا ضجة، وظهر الأستاذ بانكراس . كان يرتدي يشكير
حمام طويلاً. أضفى عليه مظهر عضو برلمان روماني فنهض الجالسون، وراح هو
يستند إلى المدفأة.

- أيها الأصدقاء، قال، أنا أطلب أولاً منكم أن تتمالكوا أنفسكم، فأنتم
رجال، وأعتقد أنكم قادرون على تحمل صدمة نبأ خطير. إن واجبي والمصلحة
يحثان علي أن أذكركم فقد صار مؤكداً أن المرض الذي يتحدث عنه الجميع،
هو الطاعون.

- هذه إذن إرادة الله، قال تاجر الجوخ في خشوع. وظل الآخرون برهة
صامتين كالأحجار. ثم سأل الجاني، في صوت بدا خافتاً.

- هل رأيت المصابين بالطاعون؟

- لقد تم الاعتراف الآن، قال الأستاذ بانكراس، بأن الحمّالين اللذين
تفحصتهما ذلك اليوم قد ماتا بالطاعون، لأن الثالث، الذي كان يعمل معهما،
مات بدوره ... وقد حضر طبيبان كبيران من مونبلييه على عجل لأخذ العينات،
ولم تتشكل نتائجهما أي شك في طبيعة المرض.

من ناحية أخرى، فالشائعة التي ثارت حول موت الجراح وكل أسرته،
أكدتها لي السادة قضاة البلدية، الذين كانوا قد احتفظوا بهذا النبأ الخطير طي
الكتمان. ويمكننا أن نخمن أن هؤلاء المساكين قد ماتوا، هم أيضاً، بالعدوى
التي التقطها الجراح الذي عالجه.

عندئذ قال المثقف نوربرت، الذي كان قد وصل من المدينة:

- يا أستاذ، أعتقد أن بمقدوري أن أطمئنك، لأنني عائد من لقاء مع واحد

من أصدقائي، هو مساعد طبيب المستشفى، وقد أعلن لي أن العدوى هي في واقع الأمر بالعيادات، وأنها حادث يحدث كثيراً بهذه الأماكن وأن العيادات تعد أماكن مجهزة لمواجهة الطاعون، وأنه من المؤكد جداً أنها لن تخرج خارج العيادات.

- بل مؤكد جداً قال الأستاذ بانكراس، أن العدوى تنتشر هذه المرة خارج العيادات وفتح جاران الشاب عينيه على اتساعهما ثم فغر فاه، ولكنه لم يستطع الكلام.

- الطاعون! صاح القبطان.

- نعم الطاعون، قال المثقف.

- وأين انتشر؟ سأل الأستاذ باسكاي، الذي حافظ على هدوء أعصابه.

- في مكانين أو ثلاثة، قال الطبيب. فبميدان لينش، مات بحار يدعى إيصالين به منذ أكثر من أسبوع. وبنفس اليوم مات حائك يدعى كريس مع كل أسرته بميدان القصر. وأخيراً، هذا الصباح، رأيت امرأة تدعى مارجريت دوتان تموت على نحو مستفحل، ولكنني أعرفكم أن المدينة كلها في خطر.

وراح الأستاذ بانكراس، في الصمت المطبق، يجلس على مقعده، ويشرب بضع جرعات من صحن الحساء الذي جاءت له به العجوز آلييت.

- إن أهل المدينة في خطر، قال تاجر الجوخ أخيراً، بسبب أخطائهم وجرائمهم، التي لا تحصى، والتي استمرت منذ وقت طويل. لقد صبر الله حتى الآن عليهم ولكن يبدو لي أن غضبه قد بدأ، وأنه لن يتوقف قريباً.

- إن أستاذنا الطيب بانكراس، قال المثقف، ربما يعرض علينا الأشياء من جانبها القاتم.

- إني أرى الأمور قاتمة، قال الأستاذ بانكراس، لأن الموت الذي شاهدته كان قاتماً تماماً.

- لو أنه كان الطاعون الأسود، قال القبطان، فلا بد وأن تصاب به كل المدينة. لأنه يكفي فقط أن تنظر إلى مصاب بالطاعون، فشعاع النظر كاف لنقل المرض.

- ليس الأمر هكذا، قال الأستاذ بانكراس. لكنه من المؤكد أن الأفكار الثاقبة التي تدعو للمرض ستنتشره بسرعة عجيبة على أنسام الرياح.

- ولكن الآن، سأل الأستاذ باساكاي، ما الذي يتوجب علينا فعله؟

- بالنسبة للحظة الحاضرة، فالخطر ليس داهماً. فنحن نتمتع هنا بجو رائع، لأننا في أعلى مكان بالمدينة وهو الذي تطهره كثيراً ريح الشمال. لكن علينا اتخاذ بعض الاحتياطات. على سبيل المثال علينا ألا ندع الأطفال يخرجون من الحديقة التي تجاور التل، حتى لا يتمكن أي غريب من أن ينقل لهم عدوى. وعلينا نحن أنفسنا، وكذلك على نساءنا، ألا ننزل إلى المدينة، إلا في حالة الضرورة، وألا نذهب على الإطلاق للأحياء المحيطة بالميناء.

وعن التموين والغذاء، أنا أنصح بالإتيان به من جهة التلال، وأبعد مكان ممكن، لأن العدوى تنتقل أيضاً بالمواد الغذائية. وأخيراً فكل من ستحتم عليهم ظروفهم مغادرة ساحتنا للذهاب إلى أعمالهم عليهم عند عودتهم الاستحمام بالماء والنخل، والاعتسال بالصابون من أعلى رؤوسهم حتى أخمص قدميهم بعناية شديدة. هذه هي الاحتياطات الإجبارية، ولكنها تكفي لحمايتنا، على الأقل هذه الأيام، أما إذا استفحل الموقف، فسراجع كل شيء في وقته.

صباح اليوم التالي، جمع الأستاذ بانكراس بمنزله الجزار والخباز، والبقال. وأعطى كلاً منهم قطع ذهبية وقال لهم:

- يا أصدقائي، لا بد من التفكير في المستقبل. سوف تمتطون جيادكم، وتذهبون في رحلة إلى قرى الشمال، التي لا بد وأنها مازالت بعد لم تنلها العدوي. أنت يارومولد، قال للجزار، عليك أن تحضر لنا بضع خراف حية، وخمسة أوستة خنازير مملحة. وأنت أيها الخباز عليك أن تأتينا بقدر من أكياس الدقيق الجيد التي يستطيع كرمك أن يأتي بها. وأنت قال أخيراً للبقال (الذي كان يدعى بنيون، ولكن البعض كانوا يدعونه بامبيت)، أحضر لنا البقول الجافة، كالحمص والعدس، ولكن أحضر لنا قبل كل شيء ستة براميل، لا من الخمر، إنما من الخل، ومن أقوى صنف تجده.

- لدي الآن أربعة براميل موضوعة بمخزني، قال بامبيت، وأعتقد ...

- أعتقد، قاطعة الأستاذ بانكراس، أنه لو لم يتوقف الوباء، سنندم على أننا لم نأت منه بما يكفي ... ومن ناحية أخرى، أحضر لي بضع حزم من السذاب والنعناع، وإكليل الجبل واليابسنت، وسوف ننقعها بالخل، لنحصل على شراب يدعى خل اللصوص الأربعة، كان له تأثير عجيب أثناء وباء الطاعون الذي حل بطولون، منذ ستين عاماً. وهو ليس دهاناً للمرض، ولكن هذا الغسول واق ناجع لأنه يقضي على الحشرات غير المرئية التي تنشر العدوى. والآن، اذهبوا، يا أصدقائي ولكن لا ترحلوا معاً، حتى لا تثيروا الانتباه - وأهم شيء، هو أن تهتموا بتغطية عرباتكم بغطاء يداري حمولاتها ... ورحلت العربات الثلاث في التو، ولم تعد إلا مع انقضاء اليوم. وقد قام الرجال الثلاثة بمهمتهم. فقد ذهب الأول إلى جهة الألاوش، حيث توجد طاحونة القمح، والآخر توجه إلى سيميان، والثالث إلى أوبان.

وقد أعلنوا أنهم لاحظوا هدوءاً على طول طرقهم، وأن الفلاحين الذين مؤنّوهم لم يطرحوا عليهم أية أسئلة. ولكن في نفس هذه اللحظة، أعلن الأستاذ جاران الشاب (الذي كان قد ذهب لشراء البودرة) وهو واقف على بعد (لأنه

لم يكن قد استحم بعد بالخل والماء) أنه رأى الشوارع خالية تقريباً، وأن عدداً كبيراً من المحلات قد أقفلت أبوابها، وأنه التقى ببعض الأشخاص الذين يسرون مرتدين أردية تغطيهم من أعلى رؤوسهم لأخمص أقدامهم مبللة بالخل ... وكان يمكنه أن يستمر في الحديث طويلاً لو أن الطبيب لم يتعجل الذهاب لقضاء حاجة.

وكافأ تقرير المومنين بشكل ما تقرير جاران الشاب، ولم يتخذ المجتمعون بالساحة أية احتياطات أخرى، وذهب الجميع للنوم كما تعودوا، فيما عدا الأستاذ بانكراس الذي راح يذهب ويجيء بغرفته حتى الفجر.

صباح اليوم التالي، حوالي الساعة الثامنة، وعندما خلا كل واحد إلى مشغوليته سمع فجأة صوت الأجراس بكنيسة بالوا، ثم بكنيسة سان شارل، ثم بكنيسة أكول. ولم يندعش أحد، فقد كان معروفاً تماماً أنه كانت تشيع كل يوم عشر جنازات. لكن النسيم حمل أيضاً أصوات أجراس كنيسة فارو، ثم أجراس كنيسة أندوم، ورن القطالونيون أجراس كنيستهم بدروهم.

ونخرج الأستاذ بانكراس من بيته، وراح يتنصت. كان جالساً على حافة الحاجز، وكان المثقف والقبطان يتنصتان أيضاً، حين علت أجراس كنيسة الجولييت بهذا النواح، ثم سمعت أجراس كنيسة الإستاك، ثم كنيسة سان - هنري، ثم كنيسة الروف البعيدة التي حملت النسائم بعض رناتها ضمن هذا الحفل الحزين.

- أنا لا أحب هذه الموسيقى، قال الأستاذ بانكراس .

- من المؤكد أن ثلاثية السيد لولي الراقصة أرق على الآذان، وأن لها وقعاً ألطف على النفس... ولكن لماذا يحدوني الاعتقاد للآن بأن هذا ليس طاعوناً، لقد قال لي صديقي المساعد بالمستشفى إننا في فصل الحميات الخبيثة، وإن مستنقعات الهوفون تشر في هذه الآونة سماً نافذاً هو السبب في هذه العدوى.

كما توجد في نفس الوقت، عودة انتشار للزهري بسبب هذين الفيلقين العسكريين الآتين من طولون، كما أن صديقي المساعد ...

- صديقك المساعد، قال بغتة الأستاذ بانكراس، ليس إلامصرانا محشوا، لأنه يعتقد أنه عالم مجرد أنه يعطي الحقن الشرجية. قلت لك إن الطاعون طليق بالمدينة وإن نصف هؤلاء الناس على الأقل سيهلكون.

- أنا لا أتشكك في علمك، قال المثقف بتواضع، ولكني آمل أن تكون مخطئاً للمرة الأولى في حياتك ... وعلى كل حال، بما أنني عليّ الذهاب للمدينة للحصول على ثمن دروس هذا الشهر، سأتي لك بالأبناء الطازجة قبل الظهر.

- أضرع إلى الله، قال الأستاذ بانكراس، ألا تأتي لنا معك شيء آخر.

ونهض المثقف، وبغير حتى أن يتمكن من الابتسام، قدم التحية في أدب، ومشى بخطوات سريعة. ونظر له القبطان وهو يتعد بنوع من القلق، لم نهض، ووضع يده على فمه في وضع النداء :

- يا نوربرت !

وتوقف المثقف برهة، ثم استدار عائداً .

- إذا أصابك الطاعون، صاح القبطان، لا تعد لتموت هنا !

ورفع المثقف ذراعيه مقوسين لأعلى رأسه، وقفز قفزة خفيفة تشبه قفزة راقص الباليه، ونزل في الوضع راكعاً، وبأطراف أصابعه بعث قبلة باتجاه الساحة. ثم وضع قبضتيه على فخذيته ونزل المنحدر راقصاً.

وقضى الأستاذ بانكراس يومه بمكتبه، يراجع كتب الطب والتاريخ التي لديه. وحوالي الظهر، راحت العجوز آلييت، تفرش غطاءً على الطاولة الصغيرة،

أمام النافذة بغير أن نفوه بكلمة، ثم قدمت في الثو، على طبق كبير من الفضة،
سمكه قاروس كبيرة مشوية وضعت على مهد من الينسون. وأثناء سيرها أمام
سيدها، غمغمت بصوت خفيض:

— متبرد ...

ورد الأستاذ بانكراس الغارق بأنفه في كتاب ضخم، بصوت مكتوم ولكن
بلا حشجة:

— لتبرد ... ولكن لاتقولي شيئاً آخر.

كانت الأجراس تدق باستمرار من على البعد، وراح الأستاذ بانكراس يقرأ:
«خذ غصنا من السذاب من شواشي النبات، وفص ثوم، وربع جوزة، وفص ملح
في حجم الحمصة . وابلعهم معا كل صباح. وسوف تأمن وتقي نفسك من
الطاعون».

وهز كتفيه، وقلب الصفحة، فوقع على وصفة مرهم الطبيب الألماني
ايستمباخ . الذي كانت وصفته معقدة جداً، وبدت له مهمة، لكن مؤلف
الكتاب أضاف ملحوظة تقول: «إنه تمت تجربة هذا المرهم على أربعة عشر
شخصاً ماتوا في الثو، وهو ماجعلنا لا نرغب ثانية في أن نعرض مرضى آخرين
على هذا الطبيب.

ومع ذلك، فقد استمر يواصل قراءته طيلة اليوم، واضعاً صدغيه على
قبضتيه، بغير أن ينظر إلى السمكة البديعة التي تنتظره على مهد الينسون ... وقرأ
ماتني وصفة على الأقل ؛ لم تكن تحتوي إلا على الترياق، والنبات العشبي
البري (الريح)، وثمار العرعر، وملح النوشادر، والأنتيمون المعرق، والبصل
الأبيض والبزاق المصحون ...

وكانت باقي الكتب تتحدث عن الوصفات الطبية، وعن تخفيف الآلام،

وعن بعض حالات الشفاء المدهشة. ومع ذلك فقد لاحظ المؤلفون، في استنتاجاتهم أن المهرم الوحيد الناجع حقاً كان هو الصلاة للقديس روش وبركات القديس فرانسوا. وعند هبوط المساء، أغلق الطبيب البار كتابه، وقام، وراح يحلم أمام نافذته.

كان بعض الأطفال يلعبون بالساحة لعبة القفز، وبالبلي، ولعبة الحجلة ... وراح ينظر بحزن لهؤلاء الأبرياء، الملبئين بالحياة والمرح، والمهددين بالموت الخيف، إلى أن توقف اللعب، ورأى أن الأطفال ينظرون جميعهم لنفس الاتجاه، بنفضول قلق، وفجأة ولوا جميعهم أذبارهم إلى منازلهم، التي انغلقت أبوابها خلفهم.

وفتح الأستاذ بانكراس نافذته، وانحنى ليرى سبب خوفهم. وعلى الطريق الآتي من منحدر سان - ميشيل، رأى موكباً رهيباً يتقدم نحو المكان. كان رجلاً، يرتديان القمصان الرمادية، ويخفيان وجهيهما تحت أغطية واقية، ويضعان بأيديهما قفازات سوداء يسيران بالمقدمة. كانا يحملان مشعلين بأيديهما اليمنى، وبأيديهما اليسرى يحملان أجراساً نحاسية يقرعانهما بلا توقف. وخلفهما، كانت تصر محاور المعجلات، وترن حوافر الجياد على بلاط الطريق ... وعند اقترابهم، ميز الأستاذ بانكراس ما يشبه فرقة ترتيل وتعرف من فوره على كلمات النواح.

وهرع الناس جميعاً إلى نوافذهم، وراح يمر أمامهم الموكب الخيف الطويل ... كانت به أربع عربات، يرافقها المقنعون بالأردية السوداء، وكان كل واحد منهم يحمل شعلة، وينشد بالكلمات الرهيبة الناثحة من وراء قناعه الخيف.

كان الموتى مكومين مختلطتين، فقد أتوا بهم على هذه العربات، وأحياناً، ومن أعلى النوافذ، كان يشاهد ذراعاً متدلياً، أو أفخاداً تترجرج على طرف سطح

عربة بلا حافة، أو تشاهد ذقنا مرتفعة صوب السماء ومعها فم مفتوح ... وكان الكثيرون من الموتى عرايا وعلى العربة الأخيرة، التي كانت مائلة للوراء، محملة بكمية من الجثث كانت جثة بكامل ملابسها في ثياب الصيد وحذاء طويل برقة من جلد أزرق، وصدره من الدانتيل الأبيض أسفل ذقن سوداء كالفحم... وعند مرور راهب من المترنمين أسفل نافذته، استوقفه الأستاذ بانكراس:

- أيها الأخ، إلى أين أنتم ذاهبون؟

- إلى مقبرة الشارترين، قال الراهب العامل. فلم يعد هناك مكان لا بمقبرة سان - شار ولا بسان ميشيل.

- لكن كيف حدث هذا في مثل ذلك الوقت القصير؟...

- لقد حدث أن راح الناس يتساقطون كالذباب، ولم يكن لديهم حتى الوقت للاعتراف... بالنسبة لي، أتصور أن اختباري بالحياة الدنيا قد انتهى تقريبا، لأنني مصاب بخراج كبير يندلع تحت ذراعي الأيسر، وأعتقد أنني سأصل إلى المقبرة، ولكني أمل ألا أرجع من هناك...

وأثناء ما كان يتكلم، سال دم أسود من ركن فمه. فأغلق بانكراس نافذته بعنف وجرى يغسل وجهه بالخل، حين راحت الأناشيد الجنائزية تتباعد ... ولم يجد الطبيب حاجة لأن يستدعي جيرانه، فقد توافدوا عليه متجمهرين، كما لو أنهم يستنجدون بحمايته. وازدحم البهو، ولأنه لم يتسع للجميع، رجاهم الأستاذ بانكراس أن يخرجوا للحديقة ليناقدوا فيها الموقف.

وأثناء ماراج كل هؤلاء الناس يتخذون أماكنهم، شوهد الأستاذ باسكاي يصل، كان الجاني يسير مرتدياً ملاءة مبلولة بالخل، لأنه كان قد عاد من المدينة. وكان شديد الشحوب، ووجهه متقلص بنوع من التكشير، لكن نظرتة كانت واضحة ولا معة كالعادة، لأنه كان رجلاً شجاعاً.

- يا صديقي العزيز، قال للطبيب، أردت أن أتأكد من الأمر بنفسي فزرت عدة أحياء تحت رداء منقوع في الخل، كي أتجنب، لو كان ذلك ممكناً، العدوى. إن الموكب الذي مر أمامكم أصابكم جميعاً بالرعب، حسناً، لكم أن تعرفوا أنني رأيت على الأقل خمسين موكباً كهذا، وعدد منها كان به على الأقل عشر عربات للجنث. فمنذ يومين، انتشرت العدوى كالصاعقة، من حي القطالونيين إلى حي الإستاك، وتطلب الأمر نزع الحديد عن خمسين مسجون محكوم عليهم بالأشغال الشاقة، وعدوا بالحرية مقابل أن يحملوا جنث الموتى من الطرقات. لقد رأيت صديقي إستل، قاضي البلدية، وكل هؤلاء السادة كانوا في قمة اليأس. فقد مات اثنان وثلاثون جرّاحاً وستة عشر طبيباً في ثلاثة أيام. وقد تم استدعاء الأطباء من مونيبييه وطولون، وإكس وأفينيون. وقد وصل منهم، كما قيل لي ستة عشر هذا الصباح. وفي الساعة الثالثة، مات أحدهم ... ويقوم رجال الدين بالمدينة بحملة، فيها تفران رائع. لقد رأيتهم يركعون إلى جوار الرصيف، ليتلقوا اعترافات الموتى. هذا ما أردت أن أقوله لكم ... أما الآن، وبما أنني لست واقعاً أنني تجنبت العدوى، سأذهب وأغلق على نفسي ثلاثة أيام في كهف منزلي، الذي نقلت إليه بعض الغذاء. ولن أخرج إلا في اليوم الرابع، مع تيقني من أنني لم أصب بالعدوى. أما إذا كانت المصيبة قد أصابتني، فدعوني أموت وحيداً، ولا تعرضوا حياتكم للخطر لكي تنقلوني إلى مدفن، فقط أقيموا بناء على الباب وعلى النافورة.

- إنك تخاطر هكذا، قال تاجر الجوخ، بأن تموت بغير أن تعترف؟
- أنا أخطر بذلك، قال باسكاكي، من أجل هؤلاء الأطفال، وأتصور أن يسوع الطبيب، الذي يحبهم بصفة خاصة، سيتكرم بأن يتلقى بنفسه اعتراف العجوز الجاني النصاب الذي هو أنا.

في أعقاب هذا الحديث المدهش، استدار الأستاذ باسكاكي على عقبيه،

ومضى مسرعاً إلى كهف بيته، حيث كانت بانتظاره ست زجاجات من الخمر حول أربع دجاجات مشوية.

- هاكم رجلاً عظيماً أميناً، قال الأستاذ بانكراس، وقد ضرب لنا مثلاً عظيماً. الآن، اجلسوا جميعكم على العشب، واسمعوني .

لقد طرحت على نفسي، منذ عدة أيام، سؤالاً شديداً الخطورة، ألا يجب علي، بما أنني طبيب، أن أذهب إلى المدينة، وأعالج هؤلاء الآلاف من البؤساء؟ إنني هكذا سأخاطر على الأغلب بحياتي، ولكن أليست هذه ميتة مشرفة لطبيب؟

- لا، لا، صاحت عدة أصوات.

- ابق معنا ابق معنا! قالت النساء.

- انتظروا لحظة. قال بانكراس. بما أنني أنا الذي علي أن أقرر سلفاً الطريق الذي أنهجه. أنا أعرف الطاعون، لأنني عالجت الآلاف من التعمساء أثناء وباء هامبورج، بألمانيا. ولقد تحدثت كثيراً عن هذه المصيبة، مع زملائي، ودرست كل ما كتب في هذا الموضوع، ليس فقط باللغة الفرنسية، ولكن باللاتينية، والإنجليزية والألمانية. ولقد وطلدت عزمي، وأنا أوافق على رأي السيد بوير، الطبيب العظيم ببحرية طولون. فالطاعون، كتب يقول، مرض متوحش لا يشفيه أحد بخالطه، لذا فالوقاية الحقيقية منه هي في النار والهرب.

وكان المؤرخ الإغريقي توسيديد مع هذا الرأي. وتوجد عدة معات من المراهم، ولكنها أثبتت بالتأكيد أنها لا تفيد بشيء، إن لم تعجل بنهاية المرضى، وهذا، في مجموعه، ليس سراً، ولكنه ليس الهدف الذي نود بلوغه.

- لذا فأنا أعتقد أن رعاية المصابين بالطاعون، هي رعاية للموتى، على حين أن واجبنا، هو الحفاظ على الأحياء ...

وسمعت همهمة طويلة، وبعض تنهدات الارتياح، وحتى بعض الضحكات

- هل من الممكن، تابع بانكراس، أن نحافظ على أنفسنا من الكارثة؟

وانتظر بضع ثوان، ثم قال بقوة:

- نعم.

عند ذلك، سمع صوت الأستاذ باسكاي، طالماً من نافذة الكهف، قائلاً:

- قال لي إستل إنه لم يكن هناك مريض واحد لدى كهان دير سان

فيكتور، الذين اتخذوا احتياطهم ونوا حوايط على جميع فتحات صوامعهم .

- لقد قلت بالفعل، صاح بانكراس، إنه في كل حالات الوباء. كل

الجماعات الدينية المغلقة على نفسها لم تسمع حتى بالحديث عن الكارثة التي

أرعدت حول صوامعها. حسناً، فيا أصدقائي، سوف نتبع نحن نفس المثال،

الذي لا يشرف الرهبان الذين من واجبههم التضحية بكل شيء من أجل المحبة

المسيحية، ولكنه مثال مجيد تماماً للمواطنين الذين يعملون عائلات. إن علينا

أولاً أن نقبل، طوعية، انضباطاً صارماً، فيجب ألا يخرج من هنا أحد ابتداء من

اليوم.

وتحدث تاجر الجوخ الفظ بخشونة:

- وماذا عن القديس؟ إن علي أن أنزل كل يوم، مع كل عائلتي، إلى

كنيسة المادلين- وأنا أنبه هؤلاء الذين لا يذهبون للقديس إلا في النادر عادة لأن

هذه ربما تكون هي اللحظة التي عليهم فيها أن يشهدوا القديس كل صباح.

وبالأحرى مرتين بدلاً من واحدة!

ثم ثبت نظره على الأستاذ بانكراس، الذي لا يمكن لأحد أن يتخذه مثلاً

على الورع.

- أنا أعلمك، قال الطبيب، إنه يجب الإقلاع عن الذهاب للقداس بعض الوقت . فالله الرحيم الذي يرانا يعرف جيداً أن هذا لا يحدث لنقص في الحماس، فهو لا يجهل بالفعل، أن الكنيسة، شأنها شأن كل أماكن الاجتماع، تعد مأوى خطراً للوباء، والجميع هنا يعلمون مدى صلابة إيمانك -ولكن إذا عدت من القداس حاملاً الطاعون إلى مجتمعنا الصغير، فهل ستكون على هذا النحو مسيحياً صالحاً؟

- إنني أجد، قال تاجر الجوخ بحماس، أنه لابد للمرء أن يكون كافرًا كبيراً لكي يفكر في أنه يمكن له أن يصاب بالطاعون عند حضوره القداس! وأقول إن المسيحيين المؤمنين ليس لديهم ما يخشونه من المصيبة! وبالنسبة لي، طالما تقدر ساقاي على حملي، فلن أتخلف يوماً واحداً عن المشاركة بالتضحية المقدسة . فلم يحدث أبداً أن تخلفت منذ أن تناولت أول قربان، ولن أفعل ذلك غداً!

- بهذا الشكل قال الأستاذ بانكراس، هل نعتبر أنك اتخذت قراراً بأن تحضر لنا العدوى والموت؟

- أنا ليست لديّ النية على تقرير شيء. فالله وحده الذي يقرر، وكل جهودك للإفلات من إرادته لن تكون هزلية فحسب، وإنما ملحدة. فإذا كان يطيب له أن يرسل لنا الطاعون أو الموت، فمن الجنون أن نزمع مقاومته، وأنا لا أسألك في هذا المشروع الإجرامي، الذي لن يفضي لشيء. لذا فأنا أعلمك بأنني غداً صباحاً سأذهب للكنيسة مع كل عائلتي، وبعد ذلك، سأذهب إلى سان - برنابا لكي أرى أخي، الذي لم أسمع خيراً عنه من خمسة أيام، وسأعود لبيتني غداً مساءً، مهما كان رأيك. وأعقب ذلك، بأن كبس قبعته على رأسه، وخرج.

- هاكم أبلهًا كبيراً، قال الأستاذ بانكراس، قد يكلفنا، ربما، حياتنا.

- ولكن لا! فمن السهل أن نجس كل عائلته في كهف ...
- إذا عاد غداً مساءً فهذا ما سنفعله، قال الأستاذ بانكراس .
- ولم لا نجسه فوراً؟ سأل جاران الشاب.
- لأنني، قال الطبيب، أمل في أن يعيده ماسيراه غداً إلى عقله، فقد كان يترجف، وهو يحدثنا عن الخل المنقذ. لتتحدث الآن عن تنظيمنا، بما أننا سنضطر للحياة داخل الحصار، فهل لدينا تموين يكفي؟
- على كل حال، قال الأستاذ جاران، لن ينقصنا الماء. فالنافورة لم تعط أبداً مثل هذا القدر الذي تعطيه الآن.
- أتصور، قال الطبيب، أنه سيكون من الحكمة ألا نتعاطى ماءها. فهذا الماء يأتي من نبع الشارترين، الذي يتغذى على مياه الهوفون - ويكفي أن يسقط مصاب واحد بالطاعون في هذا النهر، أو مجرد أن يغسل فيه خراجه، لكي يصبح هذا الماء مسموماً - نحن لن نشرب إلا ماء البئر.
- لدي بئر بعمق أربعة أمتار بمنزلي، قال الأستاذ جاران، يكفي، في تقديري للماء ألف جرة.
- وعندني، قال بنيون البقال، بئر على عمق مترين، ولكن به الآن ما يكفي طوال العام ... فإذا سحبت منه كثيراً من المياه للري، يخف منسوبه قليلاً، ولكنه يعود لمستواه في الليل ...
- إذن، قال الأستاذ بانكراس، لا توجد خشية بالنسبة للماء ... والآن، الغداء . وتقدم بنيون البقال.
- بما جلبناه في رحلتنا الأخيرة، فإن مخازني مونة جيداً، فلدي أولاً دسنة كاملة من براميل الأنشوجة، التي جلبتها من طولون قبل الكارثة بزمان طويل،

وعشرة صناديق من سمك المورة المملح . ولدي ملء مخزن من البطاطس، وخمسة براميل من زيت الزيتون، وحزم كبيرة من التوابل، وخمسة أوسنة أكياس من الحمص (هاجمها السوس بعض الشيء، ولكن يمكن تنقيتها) ومائتا رطل من العدس. ثم قال ضاحكاً، ولدي ثمار قرع متخشبة!

وكان قد اشترى بالفعل، من قبطان إسباني، شحنة صغيرة من القرع، ليس لها من القرع إلا الاسم، كانت عبارة عن كرات من الخشب، تشبه الكرات الخشبية الكبيرة التي تستعمل في الأفران، وكانت في صلابتها تقريباً. ولكن كانت عندما تشق من منتصفها، تجدها طيبة وبها زيد أبيض، وذات نكهة، وسمينة اللحم. مع ذلك فقد فزع زبائن محل باتريس، من شكل ورنين هذا الخضار الغريب، وامتنعوا عن شراء الجزء الأكبر من الشحنة . وكانوا يعزونه قائلين:

- إن قشرتها سميقة، وهذا يجعلها تظل طازجة أربع سنوات!
- لكن ابنه، الذي كان نموذجاً فكها، اقترح أن يفتح بها فابريكة لتصنيع كرات القرن .
- هل ظل لديك منها الكثير؟ سأل الأستاذ بانكراس.
- لدينا مخزنان مليان حتى السقف! قال الابن.
- لربما تنقذ حياتنا هذه الكمية. قال الطبيب. وأنت، أيها الخباز، ما هي كمية الدقيق التي لديك؟
- وفكر الخباز الوسيم بتركيز، لأنه كان بطيء التفكير، ثم قال أخيراً:
- لدي اثنا عشر طرداً، تساوي على الأقل اثنا عشر كيساً من مائة رطل.
- وكم رطلاً من الخبز تصنع هذه الكمية؟

- تصنع الضعف قال الخباز. لكن ما ينقصني هو الخشب! فليس لدي منه سوى ما يكفي أسبوعاً.
- لو لزم الأمر قال الأستاذ بانكراس سنوقد بأخشاب أرضيات منازلنا. ولكننا لم نصل لذلك بعد!
- ثم إنه، قال جاران الشاب، لن يكون الشتاء قاسياً، ولدينا من الخشب مؤونة في كل كهوف منازلنا.
- وسمع من النافذة ثانية، صوت الجايي يقول:
- لقد تيقنت لدي عربتان على الأقل!
- كيف حالك الآن؟ صاح بانكراس.
- محرور بعض الشيء، صاح الجايي، ولكنني أعتقد أن ذلك بسبب زجاجتي النبيذ اللتين شريتهما، واللتين أنعشتاني جداً!
- بالتأكيد هو التبيذ الذي رفع حرارتك، صاح بانكراس ثانية. حاول الآن أن تنام!
- لا أستطيع! صاح الجايي، فما تقوله يهمني جداً! استمر! استمر! اسأل الجزار عما لديه!
- وتقدم رومولو الضخم، خجلاً بعض الشيء، وقال في عجلة:
- لدي نصف بقرة، وعجل وثلاثة خراف، فلر كُنا مائة شخص، سيكفينا هذا خمسة عشر يوماً. وربما ثلاثة أسابيع، إذا حُفِظَت اللحم ...
- إن كهفي شديد البرودة، قال الطبيب، وأضعه تحت إمرتك.
- وإذا استمر الوضع أكثر من ثلاثة أسابيع؟ قال الجايي.

- الواقع، قال الطبيب، أنه يوجد باصطيلبي بغلي، وبغلك، وحصانا الجزار.

- هل تريد أن تأكل خيولي؟ قال الجزار مرتعياً.

- نحن نريد أن نعيش، قال الطبيب. وأنت أيضاً تريد أن تعيش. فإذا أكلناها، سنشتري لك أجمل منها فيما بعد.

وأخيراً، وفي نفحة كرم، راحت كل امرأة تسرد قائمة تموينها المخزون، وكان من المألوف، في تلك الحقبة، أن تملأ الدواليب، وتشحن، قدر الاستطاعة، بما أن المؤونة -حتى في المدن الكبرى- لم تكن دائماً مؤمنة كما هو الحال اليوم.

وراحت البجيدات تزهون بهذا العدد الهائل من برطمانات المربى الذي لديهن بما جعل جاران الشاب يتشكك في أنهن يبالغن (ولم يكذبهن) وأعلنت ربّات البيوت عن ثلاثين قامة من السجق الجاف، وعدة دزينات من أفخاذ الخنزير المدخنة، وأكياس من أبي فروة الجاف، ودقيق الأذرة، والحمص، والعدس والفاصولياء، وكل ذلك بكميات كبيرة مما جعل الأستاذ بانكراس يفرك يديه من السعادة، وأعلن:

- أيها الأصدقاء أعتقد أننا ببعض الاقتصاد نستطيع الصمود على الأقل أربعة أشهر. ومن الآن فصاعداً، سينضج الخضار الذي سنزرعه بحدائقنا، وهو ماسموننا شهراً أو شهرين زيادة، لواقضى الأمر ذلك، أي أننا نجونا!

عندئذ، بادر القبطان، وقال، بطريقة رجل ذليل:

- وأنا؟ ألن يطلب مني شيء؟

- الرجل الوحيد، قال بانكراس، ليس لديه الكثير من التموين ...

- لأنك نسيت الشيء الأساسي، قال القبطان. فأننا، أستطيع أن أضع تحت

إمرة الجماعة أربعة يراميل كبيرة من النبيل الجيد. أي، حوالي ألف زجاجة، وريميلين صغيرين من الروم، وريميلا صغيراً من العرق، وأكثر من مائة زجاجة من الخمور المختلفة، كالماراسكان، والأجاردانانت، والاشنابس، والكيرش، والبراندي، التي هي أفضل علاج في العالم!

وهلّ له الجميع، بصوت خفيض .

- والآن، قال الأستاذ بانكراس، أوصيكم بأن تذهبوا وتتعشوا بشهية. ولكن عليكم أن تأتوا بعد ذلك مباشرة لتصطفوا أمامي، وأفحصكم واحداً بعد الآخر، لكي نتأكد من أننا لانهجس الثعلب مع الفراخ ... هيا إلى اللقاء .

وعلى البعد، كانت الأجراس تدوي باستمرار، لكن الجميع استجمع شجاعته، بسبب خطة الطبيب .

وبينما كان كل منهم يعود إلى بيته، سمع مرة ثانية صوت الأستاذ باسكاي الذي نادى على القبطان، وهرع تاجر العبيد إلى النافذة .

- ماذا حدث؟ هل ساءت حالتك؟

- لا، قال الجابي بصوت قوي. لدي إحساس بأنني سأشفى. ولكن أعتقد أن شفائي سيكون أسرع لو أنك جئت لي بواحدة من تلك الزجاجات التي تحدثت عنها منذ قليل!

- هذه فكرة معقولة، قال القبطان. ومضى سريعا باتجاه كهف بيته.

بعد العشاء، فحص الأستاذ بانكراس الأطفال أولاً، ولأنهم لم ينادروا الساحة منذ أسبوعين، لم يستغرق فحصهم طويلاً. ثم جاء بعدهم دور الرجال، الذين ذهبوا جميعهم تقريباً للمدينة، وكان فحص الطبيب لهم دقيقاً.

كان يجعلهم يتمددون عارئين على المنضدة، وكان يتفحص أولاً جلودهم،

ثم يتشم أنفاسهم، ويتفحص ألسنتهم وخناجرهم، ويجس نبضهم، ويتلمس بطونهم، وأباطهم، وثنيات أفخاذهم، على ضوء أربعة مشاعل. وكان كل مرة يقول فيها: «هذا سليم» كانت العجوز ألييت تقترب، وتدعك الرجل بخل اللصوص الأربعة، ليقفز بعدها من على المنضدة، منفجراً بالضحك.

وعند حوالي منتصف الليل، جاء دور النساء، ثم الآنسات وجاءت أربعة ثرائيات لتحملن المشاعل. وتلاحظ أن الأستاذ بانكراس كان يذل عناية شديدة لهذا الفحص، فكان يظل أحياناً أكثر من دقيقة يتحسس جلد أنسة حجولة، ثم يفتش من على مقربة شديدة، ولكي يقال هكذا من طرف الأنف، عن أقل أثر لخدش، أو لحيمة مهما صغرت، ذلك لأن الطاعون مرض شديد المكر يبدأ أحياناً بأقل ضجة ممكنة. وأخيراً حوالي الساعة الثالثة صباحاً، انتهى كل شيء، وأعلن الطبيب بكل تأكيد أن الطاعون لم يدخل في مهجمهم، وكان ذلك نبأ سعيداً.

غير أن جاران لاحظ أن الأستاذ كومبارنو وعائلته لم يأتوا للكشف، وأن المثقف لم يعد من المدينة.

- إنني حائق من هذا الشاب، قال بانكراس، وغيباه ليست له دلالة طيبة. أما بالنسبة لتاجر الجوخ، فسترى في الغد.

وذهب الجميع للنوم.

وأثناء ما كان الأستاذ بانكراس يخلع ملابسه، خيل له أنه يستمع لشكوى تأتي من الكهف ... فاقترب لكي يتأكد من أن الأستاذ باسكاكي، ربما يحتضر على كومة من الخشب ... وأرهدف أذنيه، وكان ذلك بالفعل صوت الجايي، لكنه لم يكن يتشكّي، بل كان ينشد:

«أيها الراعي المتقلب

اكشف لي عن سر قلبك

فأنا أريد أن أجد في طيات صدرك

طريق سعادتني ... »

في حوالي السادسة صباحاً، جاءت المعجوز ألييت لإيقاظه، ولم يكن ذلك أمراً سهلاً.

- يا أستاذ، قالت، تاجر الجوخ رحل !

وقفز بانكراس من سريره، وجرى إلى النافذة بقميص نومه وفتحها على مصراعها كان الأستاذ كومبارنو مشغولاً بضبط أطوال أعنة جواده، الذي كان مربوطاً إلى عربة جميلة. على المقعد الأمامي، كانت زوجته قد اتخذت مكانها، وكذلك بناته الخمس. كن قد جلسن في صحن العربة خلفها، على مخدات جميلة زرقاء.

- يا أستاذ كومبارنو، قال بانكراس، ألم يجعلك الليل تعود عن قرارك ؟

- على العكس، قال تاجر الجوخ. لقد قوى من موقفني بتجاهل الطاعون، وبالخضوع الدليل لإرادة الله، بالأغبر عاداتي.

- في هذه الحالة، وبما أنك ستذهب لزيارة أخيك في سان - برنابا، أعتقد أنك سوف تحسن صنعاً لو ظللت هناك.

- ولم ؟ قال تاجر الجوخ بغلظة.

- لأنه من أجل أمننا، سنكون مرغمين على أن نتخذ منك ومن عائلتك مواقف قد تأسف لها.

- أنا أريد أن أرى هذا، قال تاجر الجوخ، وهو يضحك هازئاً في زهو.

- ستره، قال الأستاذ بانكراس. وبغير شك على الأرجح هذا المساء.

عقب ذلك، أغلق النافذة، على حين راح تاجر الجوخ يفرق بسوطه.

طيلة الصباح، أشرف بانكراس على الأعمال الأخيرة. فقد أمر الرجال أولاً بعمل الفتحات في الحوائط المتوسطة للحدائق، حتى يمكنهم المرور فيما بينهم. أثناء ذلك، راح يقوم، بعناية فائقة، بجرد محتويات الكهوف، يصحبه في ذلك القبطان، الذي سجل على كتاب غلافه قديم كميات ونوعية الأغذية المتاحة. وأخيراً، أنزل من السقائف بعض الفرش القديم الذي اتسخ بالزبل، ودم الأرنب، وفرده بالطريق كما لو كان قد ألقى به من النوافذ ... وحوالي بعد الظهر، أقفلت مصاريع جميع النوافذ، ووضعت القضبان بالأبواب.

ثم راح بانكراس، وانحنى على نافذة كهف الجايي، الذي نسيه البعض قليلاً. وسمع وهو مرتعب، حشرة مكتومة .

- المسكين، قال.

ومع ذلك، نادى عليه ... وفي المرة الثالثة من النداء، سكنت الحشرة، وحلت محلها فجأة تنهيدة منغمة، واستطاع بانكراس أن يميز الجايي، جالساً على فراش القش، يتمطى فاردا ذراعيه. وهو يدعك عينيه، ويقول، بصوت مندهش:

- أين أنا؟

- أنت بكهفك، قال بانكراس. كيف حالك الآن؟

- إن فمي لزج، وشعري متصلب! قال الجايي ... وأسألك لماذا أحس في أنفي برائحة روم رهيبة.

وراحت الجماعة عن بكرة أبيها تعمل طيلة اليوم كخلية، كان الأطفال يلعبون بالحديقة تحت رعاية الجدات، فكن يحكيّن لهم الحكايات عن مجيء الذئب الشرير، الذي لا يؤذي أحداً طالما تركوه نائماً، ولكنه كان يجري هارباً عند أقل صرخة.

لذا كان الأطفال يلعبون في صمت، وإذا أفلتت منهم بالصدفة ضحكة عالية، كان كل القطيع يجري، مرتعياً ليختبئ بالاصطبلات ... وعند المساء، تم عقد اجتماع بخصوص عودة تاجر الجوخ.

- لا يجب السماح له بالعودة، قال جاران الشاب. ولقد أغلقت بابه بالقضيب وبما أنه سيموت بالطاعون، فممكنه أن يموت في أي مكان .

- سوف يقيم الدنيا، قال الطبيب. وسيذهب بالتأكد ليتشكي إلى السلطات -ومن رأيي أنه من الضروري ألا تجذب انتباه أحد لنا ... فمن الأفضل أن يتصوروا أننا متنا، أو رحلنا

- ولكن، قال بنيون، ما الذي سنفعل بهم؟

- إنهم سبعة، قال الجايي. ولن نستطيع قتلهم جميعاً

- ليس الآن! قال القبطان. ولكن لا تنسوا أن الطاعون الأسود، هو الموت المؤكد للمصاب به، والموت المحتمل لجيرانه. وأنا أجد أن المهدد بالموت له الحق في قتل المؤكد موته.

- يبدو لي ذلك أمراً معقولاً، قال الأستاذ بانكراس. لكن الأستاذ كوميرانو لم يصب بعد بالطاعون، على الأقل في حدود علمي. فإذا عاد هذا المساء، سنحاول أولاً أن نعيده لعقله. ولكنه إذا أصر على أن يجلب لنا العدوى، في هذه الحالة نجبسه في كهف جاران، الموجود بالاصطبل. فإذا صرخ، نكتم فمه. فضلاً عن أنني أتوقع منه ألا يقاوم مقاومة شديدة، لأنه سيربحه أن يوضع في مأمن بالقوة، وبغير أن يتخلى بإرادته عن واجباته، وهو ما سيجعله متخلصاً من الخطيئة أمام الله.

- سأعد، قال القبطان، كيساً ثقيلاً أضربه به على رأسه، وحبالاً لتكتيفه.

- وأنا، قال جاران، سوف أخلي كهفي من كل مابه، لأنني متأكد أنه

متعصب ... ولكنه لم يكده يكمل جملة، حتى جاءت العجوز آليت فجأة،
وقالت:

— ها هو السيد كومبرانو يصل، لقد رأيته من كوة المطبخ!
وصعد الأستاذ بانكراس جرياً للدور الأول بمنزله، وتبعه الجاني، وجاران،
والقبطان، وفتح بانكراس مصراع نافذته ببطء ...

إلى ناحية اليسار، أمام باب بيت تاجر الجوخ، توقفت العربة. لم يكن أحد
بالمقعد الأمامي لها. لكن في صندوق العربة، كانت زوجته وبناته الأربعة ترقدن
الواحدة على الأخريات ... كانت وجوهن سوداء وحمران، ومتنفخة على نحو
رهيب، وكانت الأم تضم الصغيرة بين ذراعيها، التي بدت كأنها دمية
مقطرة ... وعلى الدرجات الثلاث أمام الباب، كان الأستاذ كومبرانو مثنياً
نصفين ... يزفر زفرات شديدة، ثم سقط فجأة على ركبتيه، وراحت قبضته
المصنوعة من اللباد الأزرق تتدحرج على الرصيف ... وجاهد ثانية، لكي يرفع
المفتاح اللامع لبيته باتجاه القفل الضخم، لكن يده سقطت، كالميتة، تاركة
المفتاح الذي رنَّ على حجارة السلم ... ولهث:

— النجدة! النجدة! افتحوا لي!

— يا أستاذ كومبرانو، قال بانكراس بصوت مرتجف بعض الشيء، أنت لا
تستطيع الدخول الآن ...

— من أجل خاطر الرب، قال الرجل المسكين، افتحوا لي وعالجوني!

— من أجل خاطر البشر، قال الأستاذ بانكراس، لا تحاول العودة لهنّا، فهنا
لا يوجد إلا الرجال الأصحاء، والنساء والأطفال ... ولقد أصبت بهذا الشر
بسبب خطئك، فلا تأتي لتعدي الآخرين.

وزفر تاجر الجوخ زفرة شديدة وتنهّد:

- لقد تخلى الرب عني ...
- لا تفكر هكذا، قال القبطان، لأنه في هذه اللحظة بالذات، الرب . يدعوك للقاءه.
- لقد ماتت زوجتي وأطفالي ...
- لأنهن لم تردن مفارقتك! قال الجاني.
- أعطوني شراباً على الأقل، قال تاجر الجوخ في صباح مقطوع.
- سوف أنزل لك شراباً، قال بانكراس، ولكن لا أخفي عليك أنه ليس لدينا شيء آخر نفعله من أجلك.
- أعرف، غمغم تاجر الجوخ ... ولكنه أمر رهيب أن يحتضر إنسان في مثل وضعي بالشارع ...
- ربما كان ذلك أفضل من أن تموت ببيتك، قال القبطان، فلن يحول بين رأسك والسماء سقف، وترتفع روحك بلا عائق!
- في تلك اللحظة ؛ ويطرف جبل، أنزل به جاران الشاب كوزا من النبيذ الأبيض البارد... وبجهد جهيد، جر المحتضر نفسه ليرقع الكوز على شفثيه . ولكنه تقيأ الجرعة الأولى في حالة بشعة من الفواق، وأتبعها بسيل من الدم الأسود ...
- يا أستاذ كومبرانو، قال بانكراس، لقد تبقت لك بضع لحظات ... فتحامل على نفسك، وحاول أن يجلس على درجات سلمي، وتسند ظهرك إلى باب بيتي ...
- لماذا؟ لهث المحتضر.
- سيكون هذا، قال بانكراس، عملاً طيباً، آخر عمل طيب بحياتك، لأن

جثثك بهذا الشكل ستخيف قطاع الطرق، الذين ربما جاؤوا للهجوم علينا،
ولأنك على هذا النحو ستقتذ حياة ثلاثين طفلاً صغيراً تعرفهم ...

وراح تاجر الجوخ السمين المحشو الذي يهتز بفعل نزعات احتضاره، ويتقيأ
في كل هزة كتلة من الدم، يصعد درجات السلم ... وجلس عليها لحظة بلا
حركة، وقال القبطان •

- لقد انتهى، فقد مات.

لكنه استجمع، برغم عذاب جسده المتنن، جماع قوته. وفجأة، وبجهد
بالغ، تمكن من أن يستدير، وفي أربع تشنجات مخيفة، قام بركن ظهره إلى
الباب، وعقد يديه على صدره، للمرة الأخيرة .

وصاحت آلييت التي كانت تطل برأسها من تحت ذراع سيدها، فجأة:

- هل ترون الملاك؟ انظروا الملاك!

ولم يربانكراس ولا القبطان شيئاً، لكنهما راحا ينظران مندهشين، للوجه
المسكين الأسود، والمتورم بابتسامة كبيرة مضيفة سعيدة.

عند حلول الليل، تم إعداد جاران الشاب والجزار طويلاً بمعرفة الأستاذ
بانكراس، فقد جعل كلا منهما يرتدي ثلاثة قمصان، ثم سترة تتدلى إلى
القدمين، مضافاً إليها القفازات القماشية والأقنعة التي تصل حتى صدورهم،
وأخيراً، تم إغراقهم بخل اللصوص الأربعة. وأخذنا بعد ذلك خطافى حطاب،
من النوع الذي يستخدم في جر جذوع الأشجار، ونخرجنا.

كان الحصان مازال مربوطاً إلى العربة المحملة بالجثث وهو يستند إلى جذع
شجرة دلب، وقد نام واقفاً بغير حراك.

وقاده أمام باب بانكراس، وباستخدام خطاطيفهما أوقعا الجثث الخمس

التي انتظمت على نحو تشكيلي حول تاجر الجوخ الميت، الذي كانت ذقنه ساقطة، بشكل فظيع، على صدرته الدانتلا المدماة.

وانتظمت حياة المعزولين في انضباط شبه عسكري فكانت أجراس الجنازات التي حُلّت محل صلوات الصباح، توقظهم مع أول خيوط الشمس، ويبدأ يومهم بفحص كل أعضاء الجالية، الذين يتقاطرون أمام الطبيب، الجالس تحت شجرة التين الكبيرة أمام بيت الجابي.

وكان أقل ارتفاع في درجة حرارة واحد منهم سبباً للاشتباه، وكان أقل جرح يبدو في نظره مشروعاً لخراج فكان يعزل في التو المريض بكهف أعيد طلاؤه، ويجري غسله بالخل كالخيار المخلل، ثم كان يفرج عنه بعد ثلاثة أيام.

وبعد الفحص كانت النساء تقمن بالأعمال المنزلية، بلا أدنى ضجة.

كانت الفتيات تقمن على رعاية الأطفال الذين يلعبون بالحدائق، وكان الجابي، يجلس تحت التينة، يعطي الدروس للكبار بصوت خفيض، ثم كان القبطان يحل محله في هذه الدروس، لكي يعلمهم الجغرافيا. وخلال هذا الوقت. كان جاران الشاب، لكي يشغل وقته، يصمم بندقية من نوع جديد، وكان الجزار ينقع اللحم في الملح (لكي يحفظها)، والبقال ينشر قرعه الخشبي، والخباز يعجن العجين. ولم يكن يشعل قرنه إلا بعد منتصف الليل، كل ثلاثة أو أربعة أيام، لأنه كان ينتظر حتى تهب الرياح، لكي تمحو أثر الدخان الذي كان من شأنه أن يشي بهم.

- أما الذين لم يكن لهم عمل فكانوا يعملون بالحدائق -ولكن كان من الضروري سحب الماء من الآبار مباشرة، أقصد بدون رفعها بالبكرات، التي تحدث صريراً، كعادة بكرات الرفع فوق الآبار. وسرعان ما نما الحمص، ثم العدس، ثم الفاصولياء، وراح الأستاذ بانكراس يفرك يديه من السعادة.

عند الظهر، كان الجميع يأكلون معاً في اسطبل الطبيب الكبير، الذي تحول لصالة اجتماعات وبعد راحة القيلولة - التي تستمر حتى الخامسة مساءً - كانت النسوة تطبخن، وتقمّن بأشغال الإبرة، وكان الرجال يلعبون الورق، والضامة البولندية، والشطرنج وكانت الخادومات العجائز تحكين القصص للأطفال.

مع ذلك، ففي سقيفة منزل بانكراس، التي كانت أعلى سقيفة - كان يوجد دائماً رجل يراقب من كوة مستديرة، لكي يتابع ما يجري بالميناء والمدينة. وكان هذا العمل يتناوبه الرجال كل ساعتين، وكل واحد كان يقدم تقريره للطبيب.

في البداية، كان المراقب يشاهد قوافل العربات، ويشاهد هلع المارة واصطفافهم، في صفوف مجهزة، أدرك القبطان، لطول نظره، أنها صفوف المحكوم عليهم، الذي فكّوا قيودهم. وكانوا جميعهم يضعون على أكتافهم عصياً طويلة في أطرافها خطاطيف.

ولم يعد هناك أي قارب يدخل للميناء، ولكن شوهدت أعداد كبيرة منها ترحل. ثم، صارت مواكب الجنازات نادرة، وبدت الشوارع مقفرة. فلم يعد أحد يمر على الميدان الصغير، ورغم ذلك، سمع صوت الإنذار مرتين أو ثلاثة... وشوهد الطوافون الجائعون، المسلحون بالمدى، وأحياناً بالمسدسات في أيديهم، وهم يسرون بخطوات بطيئة، يبحثون عن الغذاء أو عن شيء يذهبونه ... وقد وصلوا حتى الواجهة العريضة للساحة، ثم توقفوا فجأة، فزعين، وبعد ذلك ولّوا الأدبار، فقد كان تاجر الجوخ الطيب، أسود كزنجي، وقد غزا وجهه الدود، وأحاطت به عائلته المحنطة، وهو يولي وجهه بإخلاص ناحية المساكن.

واستمرت هذه الحياة حوالي الشهر - ولكن، وعلى الرغم من كونهم كانوا في مأمن، راح طابع المعزل يصير أكثر قتامة يوماً بعد يوم، فقد كان صوت

الأجراس الحديدية، الذي لا يتوقف إلا عند غروب الشمس، والحذر، والاضطرار للحديث بصوت خفيض قد أضفى عليهم شعوراً بالذنب. وتم منع الأطفال من القيام بأية ضجة، ففقدوا شهيتهم، وراحت الأمهات تندبن. وبدأ العواجيز، الذي كانوا يخشون الموت أكثر من أي أحد، يقومون بالأفعال المجنونة.

فقد اختفت السيدة الجدة ييجون، التي بلغت الثمانين، ذات يوم، وعثر عليها مختفية تحت سرير، ورفضت الخروج من هذا الخبأ. وعندما حاول البعض إخراجها، راحت تصرخ صرخات رهيبة مما جعلهم يتركونها وشأنها، وتطلب الأمر من ابنتها أن تحمل إليها مرتين في اليوم طعامها في هذا الخبأ الهزلي، الذي ظلت فيه منبطحة على وجهها غارقة في برازها.

أما والد رومولد العجوز، والذي كان يتمتع بالكثير من سلامة الحس دائماً، فقد راح ذات يوم يسير على أربع، وهو ينبج من وقت لآخر؛ وقد فسر الأمر للأستاذ بانكراس بأن الطاعون لا يهاجم الحيوانات أبداً، وأنه ليس على جميع الناس إلا أن يفعلوا مثله وصدق بانكراس، الذي شخص حالته بأنها لا علاج لها، على كلامه بصوت عال، ولكنه استسمحه فقط أن ينبج بصوت أقل ارتفاعاً، وهو الأمر الذي قبله راضياً.

من ناحية أخرى، بدأ الملل والخوف يزعرعان أخلاق هؤلاء الناس الطيبين، وصار بينهم عدد كبير من الزناة وهو الأمر الذي لم يبد أنه شغل كثيراً بال أحد، فيما عدا الجزار رومولد، الذي اغتاز من أن يكون قواداً، لكن لأن بانكراس واساه للأسباب الفلسفية بوحدة أكثر جمالاً من زوجته، فقد ترك الجزار امرأته هدية للخباز، واستبدلها بالخدمة الصغيرة للبقال. وقد أراحها ذلك جداً، لأنها كانت تخشى من اللحظة التي بدأ فيها الوفاء أن تموت عذراء... وأحزنت هذه الأخلاق الجاني الفاضل، وبصفة خاصة أحزنته حالة الوحشية التي اصطبغت بها والتي كان هو نفسه ضحية لها، فقد باعته ذات مساء في

وضع الزنا مع امرأة السماك، التي لم تكن صغيرة أو جميلة، وإنما كانت سكرانة ومتهورة. وواساه الأستاذ بانكراس، وهو يشرح له أن خشية الموت تعظم دائماً من شأن غريزة التناسل، وذلك لأن الكائن يعتقد هكذا بأنه يبذل قصارى جهده لكي يعيد إنتاج شخصه، ولكي ينتصر على الموت.

مساء اليوم الأربعين، وأثناء ما كان الجميع يتنسمون الهواء في الحدائق قبل العشاء، سمع فجأة صوت تدحرج سريع على السلم، وظهر المراقب على الباب، بوجه مضى. وكان ابن بنيون.

- انتصرونا! صاح، لقد انتهى الطاعون!

ونفض الجميع دفعة واحدة.

كيف عرفت؟ قال الأستاذ بانكراس.

- لقد أشعلوا النار من الفرحة! قال بنيون الابن ... وأكبر الحرائق أشعلت بالميناء، وتبدو حولها ظلال الناس وهي ترقص.

- هدوء! قال بانكراس - وانتظروا قليلاً قبل أن تهتفوا أنفسكم. لا بد أولاً من رؤية ذلك! واندفع باتجاه السلم، الذي سبقه إليه القبطان.

ولأنه لم يصعد من قبل إلى السقيفة، ولأن نافذة السقف كانت مفتوحة بأعلى السلم، راح يتسلق السلم برشاقة، إلى أن عبرت رأسه من السقف، وصارت إلى جوار حذاء القبطان.

ورأى، بالبقعة السوداء الكبيرة للمدينة، نقاطاً احمرت بالليل كالجمر، وعلى مقربة، من الميناء القديم، كانت حزمة من النار تتراقص.

وفرد القبطان نظاره، التي راح يضبطها عدة مرات ... وشده الأستاذ بانكراس من حذائه!

- ماذا ترى؟

- أرى ناراً كبيرة مشتعلة، قال القبطان. وأمام هذه النار، أرى ظلالاً، تلقي بظلال أخرى في الحريق!

- لقد كنت على يقين من هذا، قال بانكراس، إنها المحرقة ... إنهم يحرقون الجثث لأنه لا يوجد وقت لدفنها ...

ونزلاً السلم، مكتبيين، حيث كان كل الرجال بانتظارهما على الدرج.

في اليوم التالي، عند بزوغ النهار، سُمعت طرقات على بيت السيدة نيكول، خفيفة في البداية، ثم صارت وحشية ... وقفز الكثيرون من أسرهم وهرعوا إلى النوافذ المخلقة، بغير أن يتجرأوا رغم ذلك على فتحها، محاولين النظر من شقوقها. أثناء ذلك، صاح صوت:

- افتحوا لي! إنه أنا، نوربرت!

وتعرفوا على صوت المثقف، وكان قد تصوروا أنه مات.

ولم يجب عليه إلا الصمت المطبق. عندئذ راح يزعم:

- أنا أعرف أنكم تختفون وراء المصاييح! افتحوا لي وإلا كسرت الباب!

ووارب الأستاذ بانكراس نافذته، فوق رأس هذا الغضوب مباشرة.

- بحق الرب، قال له، لا تصح هكذا ولا تصنع هذه الضجة!

- بحق الرب قال المثقف، دعوني آخذ حاجياتي أو اقذفوها لي من النافذة! لأنني سأغادر المدينة، وأنصحكم بأن تفعلوا مثلي، لأنهم خلال ثلاثة أيام سوف يأتون لحرق كل الحي!

- من الذي قال لك؟ صاح بانكراس، الذي صار شاحباً كاللقت.

- إفتح لي وسأقول لك كل شيء، أجب المثقف - وربما أنقذ حياتك ...
- أنت جئت بنية طيبة، قال بانكراس، ولكنك بالتأكيد تحمل لنا الطاعون!
- لقد أصبت به، وبرت منه بمعجزة. وأنت تعرف جيداً أننا لن نمرض
بالطاعون مرتين!

- لو أن الأمر هكذا، فأنت لن تُصاب به ثانية، ولكن ملابسك بلا شك
محملة بالبحشرات شديدة الصغر، التي تحمل سموم كل أصدقائك .
- هذا صحيح بالقطع، قال المثقف، لأنني منذ شهرين، وبحجة أنني لن
يصيبني شيء أجبروني على أن أجمع مئات البجث التي تعفنت على الأرصفة.
والآن ما الذي يجب علي عمله؟

- أولاً، قال الطبيب، سوف تخلع عارياً وتلقي بكل أسمالك وراء الحاجز
بعد ذلك، سوف أمرر لك الصابون، وسوف تغتسل من أعلى إلى أسفل وخاصة
شعر رأسك. وبعد ذلك، سوف أنزل لك قارورة خل كبيرة، وسوف تدلك بها
جسمك لمدة ساعة، وتنظف بها أظافر يديك ورجليك ... وأخيراً، سألقي لك
بصرة أسمال نظيفة، ويمكنك بعد ذلك أن تدخل إلى هنا بغير خطر.

- إتفقنا، قال المثقف.

ويدأ في خلع ملابسه.

أثناء هذه العملية، التي استمرت حوالي ساعة، كان هناك كثير من
السيدات والآسات وراء المصاريع المقفلة، بما أنه كان غلاماً وسيماً جداً وقد
أكد الطاعون على رشاقته، عندما تسبب في نحوله، وبالميدان المقفر، إلى جوار
النافورة، راح ينظف كل جسده باهتمام شديد. وعندما صار جاهزاً، فتح
بانكراس له باباً وهو يكبس له في أنفه سداة من قماش مبلول بالخل، ثم اقتاده
إلى مكتبه.

واستمرت محادثتهما أكثر من ساعة. وكان الرجال ينتظرون بالحدائق، غير أن ينطقوا بكلمة. كانوا يروحون ويجيئون، خافضي الرؤوس، واضعين أياديهم في جيوبهم. وكانت النساء تتحدثن همساً، في مجموعات صغيرة، بالأركان. وكانت أخريات مصطفات حول العجوز ألييت، التي حاولت أن تتنصت على باب الطبيب. ولم تستمع شيئاً مفهوماً - لكنها عندما فتح بانكراس الباب، وقعت تحت رجليه. وعندما صاح: الطاعون للمتطفلة، هربت خائفة، مقطوعة الأنفاس. وفي صمت، ذهب الرجالن حتى منتصف الحديقة الكبيرة، وصعد المثقف على غطاء البئر. وجاء الجميع واصطفوا في نصف دائرة حوله، على حين جلس بانكراس والجابي على حجر البئر ثم تحدث المثقف:

- يا أصدقائي، قال، يحزنني أن أقول لكم إن الأستاذ بانكراس كان على حق وإن هذه المدينة هلكت. وبفضل نظارة القبطان المكبرة، أعرف أنكم كوتتم فكرة عما يدور. لكن هذه الفكرة شيء قليل جداً وتكاد تكون أمراً طريفاً بجانب الحقيقة. فالواقع، أنهم يلقون بالجثث من النوافذ، وأن هذه الجثث قد تكومت على الأرصفة، إن كل الناس القادرين على العمل ماتوا على الأرصفة بأرباض المدينة، ولكن مازالت هناك كمية كبيرة من الناس، تقل كل يوم بمعدل واحد على عشرين، ولم نعد ندفن الموتى، برغم مساعدة مائة محكوم عليهم، يتجددون باستمرار كل أسبوع تقريباً، لأن عقوباتهم لم تفهم شر هذا الوباء المرعب. هنا، ربما تكونون في مأمن، ولكنكم لن تظلوا هكذا طويلاً.

- لماذا؟ سأل الجابي بغلظة.

- لأن المسؤولين قرروا حرق منازل المصابين بالطاعون وحتى الأحياء بكاملها. فأول أمس أحرقوا حي توريت، وأمس أحرقوا أكثر من ثلاثين منزلاً بميدان لينش، وسمعت أنهم سيحرقون سهل سان - ميشيل، الذي حدث أن فلك به الوباء فتكاً ذريعاً!

- إنه على بعد خطوتين من هنا! قال القبطان.

- أي نعم، قال المثقف. والأكثر من ذلك، أنني سمعتهم يتحدثون عن ساحتنا. فبناءً على تقرير للبوليس، اعتقدوا أنكم جميعاً موتى، وأنصبر أنكم خلال يومين أو ثلاثة أيام، ستشهدون قدوم الحطب والمشاغل.

- عندئذ، قال الجابي، سنظهر لهم، ولن يحرقوا شيئاً.

- تماماً، قال المثقف إنهم ليسوا متوحشين لدرجة أن يحرقوا بشرأ أصحاب. لكنهم أولاً سيسرقون كل تموينكم لأن الجذب جعل الجميع على شفا المجاعة، والسلطات تصادر كل المخزون. بعد ذلك، سيحبسون الرجال على العمل مع المحكوم عليهم، في دفن آلاف الجثث المتعفنة. وسيأخذ كل واحد منكم خطافاً، ورداء بقناع. وقفازات ولكي يسعدوكم، سيطلقون عليكم تسمية الغربان وبالطبع بعد مضي ثمانية أيام، لن تحملوا بعد همماً، لأنكم ستدوبون أنتم أيضاً في الدماطل والخرابيع، وستتعارك الكلاب على ما يتبقى من أجسادكم، إن هذا هو ما ينتظركم إذا كنتم من الحماقة بحيث تظنون هناك.

وما كاد ينتهي حديثه حتى انخرطت النسوة في البكاء، وضممن الأطفال بين أذرعهن، وظل الرجال بلا حراك، عاجزين كالأحجار، وراح العواجيز يتبادلون النظر ببلاهة. وكان القبطان أول من تحدث :

- هذا الشاب على حق، قال، فليس أمامنا إلا المغادرة.

- هذا ما كان يجب علينا أن نفعله من أول يوم، قال الجابي ... كان بمقدوري أن أذهب إلى بيتي الصغير في إكس ...

- لقد أصابها الطاعون هي الأخرى، قال المثقف، فقد أغلقت بها المدارس، والمحاكم، والكنائس.

- إذن، فليست هناك سوى وسيلة واحدة وهي أن نعثر على مركب ونرحل.

إلى كورسيكا.

- يا عزيزي القبطان، قال بانكراس، إنها الوسيلة المثلى، ولكن أين يمكنك أن تجد قارباً؟

وأشار القبطان بيده، علامة الحيرة، وهز رأسه وسكت.

وراح جاران الشاب، والخباز، والجزار يعرضون، كل بدوره، اقتراحات خرقاء، كما يحدث في حالة الناس اليائسين ... وفكر الأستاذ بانكراس، الذي لا يفقد هدوءه أبداً:

- إن الأبسط من هذا جميعه، هو الذهاب للتلال. سوف نذهب أولاً إلى قرية الألاوروش، حيث فيها أحد أقربائي ... فإذا كان الوفاء قد وصل إلى هناك، نوغل لأبعد منها ... وإني أخشى، في الحقيقة، أن تكون القرى قد أصيبت بالعدوى... ولذا تظل لنا التلال. وربما نجد هناك مأوى في بعض الكهوف، في جنبات خور بعيد، لا يأتي للبحث عنا فيه أحد.

- ولكن ماذا سنأكل؟ قال المثقف.

- مازال لدينا بعد مخزون كبير. كما أننا مازال عندنا أربع جياد وبغلان...

- هذه الحيوانات هزيلة جداً، قال الجزار.

- نحن لسنا بصدد أكلها الآن، بل سنربطها إلى عرباتنا لكي ننقل عليها تمويننا. وسوف نطعمها كل العلف الذي تبقى لدينا، وآخر كيس من الشعير عندنا. وسنعد بالنهار حملتنا، وفي منتصف الليل سنرحل.

- وعندما ترحلون! قال المثقف. تعتقدون أن بإمكانكم الذهاب هكذا؟

فكروا، فقبل كل شيء، ومع ظهور عرباتكم المحملة، سوف تهاجمون من العصابات المسلحة التي تجوب المدينة بحثاً عن أي أغذية. والتي تنهب كهوف

المنازل الموبوءة.

- وهل سيرونا في منتصف الليل ؟ قال الجابي.
- نحن لدينا ثلاث وعشرون بندقية، قال الأستاذ جاران ؛ وثلاثون مسدساً، وأكثر من مائة رطل من البارود.
- عند أول طلقة بندقية، ستأتي عصابات النهابين الأخرى لمعاونتهم. ومن جهة أخرى يوجد حراس بكل مخرج من مخارج المدينة، لكي يمنعوا انتشار الوباء في البلاد.
- ولكن، ما العمل ؟ صاح البقال، الذي أرعبه الخوف.
- أن نخرج على دفعات، قال المثقف، حاملين بعض الطعام الذي نخفيه تحت ملابسنا جيداً- وأن ننجو كل واحد بنفسه.
- وماذا عن النساء ؟ قال بانكراس.
- والأطفال ؟ قال بعنف الأستاذ باسكاي. هل تريدون ترك الأطفال ؟
- وغمغمت النسوة.
- وفتح المثقف ذراعيه، وأقفل عينيه، وهز كتفيه، ولكنه لم يقل شيئاً آخر، وحل صممت طويل جداً، قطعه الأستاذ بانكراس ليقول:
- تعالوا إلى مكتبي.

واققاد الجابي، والمثقف، وصانع السلاح، والقبطان.

وما إن مضوا، حتى شرعت النسوة في القول بأن هذا المثقف كان دائماً يرغب في أن يجعل من نفسه شيئاً هاماً، وأنه لم يصب بالطاعون، لأنه بلاشك قضى شهرين لدى عشيقته عجوز له انتهت بأن طردته. واتهمته بأنه كان شخصاً هازلاً دوماً، وبأن طوبته سيئة. وبالحصيلة، أعلن العديد منهم بأنه لا يوجد سبب

للهروب، وأن أحكم المواقف هو الانتظار، كما فعلنا حتى الآن. وكاد الرجال يتبنون رأي النسوة حين ظهر على الباب، بامبيت السماك، الذي كان في نوبة مراقبة فوق السطح.

- هناك حريق كبير، قال، في حي سهل سان -ميشيل ...

وارتعد الجميع، لأن المثقف كان قد أنبأهم بذلك. وشرعت النساء في البكاء وتقدم الرجال جهة باب الأستاذ بانكراس، عندما ظهر هو على الدرج. وقدم له بامبيت تقريره.

- لقد أخبرنا بذلك صديقنا، قال بانكراس -والأمر الذي حذرنا منه لم يعد موضع شك، ولكن الفرصة لم تفت بعد. اسمعوني جيداً، وأطيعوني بلا نقاش، وبكل ثقة ... سوف نبدأ فوراً تحميل عرباتنا، ونفرش الأغشية على تمويننا. وعلى هذه الأغشية، سيمدد الرجال، والنساء والأطفال، نصف عارين، لكي يمثلوا أنهم جثث مصابين بالطاعون، وسوف أتولى مسألة إضفاء مظهر كريمة عليهم. والآخرين، سيرتدون الأردية ذات القناع، ويحملون المشاعل، وينشدون المزامير النائحة، وهم يقرعون أجراس الموت. وأنا على يقين من أن موكبنا بدلاً من أن يجذب اللصوص النهائيين، سيجعلهم يهربون، وبخصوص الجنود الذين يحرسون الحواجز، فلست أخشاهم، وأعدكم بأننا سنمر بلا أية صعوبة، إذا لعب كل واحد الدور الذي أحده له.

«أعدوا فوراً حمولات العربات -وأرجو ألا تزحمنا النساء بالأثاثات العائلية أو بالألعاب الأطفال، أو بالتفاهات غير النافعة التي تشغلهم طول الوقت تقريباً، عما هو نافع، وسوف أمر أنا لأؤكد من الحمولات ولن أقبل إلا الضروريات. هيا».

واستمرت استعدادات الرحيل طيلة النهار، فتم تشحيم العجلات، ورعاية الحيوانات، و تكوين أكياس الغذاء على العربات؛ وكذا براميل الخمر، والبنادق،

والبارود والرصاص والقماش. ثم اقتحم الأستاذ بانكراس كهف تاجر الجوخ المسكين.

- إنه والحال هكذا، قال، لم يعد بحاجة لبضائعه، على حين أن هذه البضائع نحن في ميس الحاجة لها.

وأقام في التو في قاعة الطعام بمنزله، ورشة خياطه كبيرة، من خمس عشرة امرأة اختيرت من بين أكثرهن مهارة، وبدأن بإعداد عشرين قناعاً، ثم بإعداد السترات الطويلة، ثم القفازات، التي لا يبدو منها إلا الإبهام. وأخيراً، عكفن على رسم أعطاه لهن الأستاذ بانكراس، وشرعن تحت إشراف الجابي، في إنجاز أربع حلل عسكرية، أو بالأحرى أربع حلل تشبه الحلل العسكرية، على مقاس جاران الشاب، ونيون، وبامبيت، والخياز وجبة كاهن للمثقف.

أثناء ذلك، عاد بانكراس، الذي كان قد اختفى، بعد ساعة، لكن دخوله إلى الورشة جعل النسوة تصرخن، وأصاب بالدهشة الأستاذ ياساكاي.

وبالفعل، فالشخصية التي، ظهرت كانت ترتدي زياً عسكرياً لضابط برتبة عالية، مكون من سترة زرقاء، وسروال من جلد أبيض، وحذاء من جلد أحمر بمهاميز فضية، وسيف بجراب ذهبي منقوش، وكان المعطف الأبيض المكمل للزي مبطناً ببطانة ذهبية ومزيناً بفراء السنجاب بما يجعله رداء شديد الفخامة حتى أن الحائكات اللاتي كن واقفات، لم تجرؤن على الجلوس ثانية.

- أهو أنت؟ قال الجابي.

- للأسف لا، قال الأستاذ بانكراس، لكنها مع ذلك كانت الشخصية التي قمت بها.

- هذا زي نقيب بالحرس الملكي!

- نعم، قال الأستاذ بانكراس، لكن هناك اختلافاً صغيراً، فياقة سترتي من

قطيفة صفراء، وهو مايدل على أنني كنت رئيس جراحين في هذه الفرقة اللامعة، برتبة النقيب.

وسرت همهمة إعجاب، وأضاف الطبيب، همساً:

- لقد كان من حسن حظي، أثناء حملة هولندا (وخلع قبعته ذات الريشة) أن عالجت المهيب المقدس جلالة الملك.

وتلألأت دمعة صغيرة بزاوية عينه، وخلع الجايي قبّعه بدوره.

- فجلالته، قال الطبيب بتأثر، كان ينزعج من الرياح المستديمة التي أخاف عنفها حصانه، ونجحت أنا في السيطرة عليها، ومنذ ذلك اليوم، ظلت ملازماً لشخصه المهيب حتى يوم وفاته الحزين. وبعد صمت، غير بانكراس من نبرة صوته، وقال بفظاظة:

- استعيدوا أدواتكم، أرجوكم، واهتموا بستره النقيب، التي يجب أن ترصع بجالونين من الأزوار الفضية ...

وبعد غداء سريع، تمت مواصلة العمل في عجلة شديدة، فقد شوهدت بالسماء على مسافة ليست بعيدة، حلقات ضخمة من الدخان وبدأ الرماد الخفيف في التساقط وتبييض عشب الحدائق. ولم يكن هناك بعد أي خطر حقيقي، لكن رائحة الحرائق أكدت ضرورة تعجل الهروب.

أثناء ذلك، انسحب بانكراس والأستاذ باساكاي إلى مكتب الجايي. الذ يلعبان به في العادة مباراتهما في الشطرنج. لكنهما لم يلمسا ذلك اليوم رقعة الشطرنج العاجية التي كانت موضوعة وعليها فيلان صغيران، وشرع الأستاذ باساكاي بتهذيب ريشتي أوزّ بعناية شديدة؛ ثم أضاف حفنة من السناج إلى محبرته. وأخيراً نزع من سجل حساباته ورقة، وراح ينسخ، بخطه الجميل المحكم، بضعة أسطر كان بانكراس قد كتب صيغتها، وكانت عبارة عن تصريح

مرور محكم الصنع موجه إلى قائد حاجز منطقة «الروز». وجفف حبر الكتابة برشة من البودرة الذهبية، التي راح يمررها على الورقة من طرف لآخر.

وأخيراً، أخرج من ملفاته صك بيع كان السيد موستييه مفوض البلدية قد وقعه عنده بمكتبه، ونقل التوقيع بسهولة شديدة جداً وتقليد محكم جعل الأستاذ بانكراس يصيح:

- ما أروع ذلك! إنه يحمل على الاعتقاد بأنك كنت تفعل ذلك كل أيام حياتك.

- لا، قال الجابي، ليس كل الأيام، ولكن لكل عمل ضروراته ...

وكان يجيد أعماله تماماً، لأنه أخرج بعد ذلك خاتماً من الرصاص، عليه شعارات مدينة مرسييليا، وطبعه بشكل واضح أسفل الصفحة، على قرص أحمر من الشمع الساخن برز منه شريط أزرق.

ثم راح يحدق في عمله، وفرك يديه، ثم قال:

- لقد أحكم عمله تماماً، والسيد موستييه مفوض الدولة نفسه لن يجرؤ على أن يقسم بأنه مزور ... وطوى الورقة الثمينة، وربطها بشريط أزرق أعرض من الأول، وأعطاه لبانكراس،

- الآن، قال بانكراس، سنسعد بتزوير المصابين بالطاعون.

ونزلاً إلى مكتبه، وكان المثقف والبقال قد أعدا فيه، بناء على أمره، كل أنواع المركبات اللازمة في دزينة من الأطباق. كان فيها حطب محترق، وصمغ، ومرابي، وعسل نحل، وشمع، وبودرة الزعفران، والحصى، والسناج، والكثان، وكل أنواع العجائن الملونة.

وبهذه المركبات، نسق الأستاذ بانكراس بشكل فني أربعين وجهاً وجسداً

وأثبت أنه يجيد شفاء الخراييج وأنه يجيد صناعتها بشكل بارع. وقد نجح عمله إلى درجة أن هؤلاء البؤساء خافوا من بعضهم البعض، وعندما ظهر اثنان منهم بالحديقة، سقط عدد من النساء مغمى عليهن، وراح باييت، الذي كان طيلة الوقت سائراً على أربع. ينبح نائحاً.

وعندما جرى إعداد المصابين بالطاعون، جاء الدور على المتوطين، فتم إلباسهم السترة، والقناع، والقفازات، ثم وُزعت عليهم الأجراس الصغيرة، التي انتزعت من على أبواب المنازل. وأخيراً أشعلت لعدة دقائق المشاعل الصمغية، التي صنعت من أشجار صنوبر الحدائق.

وحلت الليلة، حمراء، بجهة سهل سان -ميشيل، وتناول الهاريون آخر وجباتهم في صمت، بالاصطبل الكبير المغلق، بسبب شراسة الدخان الذي راح يهبط، بشكل أكثر كثافة، على الحدائق.

ولم يكن المصابون المزورون بالطاعون يشعرون بالراحة، لأن الطلاب الذي جف كان يشد جلد وجوههم -ويسبب حركة الفك كانت دامالمهم المصطنعة تسقط في الحساء.

كانت الوجبة سريعة جداً. وبكت نساء كثيرات لفكرة تركهن لمنازلهن وعفشهن، فقد كن يردن أن يحملن معهن كل شيء، لكن الطبيب، عند مراجعته لحمولات العربات، رفض ركوب قطبة، وصورتين كبيرتين لعواجيز وخمس دميّ لعجوز متزمتة لم تنجب أطفالاً. وعندما راحت تنوح بصوت عال، تمكنت بضع كلمات صداقية وربتة على الوجه من مواسة النائحة.

بعد العشاء، سمعت طقطقة الحريق، على الرغم من المسافة. وراح الأستاذ بانكراس، يهدوء كامل، يضيفي اللمسات الأخيرة على العرض.

وسُجبت العربات، واتخذ المصابون بالطاعون أماكنهم على الأغطية. وشجع

الأستاذ بانكراس المحتشمين، على أن يتعمى البعض منهم تماماً؛ ثم أسقط من حواف العريات بعض الأفخاذ، وكانت سوداء بشكل يتلاءم والموقف، وذراعين أو ثلاثة ممدّة بالمربى الحمراء المحببة التي راحت تتساقط من حواف العريات، ثم شوّه بعض الوجوه، بتورييمها بوضع قطع من الخبز بين الخدّ واللثة؛ ورسم نقطة صغيرة حمراء محاطة بالأسود على كل روم. وأخيراً، وضع في بعض فتحات الأنوف بعض لباب الزيتون الأسود، بدت كأنها تسيل منها.

وتم بل الأقنعة بالخل، وإشعال المشاعل وفتحت مصاريع الباب في هدوء.

ثم صعد بانكراس، بزيّة الرسمي الجميل، على عربته الصغيرة، التي أمسك جويو المعجوز بأعنة جوادها - وتقدم على رأس الموكب، الذي سار بلا ضجة. وعلى بعد خطوتين خلفه، علق القبطان نظارته المعظمة على صدره. ثم سار الجنود الأربعة ببنادقهم الطويلة على أكتافهم. وسار وراءهم راهب - لم يكن سوى المثقف - وهو يحمل كتاباً مفتوحاً، ويتقدم العريات، التي راحت تسير في هدوء بين صفين من المتوّيين الذين يحملون المشاعل الموقدة.

ولأنهم لم يقابلوا أحداً، تقدم الموكب في بداية الأمر في صمت، ونزل حتى الشارع الكبير الذي هو طريق الحرية - ولكن في اللحظة التي دلفوا فيها إلى الشارع. التفت الأستاذ بانكراس ورفع ذراعه. وبدأت الأجراس ترن بشكل حدادي، وراحت المزامير تتعالى صاخخة من وراء الأقنعة ...

لم يكن المثقف قد كذب. فقد بدت المدينة مهجورة، ولم تكن المصابيح الخماسية التي تضيء المدينة في العادة مشتعلة. ولكنهم على ضوء مشاعلهم، تمكنوا على الفور من تمييز بضع جثث ممددة على الرصيف، في الجمرى أو متقلصة على نفسها تحت السقائف، في أوضاع غريبة ... كما شاهدوا قطاع الطرق، لكنهم عند مرور الموكب اختفت ظلالهم التي بدت بسرعة في الليل.

وقد ساروا على هذا النحو حوالي الساعة، بالطريق الطويل الذي تحيطه

أشجار الدلب، الذي راحت العربات تقفز على بلاطه غير المستوي.

ومع هروب الجميع أمامهم، ومع وضوح منظر المدينة المقفر، تحول قلقهم إلى شعور بالاطمئنان، وبدأ الذين يلعبون دور المصابين بالطاعون يتبادلون النكات فيما بينهم همساً، ويقرصون الصغار منهم، الذين لم يستطيعوا تحمل مشقة كتم ضحكاتهم العالية الظرفية. وعند وصولهم إلى قصر - جومبير، الذي خمن بانكراس أنهم سيلتقون فيه بنقطة الحراسة، بعث القبطان إليهم ليعيد النظام للقافلة. ويسكت الموتى وحسناً فعل، لأنه رأى، عند انعطاف الطريق أربعة مصاييح موقدة على حين التمتع كرة في مبنى صغير أبيض. وتقدم جنديان، يناديهما في أيديهما.

- قفوا!

وتوقف بانكراس، واستدار للقافلة، وصاح بدوره:

-قفوا!

ثم تقدم صوب الجند، وسألهم بغلظة:

- أين ضابطكم؟

- إنه نائم، قال الجندي. ولسنا بحاجة إليه لنمنع مروركم. فممنوع مرور أي شخص، ومن يمر يقتل.

- نائم! صاح بانكراس باستنكار شديد. أبنام والمدينة بأكملها تحتضر! وتهدد العدوى فرنسا كلها؟

ولم يجرؤ الجنود المدهولون على الرد، لكن أحدهم، رفع مصباحه، وتقدم خطوتين باتجاه الطبيب. لذا تمكن من اكتشاف التفاصيل التي التمتع بزي بانكراس الرسمي، التي تالأت في الليل، فاستدار جهة الاثنين الآخرين،

وصاح:

- انتباه!

وهو مافعلوه في التو.

- لو أنه نائم، صاح بانكراس لايد من إيقاظه! اذهبوا بي إليه.

ولكن لم تكن بهم حاجة للذهاب إلى الكشك، لأن النائم، الذي استيقظ على صوت الأوامر، جاء صوبهم، وهو يرتدي على عجل ملابسه، وكان واحد آخر من حملة المصابيح يصحبه.

وما إن رأى بانكراس، حتى جمد في مكانه بحسب القواعد. ولأنه لم يكن يضع على كتفيه سوى شريطة واحدة. تحدث إليه الطبيب بصوت عال.

- أيها الملازم، قال، لقد أغضبني أن أرى رجلاً في موضع مسؤولية كبيرة كهذه، نائماً!

- سيدي الضابط، أجب الآخر، الذي كان محرجاً للغاية، إنني هنا في المناوبة منذ أربعة أيام، واحتمال الإنسان له حدود. ومن ناحية أخرى، لو أنني على سبيل الصدفة أغمضت عيني. فإن هذا الملازم يحل محلي.

وأشار بأصبعه على شبح تقدم في الظلام.

- أيها الملازم، قال بانكراس في غلظة، أين كنت؟

- سيدي الضابط، أجب الملازم، إن الطبيعة ليس لها حدود فحسب، وإنما لها حاجات أيضاً.

وافترغر بانكراس عن ابتسامة، وقال: إجابة معقولة.

ثم، وبنبرة صافية، قال:

- أيها السادة، تعالوا معي، بما أنه ليس من الضروري أن يستمع رجالكم لما سأقول لكم.

أثناء ذلك، توجه بخطوة وثقة باتجاه الكشك الذي أغلق بابه بعناية. وكان بداخله شمعدان يتوهج على طاولة من الخشب الأبيض، بالقرب من سرير صغير.

- أيها السادة، قال، إن المهمة التي كُلِّفَ بها لا بد أن تظل سرية، لكي لا يجن جنون الشعب. فالطاعون الذي يحاصر مرسيليا مازال من النوع الأقل خطرا حتى الآن، لكن الجراحين تيقنوا أخيراً من ظهور بعض حالات الطاعون الأسود. ولو أن هذا النوع من الوباء انتشر، فسوف يقضي على مدينتنا، وربما على فرنسا كلها، إنني مكلف، مع هؤلاء المحكوم عليهم الذين يرتدون الأقنعة، والذين يصحبونني بالذهاب ودفن هذه الجثث الرهيبة بإلقائها بمنجم الفحم القديم القريب من الألاوش.

- ولماذا لا تحرق هنا؟ سأل الملازم:

- لأن البخار الصادر عنها، كما قال الجراحون، قبل أن تتحول إلى رماد، كاف لأن يعدي كل المدينة.

ثم أخرج في التو من سترته لفافة الورق التي فردها بعناية على الطاولة.

- هذه هي الأوامر، قال، سأتركها لكم، بما أنها مرسلة لكم من القومندان، صاحب السلطة، والذي هو صديقي المقرب.

وأضاء الشمعدان على الأختام، والتوقيعات، وخط الأستاذ باسكاكي البديع. وأثناء ماراج الضابطان ينظران باحترام لتصريح المرور، أضاف الأستاذ بانكراس:

- أنا لست أحشى سوى شيء واحد، وهو أن عزيزنا أندرو لا ينجرو قاضي المدينة، الذي يرمى المستشفيات بنفسه، قد يموت بالعدوى. وذلك

سيكون خسارة كبيرة لمدينتنا وللمملكة ثم خرج، وهرع الملازم بسرعة شديدة ليفتح له الحاجز. ثم صاح برجالة:

- ابتعدوا عن هذه العربات، إذا كنتم حريصين على حياتكم.

وواصل المركب طريقه، تحت رعاية الضابطين.

- إني في غاية الأسف، قال الملازم، لأن ضابطاً كبيراً كسيادتكم يعرض نفسه لخطر كهذا.

- هذا لطيف منك، قال بانكراس. ولكن في ظروف كهذه، فالخطر واحد بالنسبة للجميع.

وأهداهما قبضة من الطباق، وراح يصعد لعربته، أثناء ما كان ستة جنود يؤدون التحية، ورفع الضباط سيوفهم تشريفاً له. وركب العربة، وحيّ الضابطين بعظمة، وعادوا الموكب السير بالليل، على حين جرى حراس الحاجز، هلعين من الطاعون الأسود، إلى يراميل الخل.

وما إن صاروا بعيدين عن أعين الجند، أسكت بانكراس الأجراس والمزامير، ثم أمر بإخفاء المشاعل، وكان التماح النجوم يضيء لهم بشكل كاف، على الطرق المقفرة ثم أعطى أوامره أخيراً بالتعجيل في السير خوفاً من التعقب، في حالة ما إذا تسلل الشك إلى نفوس الضابطين في حقيقة تصريح المرور.

وساروا على هذا النحو لمدة ساعتين، ثم طلع الفجر أخيراً على منجاح الرحلة.

كانت تمتد إلى يمين الطريق غابة صنوبر كبيرة مختلطة بأشجار البلوط، وعندما ظهر طريق من طرق الحطابين، دخل بانكراس فيه بحصانه، وتبعه كل الموكب تحت الأشجار. ثم بلغوا فرجة مضاءة بالغابة، وقد نما عليها عشب كثيف، وكانت مزهرة كلها بالخشخاش المنثور. وأوقف بانكراس حصانه، ونزل

إلى الأرض، وصاح:

قفوا!

عندئذ، خلع المحكوم عليهم قفازاتهم وأقنعتههم، على حين قفز الذين يمثلون دور المصابين بالطاعون إلى الطريق، ورفعت النسوة الأغطية. وراح الجميع يضحكون في سعادة، كالأطفال، وراحوا ينزعون عن أنفسهم خرايرهم، كما راحت الخيول ترعى بالطبع على الرغم من تقيدها لأعنتها.

وسمع فجأة صوت، هو صوت الخردواتي القصير، الذي كان قد توغل بالغابة؛ فقد وجد بركة ماء، وجرى الجميع ليغتسلوا.

وجلس الأستاذ بانكراس على حجر، ومد حذاءه لجوهر، الذي خلعه له، وراح يفرح له أصابعه المرضوضة. وأثناء ذلك، أعدت آلييت العجوز لسيدها ملابس المعتادة. وعلى مقربة منه، جلس الجاني وجاران الشاب على العشب.

- يا أصدقائي، قال بانكراس، لقد نجحنا في النصف الأول من مهمتنا. ومع ذلك فهناك خطر أن يتدارك الضابطان المهذبان ما فعلاه عند مرور أول مفتش يمر بهما، وهو السبب الذي جعلني أخلع هذه البدة التي يمكن التعرف عليها بسهولة شديدة. غيروا فوراً ملابس الجند، وأخفوا هذه الملابس التي قد تمكن من التعرف علينا في حزمة واحدة. نحن الآن على بعد نصف فرسخ من الألاوش؛ انظروا من خلال الأعشاب لهذه المجموعة من طواحين الهواء التي تعلقو التلال... إن وجودها يثبت لكم أن ريح الشمال تهب بشدة. وهي تتسبب بهذا الشكل في إخصاب هذه البلدة. كما تتسبب أحياناً في مصائب. وأتوقع ألا يكون الوفاء قد وصل إلى هنا، وأنه لن يأتي أبداً. لذا فسوف نذهب ونطلب اللجوء من هؤلاء السكان.

- إنني أخشى تماماً، قال الجاني، أن يرفضوا استقبالنا.

- إذا نحن عرضنا عليهم أن نقيم حجراً صحياً بالغابة، قال القبطان، فقد يقبلون، وبهذا الشكل لن يكون لديهم سبب للخشية.

- فضلاً عن أنني، قال بانكراس، لي هناك صديق عزيز، يعمل بالمنجم. وهو يدعى ليونار جوندرا، وهو أخي في الرضاعة. ومن المفروض أنه رجل شديد الأهمية في قريته، وأنا على يقين من أنه سيتحدث في شأننا.

وعاد المصابون بالطاعون من البركة، شافين معافين، وطالبوا بشيء يأكلونه. كانت شهيتهم مفتوحة. وراح الخردواتي القصير يعزف المزمار، ولكي ينشطوا أقدامهم المتخدرة، راح المصابون يأكلون وهم يرقصون بين أزهار الخشخاش.

وسلقت النساء البطاطس وفتحن برميلاً صغيراً من الأنشوجة، وقصدية زيت، وبرطمانين كبيرين من المري، حشوا بها البسكويت وراحوا يأكلون بشهية كبيرة، حين أزاحت الشمس في رقة السحب التي كانت تحيط بالأفق. وعندما بزغت، نهض الجميع عن بكرة أبيهم. وراح الجايي، الذي وقف على حجر كبير، يشكر الله بصوت عال، ثم عاودوا السير، وهم يثرثرون كالمتمتزين أيام الأحد.

أثناء تلك الرحلة الخلوية، قال بانكراس لنفسه إنه على الرغم من هذا الوقت المبكر فإن علينا أن نجد بعض الفلاحين وهم يعملون، وعلينا أن ننتهز الفرصة ونستفسر منهم ولكنهم لم يروا أحداً، وراح الطبيب يتوجس في أن يكون الطاعون قد وصل إلى هذه الأماكن.

وكان مخطئاً، فلم يكن الطاعون هو الذي منع الفلاحين من الظهور. وإنما كان الخوف. وساروا حوالي ساعة، ورأوا أخيراً، على قمة تل مجموعة من طواحين الهواء.

- ها هي الألاوش! قال الطبيب. لربما نجونا. هيا سيروا في نظام،

وابتسموا. وبعد عدة دقائق، ميزوا جمعاً من الرجال، كان ينظر إلى مقدمهم من أعلى ربوة وضبط القبطان نظارته، ونظر إليهم لحظة، وقال:
- إنهم مسلحون بالبنادق.

- في الواقع، لقد توجست في ذلك، قال الطبيب. ولكن علينا أن نطمئنتهم. ولو أننا تقدمنا ونحن نغني فلن يخافوا منا.
وعلا صوته في التو بأغنية من أغاني عيد الميلاد الريفية، وتعالى صوت الجميع معه، في الوقت الذي راح فيه المثقف، الذي كان يجزر أقدامه مترجعاً يضبط النغم.

ولم يتحرك جمع الرجال الذي يراقبهم - ولكن فجأة دوى صوت عال.
-قفوا!

وبرز رجل، على مبعدة عشرين خطوة من المغنين، من وراء حاجز. وتوقف الموكب وتقدم الطبيب صويه.

- قف على بعد عشرة خطوات، قال الرجل. إلى أين أنتم ذاهبون؟

- نحن ذاهبون إلى الألاوش، قال بانكراس.

- ومن أين أتيتم؟

- لقد جئنا من ضواحي مرسيليا، قال الطبيب.

- إذن، قال الرجل، فأنتم تحملون وباء الطاعون. ولن نستطيع استقبالكم.

- نحن لسنا مصابين بالعدوى، قال بانكراس، فنحن كنا نعيش بالحي الذي ظل سليماً. وأنا طبيب، وأقول لكم هذا عن معرفة ...

- كل ما يمكنك قوله لا يعني لي شيئاً. فكل ما يأتي من مرسيليا فاسد.

نحن لن نستطيع استقبالكم. ولا تحاولوا التقدم. ولو حاولتم تخطي شجرة الزيتون الكبيرة هذه، سنطلق عليكم الرصاص.

وتقدم السيد جاران خطوة للأمام، وقال:

-نحن أيضا لدينا بنادق.

- هذا ما أراه بوضوح، قال الرجل. ولكن لو أن مراقبنا قرع الجرس، فسوف ترون مقدم خمسمائة رجل. وسوف يقتلونكم حتى آخر شخص. فلا فائدة. وربما كان هذا فعلاً وحشياً، ولكن الطاعون هو المتوحش ؛ ونحن لدينا ألف امرأة وطفل.

- أنا أفهمكم، قال الطبيب. لكن يمكننا أن نعسكر في أحد هذه الحقول. تحت مراقبتكم، وإذا أعطى أي واحد منا خلال أسبوع إشارة تدل على مرضه...

- هذا غير ممكن، قال الرجل، فلو أننا تركناكم تمسكرون، سيأتينا المعات، لأنهم يجيئون في كل لحظة ... وليس أمامكم إلا العودة.

- لك ماشفت، قال الطبيب، ولكن قبل الرحيل أود لو أتحدث إلى أخي في الرضاعة. الذي يدعى ليونار جوندان فهل هذا ممكن؟

- آه ؟ هل أنت أخو جوندان في الرضاعة، الذي هو صاحب الطواحين؟

- نعم، قال الطبيب. قل له، لو سمحت، إن ماركيز مالوسين بحاجة إليه، ورفع الحارس طاقيته، وقال:

- سأذهب فوراً، ياسيدي الماركيز.

وابتعد بخطوة سريعة. وفوجئ الجميع بأن الطبيب كان من النبلاء، ومن عائلة من أعرق عائلات الريف.

- كيف! أأتكون أنت الماركيز مالوسين ؛ قال الجاني، الذي، عمل طويلاً

كطبيب للملك؟

- نعم، قال بانكراس. كان لي الشرف الكبير لأن أسهر على صحة قداسة المهيب جلالة ملكنا الحبيب لويس السادس عشر، وقد أحزنني حزنا عميقاً أن أشهد مرضه الأخير. وقد أثر بي موته بشدة حتى أنني تركت البلاط عقب جنازته، لكي أكرس حياتي للأنشطة العلمية.

وتخلق المصابون المزيفون بالطاعون حوله، مزهوين لكونهم عولجوا بواسطة طبيب الملك العظيم، وشعروا بالثقة التامة في مستقبلهم.

بعد مرور حوالي الساعة، شوهد من بعيد وصول بغلين محملين بالبرادع، يقودهما رجلان، كان المراقب يقتاد جوندر، الذي راح يجري ما إن رأى الماركيز. وكان عجوزاً في الخمسين، أبيض الشعر. لكنه كان مازال يحتفظ بمعظم أسنانه، ويبدو محافظاً على كل قوة شبابه.

حكايات لانيو العاطفية

كان لانيو* في السادسة عشرة من العمر، وكان عليه أن يتحلى بهدوء المتدينين بسبب اسمه وكان سميناً، مستديراً، بوجنات شاحبة متهدلة وأنف صغير منمنم للغاية، وأعين سوداء، وشعر أسود مجعد. وهذه التفاصيل لاغنى عنها لفهم العاطفة العنيفة التي كان يحس بها لطفلة ظريفة، تدعى إيندوس. كنا في عيد الفصح وكان لانيو يستعد لامتحان البكالوريا ال رهيب. وكان يجلس إلى جوارى بقاعة المذاكرة، وفيما بين محادثتين أو بعد دور من أدوار لعب الورق، التي كنا نلعبها على الدكة، كان يعكف على المسائل المخيفة ويتدرب على أن يقوم بأعمال متعددة. وكان يخشى على نفسه أحياناً من ألا يفهم ويقول لي همساً بأنه كان دعياً حين غضب من أن أباه وضعه في مجموعة المذاكرة وأنه نادم للغاية على الوقت الذي ضاع، ولكن هذا لم يمنعه مع ذلك من أن يضيق الوقت ثانية. ففي كل مساء، من السابعة إلى الثامنة، كان يذهب للتنزه بالسهل، الذي هو، كما يعرف الجميع، أجمل ميادين مرسيليا، وهو الذي يعج بأشجار الدلب الرائعة.

ذات صباح، جاء إلى المدرسة، مرتدياً بزهو بذلة بيضاء ؛ وعلى رأسه قبعة ذات ريشة وإطار عريض، كان يدفع بها إلى مؤخر رأسه، كأنها هالة تحيط بها. وأعلمني همساً بأنه لكي يثبت أنه جدير بسخاء أبيه يرغب في النجاح بالبكالوريا، وأنه لكي يبدأ هذا المشروع اتخذ القرار القاطع بأن يعكف على العمل ابتداء من الأسبوع المقبل. ولفت انتباهه إلى أنه سيكون من الحكمة أن

* بالصفحة الأولى من هذه المخطوطة التي يعود تاريخها إلى عامي ١٩١٩ - ١٩٢٠ كان اسم «لانيو» مكتوباً هكذا «L'agneau» أي «الخروف». ولقد قمنا بضبط هجاء كتابة الفصول التي تقدمت من أجل التسهيل على القارئ.

يبدأ البرنامج في التو، ولكنه أشار لي بأن ذلك أمراً مستحيلاً، لسبب قاطع، وهو أنه بدأ بالفعل في تحضير جدول عمله.

وكان جدول العمل هذا يبدأ في ٢٦ مايو، مقسماً سلفاً على كل أسبوع جزءاً من برنامج الامتحان. وعلى هذا النحو يتمكن من مطالعة كل المواد قبل ٢٠ يونيو. ليتبقى له عشرة أيام على أول يوليو يقوم فيها بالمراجعة العامة.

- وليكن في علمك، قال لي، أن كل شيء محسوب حسابه ومبرمج بشكل دقيق. فإذا بدأت اليوم كما تقترح على! فإن ذلك سيخرب جدولي! وسيكون الفشل مؤكداً حينئذ! أما عن البدء بالمراجعة العامة فوراً، فإن ذلك مستحيل؛ لأننا لا نراجع إلا ما نطالعه؛ وأنا لم أطلع شيئاً. وكان حازماً في رأيه، وأبدته في ذلك.

وبما أنه كان قد تبقى له أربعة أيام قبل أن يقلع عن كل المتع، قرر من فوره أن عليه أن يستمتع قدر طاقته. وأمسك بريشته الجميلة، وكتب، بخط مرتجف، رسالة صغيرة على ورقة مقواة جميلة كان قد أعدها لذلك. هذه الرسالة تعلم السيد المراقب العام بأن والدته لانيو، المريضة مرضاً شديداً، بحاجة قاطعة، هذا المساء، لأن يخدمها ابنها؛ وبالتالي، فهي ترجو الإدارة أن تصرح لابنها بمغادرة المدرسة في الساعة الرابعة.

وما إن وضع لانيو هذه الورقة في شنته، حتى شرع معي في لعب دور ورق لم نقطعه إلا بسبب فسحة الساعة العاشرة، ثم واصلناه، بقاعة المذاكرة حتى الظهر.

كان السيد المراقب العام يستقبل الطلاب بمكتبه ابتداء من الساعة الواحدة، لذا تركني لانيو حوالي الواحدة إلا خمس دقائق، وراح يقدم، بيد ترتجف، الورقة التي كتبها. ولو لا سمح الله خمن الرجل هذه الخدعة! لترك لانيو

ولكنكم سوف ترون ماحدث.

في الساعة الرابعة، خرج لانيو بعد أن ألغ حذاءه بذيل سترة أحد الغائبين. ومشط شعره بعناية، وأعاد قبعته إلى مؤخر رأسه وذهب مسرعاً. وكان اليوم التالي، يوم أربعاء وحكى لانيو لي مغامرته الرائعة. فقد كان يسير متنزهاً على السهل وهو يدخن بتلذذ السجائر الإنجليزية.

آه ياعزيزي لقد فكرت فيك. كنت على وشك أن أقول لنفسي إنك كان يمكنك جداً أن تجيء. وفجأة، شعرت بنظرة تنصب عليّ؛ ورفعت رأسي، لأرى، بالدور الأول لمنزل فخم، وجه فتاة شابة تنظر لي في خجل.

ثم أسدلت الستارة في التو. ولم يستمر هذا أكثر من ثانية. لكنني ظللت واقفاً في مكاني، مفتوناً بجمالها. تصوراً عينين واسعتين، سوداوين، ناعمتين، محاطتين بأهداب طويلة سمراء، بالقرب من يد دقيقة بيضاء كانت ترفع الستارة.

أنت تدرك بالطبع أنني لم أشأ أن أمضي من المكان بغير أن أراها ثانية. وواصلت نزعتي، فمررت تحت نافذتها عشر مرات بغير أن أرى شيئاً. ولكنني شعرت، عند اهتزاز الستارة، بأن العيون الجميلة كانت خلفها، ترى من تكون الشابة الجميلة ؟

فكرت طويلاً بغير أن أحيل بصري عن النافذة. ولم أصل إلى شيء بالمرّة... لكن يداً رُبت على كتفي. فاستدردت، ورأيت ييلوك، طالب الرياضيات. كان يدخن غليونته الكبير الذي يططبق والذي له أنبوب طويل معوج يصل حتى فتحة صدرته، ووجه لي بعض المجاملات على انفاقي ثم سألني عما أبحث.

- ييلوك، قلت له، سوف تخدمني خدمة كبيرة.

فكشر، ووضع يده على أذنيه وقال لي: اطلب.

- من يسكن هنا، بهذا المنزل ؟
- حبييتي، قال بيلوك بصوت واثق.
- حبييتك؟ رددت، في ذهول ... أنت ... ؟
- بالضبط. فمئذ ثلاثة أشهر وأنا أغازلها، وأقابلها كل مساء. أهي حلوة،
مارأيك؟

- نعم، قلت. رائعة. فما أجمل شعرها الأسود!
- أسود؟ أنت لم ترها جيداً، بالطبع، إنها شقراء.
- شقراء، كيف؟
- نعم، شقراء بعينين زرقاوين، إنها نورماندية جميلة في العشرين من
عمرها وهي مجنونة بي.
- هناك خطأ ما، قلت. فقد رأيت توأماً بهذه النافذة فتاة جميلة في حوالي
السادسة عشرة من العمر، سمراء ذات أعين سوداء وغائرة
- إنها الصغيرة، قال بيلوك، ابنه صاحب المنزل. لقد كنت أحدثك عن
الخادمة.

- وما اسمها؟ وماذا تفعل؟
- هل أنت مغرم؟ قال بيلوك. أنت تخطي هكذا. فمع الفتيات الصغيرات
على هذا النحو لا يوجد أبداً حب. وأنصحك من الآن أن تبحث لك عن
خادمة شابة.

- ماذا تدعى؟ سألت ثانية.
- لوسيين، قال بيلوك. أبوها مهندس. طوله متر وتسعون وأعتقد أنه مفترس

وهي تذهب إلى المدرسة الثانوية، وكل صباح تصحبها الخادمة. وأنا أتبعهما من بعيد، ثم أصحب الخادمة في العودة. وبالطبع لهذا السبب أذهب كل يوم للمدرسة في الساعة الثانية وأعاقب بالاحتجاز كل خميس.

وسحب نفساً من غليونه، وبصق بعيداً جداً، ثم قال لي وهو يضع إبهاميه في جيبي صدريته:

- ماذا تريد! إنه الحب ...

- هل أنت متأكد ؟

- بالتأكيد.

- ولكن كيف نظرت إليك؟ فطريقة النظر هي الموضوع، قال بيلوك. فأنا أنظر لك، ولكنني لست مغرمًا بك، لذا لا بد من التأكد.

- لاشيء أسهل من ذلك. لنفترق وراقب النافذة أثناء سيرتي عندما أوليها ظهري.

وبعد عشر دقائق من رواحي ومجيجتي، أشار لي بيلوك بأن أنزل إلى شارع بيرجير؛ وجاء ولحق بي وقال لي:

- أجل. إنه الحب. هل تعرف ما الواجب عمله؟ سوف تعد خطاباً. مكتوباً فهمت؟ وستعطيه لي؛ وسوف أرسله لها مع الخادمة.

- وهكذا، خلص لانيو وهو ينهي حكايته إلى أنه سيكتب الخطاب. ثم أخرج من شنتطته ورقة بنفسجية بديعة، معطرة عطراً جميلاً.

- حسناً قلت له، أكتبه. فلديك وقت من الآن وحتى المساء.

- ولكنني، تابع لانيو، غير قادر. فلست قوياً في الفرنسية ...

وبالفعل، لم يكن قوياً بالفرنسية، ولا في باقي المواد، كذلك.

- عليك أن تساعدني، وأن تجهز لي أنشودة صغيرة. فأنت تجيد ذلك.
وكان في ذلك إطرأء لي، فوافقت - بشرط ألا يقول لي لانيو كلمة أثناء
هذه العملية وأن يشغل نفسه بشيء آخر. لذا فقد فتح كتاباً في الجبر وبذل
جهداً عثياً للاستغراق فيه.

أما أنا، فقد تفرغت لربات الشعر وشرعت في العمل. وما كدت أنتهي من
بيتين فقط حتى راح لانيو يقذفني بالنظرات المستعجلة. وعند انتهاء الرباعية
الأولى راح ينظر إليها خلصة من أعلى كتفي فانتشى. وقرأها مرتين ثم قال،
بصوت جذل:

- إنها موزونة!

وبعد نصف ساعة، انتهيت من كتابة الرائعة التالية:
سرت، على مهل، تحت أشجار الدلب البادرة
فالسهل، بعد مرور الشتاء، يبدو مزهراً
وكنت أحلم بالحب، للأسف، بغير أن أعرفه
وكان دمي، الذي يتجدد كل ربيع، يتدفق بشراييني
ولقد شعرت فجأة بسعادة خفية
ويدفق من الحب يغمر كل كياني
فرفعت رأسي، صوب النافذة العالية
ولحت وجهاً مقدساً يتسم ويختفي
باللعيون الجميلة الأصفى من أصفى البنايين
المطلة في ذلك الجمال المطرق، الذي تباعد ما إن ظهر

وجعلني أظل صامتاً بمكاني، متجمداً، زائغاً

ومضيت متأخراً، في الظلمة القاتمة

لكن هذه النظرة السحرية التي لا توصف

مازلت أشعر بعبقها في نفسي إلى الآن.

كانت موزونة، ولم أتشكك في وزنها لحظة. وراح لانيو، بمتابعتي، يكتب
النثر الذي سيرافق القصيدة.

كان لانيو يرى في بادئ الأمر أن يقدم نفسه بصورة المليونير الشاب المصاب
بالسل ؛ وقد أثبتته عن ذلك ؛ وبناء على نصيحتي، قدم نفسه على أنه رياضي
بارع، وشاعر جديد ؛ وراح يروج رؤية إلهامه الصغيرة أن تطل من نافذتها كل
مساء حوالي الساعة الخامسة، لكي يتمكن من النظر إليها من بعيد.

وعندما وجدته يفعل ذلك. ثرت وشرحت له أن هذا لم يكن أمراً معمولاً
حسابه في جدولته. وأجابني بأنه سوف يصلح ذلك ؛ وراح يخرج كل يوم في
الرابعة. بما جعله يخسر بهذا الشكل كل يوم ساعتين من العمل ؛ لكن هاتين
الساعتين كان يعوضهما في المساء من العاشرة حتى منتصف الليل. وكان أمراً
سهلاً بالنسبة له، بما جعلني أعجبت به.

وتم إرسال الخطاب عبر بيلوك والخادمة ؛ ووصلت الإجابة بعد يومين.

وكانت مكتوبة بهذا الشكل :

أيها السيد،

لقد أسعدتني وفاجأتني رسالتك الساحرة، ولقد لاحظتك بالفعل، عندما
جئت ذلك المساء إلى السهل، ولا أخفيك أنني سعدت باهتمامك. إنني أبلغ
من العمر السادسة عشرة وأذهب إلى المدرسة الثانوية وأدرس بالصف الرابع. ولا

يسمح لي أبي بالخروج إلا في النادر لأننا لدينا حديقة بالبيت أتزده فيها ؛
وسأكون بانتظارك بالنافذة، كما طلبت، كل مساء في الخامسة. فضلاً عن أن
ذلك بالنسبة لي عادة تعودت عليها من زمن طويل. وإلى اللقاء هذا المساء.

حبيبتيك

ولم توقّع الرسالة. وهو ما لم يمنع لانيو من أن يهذي من السعادة. فقد فتح
كتاباً، في قاعة الدراسة، وتظاهر بالاستغراق الشديد. لكنه ضحك بصوت عال
فجأة، وراح يفرك يديه ويهز الدرج. وفي نهاية هذه التصرفات التي راح يكررها
عدة مرات، انحني باتجاهي وأسر لي: إنها مغرمة بي! وأجبت عليه بابتسامة، ثم
أشحت عنه بصري.

وقد جلبت، عليه هذه التصرفات عدداً من عقوبات الاحتجاز، ولم يمنعه
ذلك من الضحك، ومن أن يجد أن الحياة جميلة. في الساعة الواحدة، ذهب
إلى المراقب العام برسالة جديدة، مزوراً فيها مرة أخرى توقيع والدته، مؤكداً فيها
أن هذه السيدة القوية، أثقلها المرض، وأنها بحاجة إلى ابنها كل مساء، في
الرابعة ولمدة غير محدودة. وحصل على التصريح.

وللأسف! جرّني معه إلى الهاوية، فلرغبته في أن يكون معه شاهد على
سعادته حرّضني على أن أحصل، باسم أبي، على تصريح ليوم ؛ وفعلت ذلك.

وقد اضطربت يدي عندما مددت للمراقب العام، رسالة أبي المزيفة ؛ لكن
هذا الرجل لم ينتبه لذلك بالمرّة، وفي الساعة الرابعة، بعد أن تزينت بعناية،
خرجنا. وكان لانيو طائراً من السعادة ؛ وكان يعيد عليّ مسامعي بلا توقف:
سوف تراها ! سوف تراها! كم هي جميلة! بالسحر عينيها! بالظرفها! بالجمال
شعرها! إلخ. ورحنا نجلس على دكة، في مواجهة النافذة الشهيرة.

كان يجلس إلى جوارنا رجل عجوز، يكح ويصق بلا مبالاة، تخاشينا النظر

إليه تماماً ؛ ثم ، انفتحت النافذة ، في الساعة الخامسة .

وصار لون لانيو قرمزيًا ، ثم نظر إلى جميلته وقال لي همساً : إن الجو خائقي بعض الشيء ولم يكمل ؛ ولكنني رأيت بوضوح أنه كانت لديه رغبة شديدة في الهرب .

بالنسبة لي ، وبغير أن أخشى أي اختناق ، نظرت إليها ؛ ورأيت فتاة جميلة في السادسة عشرة . نحيفة بعض الشيء ذات شعر معقوص أسود يوطر وجهها الشاحب المحمر . كان لها فم صغير جداً ، وأنف صغير مستقيم ، وفوق ذلك ، كانت لها أعين ساحرة ، واسعة ذات الشماعة رقيقة تطفر من لؤلؤتين سوداوين . وتظاهرت في بادئ الأمر بأنها لا تنظر إلينا . ثم تجرأت . أخيراً ، وحدقت بعينيهما في لانيو ، الذي هدأت من روعه بعض الشيء ، الشتائم التي رحت أكيها له ، فرفع رأسه وراح يمعن النظر إليها .

وما إن شرع ثانية في الشعور بالخجل ، حتى رحت أعنفه بصوت خفيض بهذه الألفاظ .

- ارفع رأسك ، أيها الغبي ، وانظر إليها ! أيها الفظ ، لا يجب أن تظهر بهذا الجبن ... لكن لانيو كان قد هرب ، ولم أجد أمامي إلا أن أتبعه وأنا ألعنه .

وابتداء من اليوم التالي ، لم يبد عليه ، رغم ذلك ، أنه ارتدع من هذه الهزيمة ، وطلب مني أن أعد له قصيدة جديدة . وكتبت له أنشودة ثانية ، جعلتني مقاطعها الأخيرة ، ولا بد أن أعترف بذلك ، أبكي بكاءً حاراً .

في السماء الصافية ، تنشر الليلة ذات الأعين الفضية

أشرعتها الطويلة وهي مسترخية ، وتشعل نجومها

وأنا أرى وجهها عابثاً يرسم عليها

أجل أعرفها جيداً، هذه الأعين الواسعة، إنها هي

وهذا الصوت البعيد، الرقيق الذي يناديني

إنه صوت حبيبي الخفي الذي يرقص في قلبي.

وسعد لانيو مرة أخرى. وقد رأيت خطابه الذي كان حاراً جداً؛ ولم يحدث أبداً أنه كتب واجباً في الفرنسية بأسلوب يعادل هذا. فقد ناسبه الموضوع، كما يقال. وكان مقداماً، إذ راح وريشته في يده، يتحدث برقة عن قبلة مستحيلة.

وتم إرسال الخطاب، وقضى لانيو بقية اليوم نائماً على الدرج، لكي يعوض، كما قال لي، الليلة المتعبة التي قضاها.

في اليوم التالي، أتى منتعشاً وسعيداً، وحكى لي عن العمل الكثير الذي قام به، فقد انتهى من جزأين من برنامجه؛ ولقد استوعبهما جيداً. ويمكنك أن تقسم بالتأكيد أنه قد نام اثنتي عشرة ساعة ولم يفعل شيئاً.

وقص علي بكافة التفاصيل مقابلة أمس. فقد ابتسمت له ثلاث مرات، وألقيت له بوردين وراحت تنظر له برقة، ثم بوله. وفي التو، كتبت له خطاباً جديداً، رداً على خطاب وصله في الصباح، وهو الخطاب الذي التهم منه ساعة العمل من العاشرة إلى الحادية عشرة، وهي الوحيدة التي كانت قد تبقت له من اليوم، والتي انضمت إلى الساعات الأخرى ليجري تعويضها من الواحدة إلى الثانية صباحاً.

وما إن اتخذ هذا القرار، حتى شرع في خطابه الجديد، وهكذا استمر حاله شهراً. ولم يشعر لانيو إطلاقاً بالعناء الكبير الليلي، وقد أحدث بعض التقدم بالفرنسية بسبب المخطابات التي كان يكتبها كل يوم. وكنت أضع له قصيدة كل يوم تقريباً.

وتعاطف إيقاع التراسل شيئاً فشيئاً. فبعد الحديث عن القبلة المستحيلة، سألتها

لانيو لو أن بمقدوره مع ذلك تحقيقها ؛ فقد أراد أن يثبت ربما، ثانياً أن كلمة مستحيل ليست فرنسية.

وبعد أن تخلت الفتاة عن بعض خجلها، انتهت بأن حكّت له أنها رأته في أحلامها، وأنها حلمت بقبلات حارة طويلة ؛ ورد لانيو عليها بأنها هي حياته، ومعشوقته وكنزها الغالي ؛ وبلغ به الأمر أن قال أنه في الحلم رآها على حافة نبع، عارية تماماً، يعتق من الممر، وفخزين فائتين متناسقتين، وتحدثت هي عن النوم على صدره ؛ ورفع الكلفة معها تماماً. وردت كاشفة له بأنها لها حسنة على كتفها الأيمن، وأخرى، جميلة جداً، تحت نهدها الأيسر. وراح لانيو يأكل صمغ أطرف الخطابات الذي لمسته بشفتيها. ويمضغ الزهور التي قبلتها ؛ وراح كل من هذين الشخصين البريئين يبنّي صروحاً خيالية بطريقة تدعو للقلق.

ورغم كل جهودهما حالت يقظة أبيهما دون حدوث لقاء بينهما. وأحياناً، بالطريق، كان الحظ يسعدهما بأن يمر أحدهما بالآخر عن قرب. في تلك الأيام، كان لانيو يتغير تماماً فكان يضحك مجلجلاً بالفعل، ويسير على يديه بالمر.

أما ييلوك. الذي كان يقوم بدور ساعي البريد. فقد كان يقول معظم الوقت أنهما يكتبان كثيراً، وأنه، نظراً لهذا الحجم من الرسائل، فإن أباهما ستقع في يده ذات يوم إحداها.

أيضاً، كان لانيو ما إن يرى من بعيد، بالشارع، مرور بعض المارة من عليه القوم، حتى يفر هارباً بغير أن يشعر بالخجل.

ذات صباح، وجدت لانيو مشغولاً بإعداد جدول عمل جديد لنفسه .

- ماذا تفعل ؟ قلت.

- وجدتھا، أجب، لقد لاحظت أنهم بالكالوريا، لا يسألون إلا في بعض الموضوعات المحددة، التي تكاد تكون نفسها كل مرة. وفي الفرنسية على سبيل المثال، يسألون في راسين وكورني وفي الفيزياء حول قانون الكهربية، وماكينة جرام، إلخ، وبالتالي يكون من الغباء أن يذاكر المرء باقي ما في المناهج. وأنا مقتنع بذلك. لذا فقد حذفت، تابع، كل الموضوعات التي لن يسألونا فيها؛ بعضها لأنهم لا يسألوا فيها أبداً، والبعض الآخر لأنهم سألوا فيها العام الماضي.

ولفتت انتباهه إلى أنه بهذا الشكل لن يبق إلا موضوعات قليلة.

- تقريباً لن يبق شيء، قال لي فخوراً. تقريباً لا شيء.

- وماذا لو بالصدفة، سألوك في واحد من الموضوعات التي حذفتها؟

ونظر لي لانيو باحتقار:

- إذن سيخطئون. ويشتون أنهم بلهاء كما أنني أستبعد مثل هذا الاحتمال..

وأحبطت إجابته سؤالي تماماً؛ وأعلن لانيو أنه سيبدأ في العمل بنفس المساء من أجل المذاكرة حسب الجدول الجديد.

ومر أسبوعان. كل مساء، كان يذهب ويجلس على الدكة الشهيرة، وينتظر، حتى يرتفع الستار، كما يقال، وكنت أرافقه في بعض المرات، أيام الخميس. وكان الحبيبان، المتجمدان على وضع الإعجاب الصامت، يحدقان كل في الآخر. كان يبدو عليهما كليهما أنهما غارقان في النيران الهندوكية. وصار إيقاع التراسل في أوجه، وطفحت بالرسائل خزانة لانيو وكان ييلوك، الساعي، يقول لي أحياناً: إنهم يكتبون كثيراً. وهذا بالقطع ليس الحب الحقيقي ولن تسير الأمور على مايرام ...

وجاء يوم البكالوريا. وتجمعنا من الصباح، في فناء المدرسة حيث بدأ أول

الامتحانات.

كان بيلوك موجوداً وهو يدخن غليونه الخالد. وبوليب المخترع ؛ ويابي، من الصف الأول أ، الذي ارتدى قبعة منفوخة وراح يدخن سيجاراً إيطاليا ذا رائحة نفاذة ؛ كما كان موجوداً أوى، المبتسم، ذو الأذنين البارزتين عن رأسه حتى تبدوا كأنهما معلقتان بخيوط في حافة قمعته، ومعه محبرة لم تستخدم في يده وهو يدخن سيجائر ثري كاستيلز ؛ ثم آفت، الذي راح يتنقل من جمع لجمع، مرتعشاً وقلقاً، يسأل كل واحد: ترى بماذا سيسألوننا، في رأيك؟

هل تعرف قوانين الكهرباء؟ هل راجعت البصريات؟ ثم يهز بيللوش، الضخم أكتافه ويقول بابتسامة عريضة: لا يهمني، لا يهمني ... ليسألوا ما شاؤوا، أنا لا أعرف شيئاً ... والأمر عندي سيان ...

ومن وقت لآخر، كان يصل واحد فيحييه الآخرون في جلبة: ها هو بيدروكا! تعال هنا، ياحليوة! هذا ميرلو. تعال يا بطيخة ...

وأثناء هذه الجلبة رأيت لانيو آتياً.

- حسناً، قلت له، هل الأمور على ما يرام؟ هل أنت مستعد؟

- هذا يتوقف عليهم، قال وهو مكتئب.

- كيف يتوقف عليهم؟

في هذه اللحظة سأله بيلوك.

- أنت يا، أيها العاشق! أبلغت بك الوقاحة حد أن تتقدم للامتحان!

ألا تستحي! ما أجراك!

وراح يتعجب.

- ماذا؟ ماذا تقول؟ قال لانيو. أنا لست أغبي من واحد غيري!

- أنا لم أكل هذا، قال بيلوك وهو يقترب. لقد قلت فقط أننا عندما نقضي ثلاثة أشهر نحقق في نافذة، فنحن لا نكون مستعدين للنجاح في امتحان. فما رأيك يابانيول؟

- أنا أقول، أجبت، إنه يبدو أن عندك حقاً. ولكنك تجهل بالطبع أنه كان يعمل كثيراً في الليل.

- أهو الذي قال لك هذا؟ تابع بيلوك. وهل كانت لديه أي طاقة للعمل ليلاً؟ لا، لا تقل لي هذا!

ووضع، غليونه في فمه، وقال بعد لحظة صمت:

- قل لي إذن، يالانيو، بغير هزل، ما هي الأجزاء التي لم تذكرها بالمنهج؛ فبالطبع توجد أجزاء لم تذكرها، أضاف بنبرة متعاطفة.

- الواقع، قال لانيو متحيراً بعض الشيء، أنا أفضل أن أقول لك ماهي الأجزاء التي ذكرتها، فأنا ذاكرت جيداً ماكينة جرام، وكورني، وتنوع الوظائف وبالإنجليزية أستطيع كتابة موضوع عن غروب الشمس. هذا ما أعرفه. وذعرت بعض الشيء وقهقهه بيلوك.

- هكذا! وجيء لامتحان البكالوريا بهذا الشكل! تعرف سؤالاً واحداً في كل مادة! واحداً فقط!

وردّ لانيو بهدوء، رداً جديراً بأن نتحفّظ عليه. فقد نظر إلى بيلوك ببرود، وقال:

- إنهم لا يسألونك سوى سؤال واحد في كل مادة.

في هذه اللحظة، انفتح الباب الكبير. وبدأ الحاجب ينادي على الجميع، من قائمة طويلة، وأسرعنا بالإجابة. ثم، أدخلنا، واحداً واحداً. وأرشدنا أساتذة

مسنون إلى أماكننا على مناضد طويلة. جلس فيها كل متقدم منا للامتحان على بعد مترين من جاره، ولتحاشي أي غش، جلس كل طالب بتخصص الأدبي بين اثنين من طلاب تخصص العلمي.

كانت القاعة كبيرة جداً، وذات سقف مقوس، على ارتفاع خمسة عشر متراً من رؤوسنا وكانت الشمس تغمر المكان، من نوافذ مفتوحة. وعندما اتخذ الجميع أماكنهم، ذهب واحد من هؤلاء السادة المسنين الأجلاء إلى المنبر المرتفع في آخر القاعة، حاملاً كيساً أصفر، أراه لنا برفعه بطول ذراعه، وهو يفتح فمه بعدة طرائق مختلفة ومتتابعة ولم أسمع شيئاً، لكنه كان يتكلم على مايلدو... وفهمت مع ذلك، نظرا للظروف، أنه يرجونا التأكد من أن ختم الشمع الأحمر على مظروف النصوص سليماً. ولم يكن هذا يعني في شيء وتقربت توزيع المظاريف.

كان امتحان اللاتينية سهلاً، وانتهيت منه سريعاً. وعندما رفعت رأسي، رأيت، على بعد ثلاث مناضد، وجه لانيو المتحسر. فهم لم يسألوه بالطبع في السؤال الوحيد الذي استعد له ملخصاً فيه كل المنهج. واستعلمت من جاري أثناء انشغال المراقبين للخطبة بالتحدث مع بعضهم.

- إنه نفس موضوع امتحان العام الماضي، قال لي.

وهكذا، أثبت واضعو الامتحان في نظر لانيو أنهم حمقى، وأعطوه سؤالاً لم يكن قد ذاكره بالمرة ...

بعد الظهر، بامتحان الانجليزية، أجاب بما يعرفه في سؤال أعطوه لنا حول ماكبث. وعندما نخرجنا شرح لي كيف أنه نجح في أن يدس الموضوع الذي يجيده حول غروب الشمس.

- انتبه لهذه الحركة، قال لي. لقد بدأت هكذا؛ يتحدثون كثيراً عن

ماكيت، ولكن الطريقة المثلى لقراءة هذا العمل الشهير، تتمثل في أن نذهب للجلوس تحت شجرة صندل، ونضع الكتاب مفتوحاً على ركبنا، ساعة غروب الشمس ...

- وماذا عن ماكيت؟ ما الذي كتبته عنه؟

- لقد لخصت الحكاية، بشكل تقريبي، كما تعرف...

- إذن فأنت تعرف القصة؟

- بشكل عام. إن الناس جميعها تعرف القصة بشكل عام، فهي قصة المغربي الذي خفق زوجته. ويقعة الدم التي لم تختف أبداً. وعبارات: سوف تصير ملكاً ... وأكون أولاً أكون ... ووجدت من العبث أن أجادله.

- لقد أجبته بشكل جيد جداً، قال لي. ويمكنني أن أتوقع أن أحصل على خمس وعشرين درجة.

وكان يبدو واثقاً، بشكل يثير الإعجب.

في اليوم التالي، خرج متألماً من امتحان الرياضيات. فقد جاءه السؤال الوحيد الذي يعرف إجابته. وينفس الشكل، في الفرنسية، اختار شرحاً لنص لكورني وراح يفرك يديه بسعادة. وانتظرناه بالخارج مع بيلوك.

- لقد انتهى الامتحان، قال لنا، أنا متأكد أنني نجحت. في الفيزياء لم أعرف الإجابة. ولنقل إنهم سيعطونني بها خمس درجات من أربعين. لكنني في الإنجليزية، سأحصل على خمس وعشرين درجة. ليكون المجموع ثلاثين درجة. وفي الفرنسية، مع مافعلت، لن أضع أكثر من خمس وعشرين. وهكذا أحصل على خمس وثمانين درجة. لذا فقد نجحت بزيادة خمس درجات عن المطلوب.

وكانت تلك آمال عريضة.

عندئذ أخرج ييلوك من جيبه خطابين من معشوقته الحبيبة.

- فيهما خطاب من الأمس، قال. لم أعطك إياه لكي يكون عقلك متفرغاً للامتحان، وفتحهما لانيو بسرعة ثم أعطاهما لي في التو لأقرأهما. وراح في نفس الوقت يقفز قفزات عالية، ويلقي بقبعته في الهواء، ويتلقفها وهي طائرة، ثم وضعها على مؤخرة رأسه، وراح يصيح:

سأكلهما! سأخذها بين ذراعي! هورا! هورا! أحيروا! أحيروا! ياه! وكل الصيحات الغريبة.

وفهمت السبب عندما قرأت الرسالة الثانية، التي أعلمته فيها لوسيين المتقدمة أنها ستذهب، في الثامن من يوليو، إلى سوق خيرية أقامها عدد من جهات البر، مدعو لها كل طلاب الثانوي: وأن أباهما لن يستطيع الحضور وأن خالة عجوز طيبة ستصحبها. وأنهما يوسعهما أخيراً أن يلتقيا، وربما يختليان في غيضة من غياض الحديقة! فيالفرحة!

وفي الأيام الثلاثة التالية، واصلنا التردد على المدرسة، على الرغم من عدم وجود عمل بفصول الصف الأول. لذا صرنا على حريتنا المطلقة، مع بعض الحذر. فكنا نأوي من الثامنة صباحاً للظهر بفصل غير مشغول، نتحلق لندخن السجائر، أنا وأوى وييلوك. ولأن الجو كان حاراً جداً كنا نخلع القمصان والفانلات، ونظل بصدورنا عارية تحت السترات.

في الظهر، كنا نذهب للغذاء بالمطعم. ومن الثانية عشرة والنصف، حتى الثانية كنا نثرثر بالفناء. ومن الثانية للرابعة، نتحلق ثانية للتدخين. وفي الرابعة كنا نخرج جميعاً، لأن طلاب البكالوريا لم تكن لديهم حصص ابتداء من أول يوليو.

كان لانيو يذهب ويرابط على الدكة أمام النافذة. أما أنا، فكنت أصحب يلوك، الذي علمني، بقهوة البلياردو، أسرار الألعاب المركبة والضربات المتتابعة.

وجاء اليوم الموعود وكان يوم خميس. وجاء لانيو ليصطحبني من بيتي، حيث كنت أراجع، أو بالأحرى أطالع مناهج التاريخ والجغرافيا، وأنا أتأهب للرحيل، بقبعتي على رأسي. وما كاد ينادي حتى نزلت، وسرنا تحت شمس يوليو الجميلة، بسترات خفيفة وقبعات من القش.

كان متألّفاً، في بنطلون واسع من الفاتلة البيضاء، وسترة طويلة رمادية، وصدرية مفتوحة على آخرها. ورباط عنق فخم، وحذاء أصفر فاتح. بقرنفلة في عروة سترته، وقفازات فاتحة ومنديل صغير حريري أزرق يطل بشكل خفيف من جيب سترته.

ومضينا جنباً إلى جنب، على طول الطريق المشجر بأشجار الدلب الكثيفة؛ وهو يعرض خطته، التي أعدها:

- كان عليّ في هذه الخطة أن ألعب دوراً قليل الأهمية. أولاً، التعرف على الحديقة. فقد كان يجب التفتيش مقدماً عن ركن أو ركنين سرين يمكن للمتقاعدين أن يختلوا فيه، حسب الظروف. بعد ذلك، نبحث عن الجميلة الصغيرة، ثم نتحين لحظة مناسبة، نشير لها فيها إشارة تلغرافية سريعة إلى المكان المختار. ثم، عندما يجتمع الاثنان، عليّ أن ألعب، بلا فخر، وبلا رضا دور الخفير المراقب.

وعلى الباب قدمت تذكرتي دخولنا ثم مضينا في التو نحو الحديقة.

كان بها قصر بديع، في وسط غابة حقيقية من الصنوبر والسنديان. وحول القصر كان يوجد عدد من الأكشاك التي كانت مقامة، بواحد منها أحصنة صغيرة، وبآخر سوق لبيع المنتجات الخيرية، وثالث للعبة النيشان، ورابع للعبة

اليانصيب. وفي ركن بالحديقة، بالممرات المنحدرة، مسرح في الهواء الطلق. ولم يكن شاغلنا قط هذا المكان واتجهنا باتجاه الجزء المشجر الذي تفرعت عدة طرق صغيرة من ممره الرئيسي.

وكانت هذه المنحدرات تفي بالغرض المطلوب واكتشفنا مغارة صناعية، مختبئة وسط النجيل بشكل بديع. كان يؤدي لها ممر صغير. ولفت لانيو انتباهي إلى أنه إذا فاجأهما أحد آخر هنا يقبلان بعضهما فلن يكون بوسعهما الهرب؛ ورفعت المغارة عند هذه الخشية، فقد كان لها ثلاث مخارج، وفي حالة المفاجأة، كان بوسع كل واحد من المحبين الهرب من الجهة القريبة منه، بلا أي خطر. وتفقدنا لانيو بعناية، ورفع ذكة قديمة وجدها ونفض الغبار عنها. ثم عيّن لي المكان الذي أقف فيه للحراسة؛ وتدرّبت على أن أسعل سعلة خاصة، تكون هي إشارة الإنذار.

وبعد إعداد كل شيء، توجهنا إلى المكان المزدحم.

كان المدعوون يتدفقون. الفتيات الصغيرات الضعيفات، ترتدين الأحمر الخفيف، تتبعهن أمهاتهن الضخيمات متزينات بزينة الفتيات الصغيرات. بالورود، على صدارتهن؛ والرجال الوقورون الملولون، المتقفزون بقفزات سمنية اللون والمرتدون قبعات ملونة.

كان من بينهم الأساتذة ذوو النظارات، والسيدات العجائز المسكيات بحقائب اليد. ومديرات المدارس الثانوية والمدارس العليا، اللاتي صففن شعورهن بطريقة جعلتهن لا تجرؤن على الحركة. والمعلمون محبو الظهور، وأخيرا تلاميذ الثانوي، بأعداد كبيرة. كان من بينهم بيللوش ذو الكرش الضخم، وبابي، المبتسم دائما، وأفيت الذي كان يسير وهو يحفظ في سره التواريخ الهامة للوزير بولينيّاك المقررة بدرس التاريخ، وأخيرا بيلوك، الذي كان يصعب التعرف عليه، بحذائه اللامع، ورباط عنقه الشبيه بالسلة وقبعته القش ذات الحواف

العريضة. كان يضع يده في جيبه، وهو يقلب بها غليونيه، الذي لم يجزؤ قط على إخراجها، لأنه كما أسر لي، سيكون أمراً لا يليق!

ومع ذلك، كانت لديه رغبة عارمة في إشعاله مرة ... وكانت الأكشاك الصغيرة حولها زحام وكل طالب بالثانوي، قد حدد جميلة من الجميلات بحسب ذوقه، وراح يلقي شباكه حولها، مسلحاً بطعوم البنون الطري والزهور.

كان لانيو يرتجف من نفاذ الصبر، وأسر لي همساً بأنه سيعرض عليها أن يخطفها، لأنه لن يستطيع الحياة بدونها ... وجاء آفيت إلينا وسألنا ما إذا كنا راضين عن إجاباتنا بالامتحان؛ وراح يحدثننا، عن درجاته بالدرجة ونصف الدرجة؛ ولأننا لم نستمع إليه، انقض على بوليب الذي وصل لتوه، وأجلسه وراح يسمعه. فجأة، صاح لانيو هاهي! ... وكانت هي، بالفعل، مرتدية رداء أبيض يياقة بيضاء تضفي عليها مظهر فتاة صغيرة لطيفة. وكانت اثنتان من بنات عمها، تصحبانها، وخلفهما، سارت سيدة سميئة جداً ترتدي ملابس حريرية لامعة بدا عليها أنها تشككي في كل خطوة، ثم اتجه الجمع الصغير، من وسط الجمهور، باتجاه المشرب الذي كان منصوباً في العراء. ولهاوت السيدة السميئة بثقلها على مقعد من مقاعد الحديقة، بعد أن طلبوا لها عصير الليمون. ثم راحت توزع النقود على الفتيات، اللاتي اتجهن لتوهن نحو الأكشاك. ولحقنا بهن خفية؛ واصطحبنا بيلوك. سوف أقوم بالمهمة، قال لنا همساً. أين المكان؟ وأشار لانيو له بيده على المكان الذي به المغارة:

- في المغارة، قال لانيو.

- اذهب فوراً، أجب بيلوك. سوف تلحق بك.

وذهب لانيو الذي كان يجهد لكي يبدو طبيعياً، بخطوة بطيئة، وهو يتلفت حوله بطريقة تدعو للاعتقاد بأنه يدعو جميع الناس للحاق به.

وراحت الفتيات تلعبن لعبة النيشان المفرق بالأنبوب، وسط جمهرة تضج بالشباب، والعطور التفاذة، وهن تأكلن مع كل انتصار قرصين من حلوى اللوز. ثم تركن مكانهن لأخريات ولكنهن ظللن بمكانهن وسط الجمهور لتشجيع اللاتي حللن محلهن، واتخذن بيلوك، بناء على الإشارة، طريقة حتى لوسيين، ثم قال لها، في غمغمة جذبت انتباه الجميع: بالمغارة هناك، بالقرب من باقة الصنوبر. ثم تظاهر بالبراءة بعد ذلك، متصنعاً الاهتمام بالنيشان.

وخرجت العاشقة من الزحام تتبعها بنات عمها الإثنتين، وتساورن فيما بينهما، ثم اتجهت لوسين مع إحداهن بخطوات بطيئة إلى الموعد. لاحظت أنها كانت شديدة الاحمرار وهي تضحك في تصنع. وانسجبت كجاسوس؛ فوجدت لانيو جالساً على دكة؛ وكان يعطس بشدة، لأن المغارة كانت باردة وبدا متوتراً. وما إن رأيته، حتى قام وقال لي بصوت مختنق:

- هل ستأتي؟

- إنها قادمة، قلت له.

وراح ينظر بلهفة للممر وهو عارق. من السعادة بالقطع.

وعدت إلى موقع المراقبة ورأيت الجميلتين تقتربان؛ وكان يسير خلفهما بيلوك، يدخن سيجارة.

كنت، منفعلاً بعض الشيء ما الذي سيحدث؟ كنت أسأل نفسي. فالوضع الذي كنا فيه يتحدثان بالرسائل، ليس كافياً للتعبير عن مشاعرهما. والآن سيتعانقان ويرجآن المغارة بقبلاتهما. وربما يتطور الأمر بعد ذلك... وعاهدت نفسي ألا أنظر قط وأن أقوم بدوري بإنكار للذات.

ولكن لماذا بحق الشيطان أنت مع ابنة عمها؟ لقد كدّرني ذلك. لكن بدا ملائماً بعض الشيء لبيلوك، فقد اصطحبهما إلى مسافة قريبة من المغارة،

وسمعه يعرض على ابنة العم (الجنابة، في الواقع) أن يريها الحديقة. بما يدفع للاعتقاد حقاً بأنه مالك الحديقة بلا منازع، فقد عرض عليها عرضه بطريقة جعلتها تقبله، واتجه الاثنان جهة السنديان، على حين تقدمت لوسيين إلى المغارة، وأنبأت لانيو الملهوف، من مخيئي.

ودخلت.

ولم أسمع شيئاً ... وانتابتنى رغبة في النظر إليهما ولكنني قاومتها، ثم ارتفع صوت لانيو :

- إذن ... إذن .. لقد جئت ... إلى هذه السوق الخيرية ؟

- نعم.

- آه ... آه! هذا عظيم ... هذا عظيم.

ولم أستطع المقاومة أكثر من ذلك، فنظرت.

كان لانيو، المتباعد، واقفاً، أمام لوسيين، على باب المغارة . يدير قبعته في يديه بارتباك وينظر بتحديق إلى حذائه الأيسر . وكان خدّاً الفتاة الشابة متقدّين من الاحمرار ... وهي تقبض بتوتر على زهرة في يدها.

- يوجد ناس كثيرون هنا، قال لانيو.

ولم ترد.

- هذا عمل طيب. أردف. ثم، وبنيرة اقتناع: وهو شيء حسن للفقراء...

كنت مذهولاً. فهذا لم يكن الحب الحقيقي، وكان ييلوك قد قال هذا. وصار وجه لانيو مجبياً من شدة الاحمرار. وكان يريد مواصلة الكلام.

فأشار إلى المغارة.

- إنها مغارة، قال، وبها دكة،

ولم تجب بشيء.

عندئذ، دفست رأسي في الخضرة، وثبتت نظري على لانيو . ولاحظني هو
ورآني أشجعه. فتهور على معشوقته، واعتصرها بعنف إلى صدره وهو يصيح:

- أحبك ... تعالي، تعالي، أنا أعشقك ...

وأراد أن يقتادها إلى داخل المغارة. لكنها غرقت في الدموع، وراحت تمزق
منديلها. وتراجع لانيو خطوة للوراء وراح يحرق فيها. وبمنديله الجميل
الحري، راح يجفف جبينه من العرق، ثم لم يدر ماذا يصنع، ففر هاربا.

كنت مندهشاً. وبكت الفتاة لحظة أخرى، بصرخات غير مفهومة، وهي
تخبط قدمها في الأرض، ثم، أخرجت لا أعرف من أين علبة بودرة صغيرة كان
بداخل غطاها امرأة صغيرة. وأصلحت من الفوضى التي علقت بوجهها،
وهدأت من روع نفسها ببعض التفكير، ثم مضت.

ورحت أفتش عن الحبيب، وفمي مليء بالسباب واللعنات. وتمكنت في
الوقت المناسب من منعه من الهرب، ووصفته بالبلاهة وباستغلال الحب.

- ولكن لماذا رحلت تراقبني؟ قال لي.

- لا ! صحت ... لا تتهمني بأنني السبب في هذه الكارثة؟ لماذا هربت
أنت؟ أيها الأبله المتوحش! لقد كان ذلك بسبب أنك خدشتها! إنك ظاهرة
غريبة؟ أيها الدون جوان!

- هل تعتقد أن كل شيء ضاع؟ سألني.

- يبدو لي هذا أجبت. لا بد من طلب النصيح من ييلوك. ولكنك تعرف أنه
سوف يكيل لك السباب عندما يعرف الطريقة البارة التي أطبقت بها عليها.

وجررته إلى وسط الجماهرة. وكان يمشي معي مضطرباً. وحين مررنا أمام المشرب، وجدت العمدة الطيبة، جالسة بين لوسيين وإحدى بنات العم. ولكن ثلاثتهن تشربن عصير الليمون. واحمرت العشيقة المحبوبة خجلاً حين رأتنا نمر. أما لانيو، فقد أحدث له هذا العرض ارتباكاً حتى أنه حيا جمعهم كما لو أنه يعرفهم معرفة قديمة. وردت عليه السيدة العجوز تحيته بحركة من يدها. ثم انحنى على ابنة أخيها، لتسألها بالطبع، من هو هذا الشاب؟

وبعد تدافع تمكنا من الخروج من بين الجمهور، الذي صار متلاحماً؛ واتجهنا نحو الغابات. ولم تكن خالية هي الأخرى فقد كنا نلتقي فيها هنا وهناك بالعشاق الخجولين الذين يتمشون في الممرات، بنفوس شاعرية وأزهار في أيديهم.

ورحنا نفتش طويلاً، وكدنا نتخلى عن البحث حين سمعت صوتاً يشبه بشدة صوت بيلوك خارجاً من دغل، وأشارت لانيو بأن يقتربا!

ورأينا بيلوك من خلال الأغصان، وسط بقعة صغيرة مشمسة، كان جالساً إلى جوار ابنة العم الجميلة، على جذع شجرة. وكانت تستند هي على كتفه، تدخن سيجارة وكان يحيط خصرها بذراع، وبالأخرى يمسك سيجارة؛ وبين كل نفثة وأخرى، كانا يتبادلان القبلات.

- إنه يعرف كيف يتصرف، هذا الحيوان! غمغمت أنا.

وعلا صوت بيلوك

- ترى ماذا يفعلان الآن؟

يا إلهي! قالت ابنة العم بضحكة صغيرة مرتاعة... لقد كانت خطا باتهما... ملتبهة. وبدت على بيلوك المعرفة النفسية العميقة:

- آه! قال. هذا لا يعني شيئاً، لربما لم يفعلا ما فعلنا.

وتبادلا قبلة.

- أراهنك بمائة فرنك، استطرد بيلوك وهو يقبلها وينفخ الدخان في نفس الوقت، أراهنك بمائة فرنك أنه حتى لم يحضنها!

وقبلها ثانية

- أعتقد هذا؟ قالت ابنة العم.

- أنا متأكد. أردف بيلوك. فأنا أعرف لانيو، إنه مغفل.

وأمسك العاشق المخدول بذراعي بشدة. يالللألم! وجررت وأنا أتلعشم وأحس بالخيبة! باتجاه زحام الاحتفال وكانت ضجة القبلات والضحكات الصافية تتصاعد من بين الأوراق...

بعد يومين من ذلك، ذهبنا إلى المدرسة، لتعرف نتيجة الامتحان التحريري. وفي فناء الداخلية كان عدد كبير من المتقدمين للامتحان يسيرون محدثين جلبة. وكنت مع لانيو نتحدث عن مغامرته العاطفية.

- لقد أرسلت لها خطاباً مطبوعاً، قال لي. وأمل أن ينصلح الحال ؛ ولن أضيع الفرصة مرة أخرى. نعم! قالها بتصميم كأنه مقتنع بما يقول.

واقرب منا أوي :

- آه آه! لانيو! الذي حصل على مراده بالأمس، قال بشغف كانت صاحبتة هناك ؛ لقد رأيته تذهب باتجاه الدغل وكان الدون جوان بانتظارها بالطبع... أتخرج من ذلك، يالانيو! لقد كان تخميني في محله إذن! خمنت ذلك! إنه شقي! هذا مايجب قوله، بالها من نقلة! لا بد أنك قبلتها، أليس كذلك؟

وحار لانيو أين يهرب، في الوقت الذي كان أوي فيها جاداً ويعتقد تماماً

بوقوع بعض القبلات.

ووصل بيلوك. كان حاملاً خطاباً. قرأه لانيو، وأثناء ذلك أعلمت بيلوك بما حدث في السوق الخيرية. فرفع ذراعيه نحو السماء وصاح صياحات متتابعة: ياللمغفل! ياللمغفل! ياللمغفل! وبعد ذلك تأتي لتغندر علينا! لكن العاشق كان في حالة مثقلة لم تسمح له بمواصلة الحديث بهذا الشكل.

— ماذا حدث؟ سألته.

ومد لنا الخطاب وقرأته همساً. وكان محتواه كالآتي:
أيها السيد

لا أدري كيف أبدأ هذا الخطاب وأنا تقريباً مثقلة مما حدث لنا كلينا أول أمس أنا أعتقد أن حبنا لن يستطيع أن يستمر بعد هذا الموعد، الذي أكد لي كثيراً من الأشياء التي كنت أتوهم أنها بالفعل. أنا لا أعتقد أنك تحبني بالفعل، لأنني لم تكن لدي الرغبة مطلقاً في أن تقبلني. أعترف لك بذلك. وأنصورك أنك أعجبتني بسبب أنني وحيدة وأن هذا الحب كان بعض الشيء شبيهاً بقصص الحب المكتوبة. وإن كان ذلك يؤدي مشاعرك فأرجوك أن تسامحني. إنني لن أنساك أبداً وسوف أحس دائماً بالتأثر كلما فكرت في حبنا الذي بدأ وانتهى في الخطابات.

الخلاصة

ملحوظة: سأكون شاكرة لو أنك أحرقت رسائلي أو أرسلتها لي. أما تلك التي كتبتها لي فستجدها مرفقة لك مع هذه الرسالة.

— نعم نعم، قال بيلوك. كانت توجد لغة مع الرسالة، ولكنها كانت كبيرة

جداً فتركتها في بيتي. ولا بد أنها لا تحتوي إلا على الرسائل. إنها تزن خمسة كيلوات لقد كتبت لها كل يوم لمدة ثلاثة أشهر، رسائل في صفحة.
- بالسوء الحظ! قال ييلوك ببلاغة.

في هذه اللحظة حدث هرج بائجاه ركن الفناء، وكان أستاذان يعلقان قوائم بأسماء الناجحين.
وتدافعنا.

وفي لمح البصر، اتخذ الفناء مظهراً غريباً، البعض كان هادئاً، والبعض مغموماً؛ والبعض يسبون ويقسمون ... ويتوعدون ... بضرب رئيس اللجنة؛ وآخرون بدوا في حالة من الجور والحيوية؛ وراح آفيت يضحك ضحكات حادة وهستيرية...

بالنسبة لي أنا، فقد نجحت. ويحدث عن اسم لانيو، فلم أجده ... وكان قد عرف، وراح يستند وحيداً، إلى شجرة دلب، وكان في حالة شديدة من الأسى. وأمسك بي ييلوك، الذي نجح، من ذراعي، ورحنا نواسيه معاً. وقابلنا بحركة ناترة.

- ما هذا، صاح. لاجب، ولا بكالوريا؟ هذا كثيراً حقاً! لا هؤلاء المحكمين أوغاد!

وعلى القارئ أن يعرف، إنه إذا كانت نتيجة الامتحان الرسوب بجميع المواد، فإن ذلك بالتأكيد خطأ المحكمين.

كان يجب أن تسير الأمور علي الأقل في شيء! لكن لاشئ بالمرة إلا شيء ومشي حزيناً، حاني الظهر، ويداه في جيوب البنطلون الأبيض الجميل، مضيفاً تفصيلاً ضرورياً، وهو أن القبة كانت منكفة على عينيه.

وأشعل بيلوك غليونه الفخم:

– كل ذلك نتيجة خطئه، لخص الأمر. فطريقته في الحب هذه، طفولية،
وليست جادة، كان من المفروض أن يتعرف على خادمة، لو أنه سمع كلامي.

مارسيل بانيول وذكريات طفولة
بقلم : برنار دي فالوا

Bernard de Fallois

الصفحات التي مرّت من هذا الكتاب كتبها مارسيل بانيول فيما بين ١٩٥٩ - ١٩٦٢. وقد خصّصها للجزء الرابع والأخير من «ذكريات طفولة» التي ذاع صيتها، وقد وضع لها عنواناً هو «زمن الحب». ورغم أن كاتبها عاش حتى عام ١٩٧٤ فلم تجر طباعتها من قبل.

لهذا الكتاب إذن، شأن كل الكتب، قصة، كما أن له حكاية غير تلك التي يرويها، وهي في هذه الحالة حكاية أكثر خصوصية، بما أنها حكاية كتاب كان مهملًا.

وإنه لمن الخسارة أن مارسيل بانيول لم يقص بنفسه هذه الحكاية. بما أنه كان يحب الكتابة، ويحب أيضاً حكي حكايات الكتابة. ولو أنه فعل ذلك، وتحدث عن العمل الذي عرفه الجمهور على أنه عمله الرئيسي، لكان له أن يعرض لنا موضوعات شتى، حول فن النشر، والذاكرة، والطفولة، ومهنة الكاتب التي احترفها، وهي موضوعات ذات أهمية كبرى.

يضاف إلى ذلك، أنه كان له أن يفيد، كما أفاد مع «تجار المجد» و «توباز» أو «ماريو» ويصف لنا الظروف التي صاحبت هذه «الذكريات» والحياة التي عاشها فيها، والأصدقاء الذين عرفهم، ومدينة باريس التي كانت في تلك الحقبة، والتي كان يقرنها بمدينة مرسيليا في طفولته. وهذا الجانب الثاني الأكثر أهمية من الأول، أعطي المقدمات الطويلة التي كتبها لمسرحياته الأولى طابع الروايات الصغيرة ؛ فهي تقرأ بمتعة شديدة، لأنها بالأحرى تشكل الإضافة الطبيعية لـ«ذكريات طفولة» والتي تتضمن اللوزعية، الرقة، والسخرية. وفي الفترة التي كتب فيها بانيول هذه المقدمات، كانت الذكريات مازالت بعد طازجة، في حين كانت فترة الثلاثينيات قد تباعدت بالفعل. وهو عندما كتبها كان يقص علينا ذكريات شبابه. وإنه لمن المستحب للمرء أكثر أن يتذكر عامه الخامس والعشرين، عن أن يعبر عن عامه الستين. وهذا بالطبع هو ما جعل

مارسيل بانيول يكتفي بأن يحل في مقدمة رواية مجد أبي صفحتين أو ثلاث قارن فيها بين موقف الكاتب الذي يتهيأ لنشر كتاب وموقف المؤلف المسرحي الذي يتهيأ لعرض مسرحية - وهي صفحات رائعة، بالتأكيد، ولكنها لا تشبع نهماً.

كذلك، يبدو لي من الضروري أن أعرض باختصار لمن هو مارسيل بانيول الذي كان في هذه السنوات. وكيف جاءته فكرة كتابه «ذكريات طفولة»، ولماذا لم يكملها.

كان مارسيل بانيول قد بلغ الستين من عمره، ولكنه كان يبدو في الأربعين، بالكاد، وكان متوسط القامة، قوياً، ممتلئاً بالصحة، الحقيقية، التي لا تدب بشيء للرياضة وكان يحدث أن يخرج مرتدياً زيه الأخضر، وطاقته في أيام الخميس، ولكنه لم يكن يرتدي في أغلب الأحيان رباط عنق، وكان يضع كوفية بحار أو لاعب كرات. وما كان يجعله مؤثراً في الكثيرين ليس صوته الرائع، الذي كان من السهل تقليده، وإنما نظره، تلك النظرة التي تحمل تعبيراً مزدوجاً، فإحدى عينيه كانت تلتصع بالدهاء، والعين الأخرى كان تعبيرها أقرب للحزن، وكانت عينه التي تلتصع هي عينه الخجولة، على حين كانت عينه الحزينة ذات نظرة ثابتة، وكان إنساناً كريماً. ولم يكن له أبداً مظهر الباريسي.

وكان يمكن اعتباره سيناتورا رومانيا قدّر له أن يقرأ ديكنز.

لم يكن به شيء من طالب الثانوي الصغير النحيف، والمغامر الجسور، الذي أسس في مرسيليا، منذ أكثر من أربعين عاماً، مجلة فورتنيو. ولا من المؤلف الصغير الذي كان ينهشه القلق، بعد خمسة عشر عاماً من ذلك، والذي غامر بكل ما لديه من أجل مسرحية كان يعتقد بأنها جيدة، وكان اسمها الجميلة والوحش، ولكنه عمدها باسم توباز، اقتداءً بالمسرحيات العظيمة لموليير التي تحمل أسماء أبطالها الأساسيين.

ولم يكن في حاجة، فضلاً عن ذلك، لمرجع ولا لمرشد، سواء كان هذا المرجع والمرشد دي موسيه أو موليير. فقد كان يحمل اسماً، عرف اليوم، بفضل السينما، لعدد كبير من هؤلاء الناس، الذين لم يكن لهم من قبل أبداً كاتب من مسقط رأسه، وهو مارسيل بانيول.

وحينما أوشكت أعوام الخمسينات على الانتهاء، لم تترك ذكرى كبرى. فقد كانت سنوات ما بعد حرب، جرت للمرة الثانية، ولم تأت بتغيير، ولا بكشوفات، ولا بتحدييات، ولم يكن لها شيء من الأوهام المرحية التي كانت لما سبقها من أعوام، ولم تشهد الأعوام العشرة التي سبقتها ميلاد الكثير من الأمجاد الجديدة. وكان نجوم فترة ما بين الحربين يحتلون مازالوا بعد الساحة، ولم يبد على الشباب أنهم متعجلون لإزاحتهم. فهل هي سنوات الجنون؟ لا، فقد كانت بالأحرى سنوات الحكمة، التي كانت حكمة ثملة بعض الشيء.

ما الذي آل إليه حال مارسيل بانيول مع نهاية ١٩٥٥؟ لقد كان رجلاً مليئاً بالحياة. فما الذي بقي له ليسعى إليه في تلك الفترة؟ لقد كان من قبل يريد كل شيء وحصل بالفعل على كل شيء.

حصل على المجد أولاً، ولقد عرفه للمرة الأولى، في العمر الذي كان الآخرون فيه يكتفون بالحلم به، وحصل عليه هو مع «توباز». ثم حصل عليه للمرة الثانية، بشكل أقل خطورة، في عام ١٩٤٥، عندما دخل الأكاديمية الفرنسية، ساعة وضع صديقه هنري جانسو على مكتبه خطاب ترشيحه، بينما كان يفتح زجاجة شمبانيا ليحتفل بانتصار الحلفاء. وقد ضحكا معاً، ولكن هذا لم يؤسفه، فهو، ككل الفوضيين، في قراراتهم يعشقون المؤسسات.

ولم يكن بانيول يرغب في أن يمنعه المجد من المتعة، لذا، راح يستمتع، بجنون بلعبة جديدة ظهرت وصارت أجمل لعبة بالعصر، وهي السينما. وكان أول من استشعر بمغامرتها، ضد كل الآخرين، عندما بدأت تنطق، وراحت

تنطوي مع انتشارها الجديد صفحة من تاريخ العرض الفني القديم. ولقد أعطته لعبة السينما هذه عشر سنوات من النجاح، وأصبحت لديه استوديوهات للتقنية الجديدة والمتجددة، للصوت، والصورة والأفلام، والحوارات التي تصاغ في ليلة، والممثلين الذين صادقهم واختلطت بذهنه أذهانهم، وأحبهم وأحبوه، وتنازعوا، وعثروا على أنفسهم، وصار لهم ألف مغامرة، وكانوا يشكلون فيلقا بكامله، ذهب معه الي تلال الريف، وسعد بموهبته كقائد له.

ولم تمنعه المتعة عن كسب المال، وقد كسبه. بوفرة. كان في البداية يحسب حسابه بنوع من المتعة والسعادة، التي كان يقيسها. كان يقول: إذا نجحت مسرحيتي في العرض شهرا، سأجني من وراء ذلك ما يساوي راتبي كمعلم لمدة ثلاثة شهور وإذا استمرت حتى الصيف، سأجني راتب عامين. ولقد قدر له اليوم أن يجني راتب قرن أو قرنين كمعلم، ولم يعد يعرف حدود مكسبه، ولم يعد يحسب ثانية فقد صار غنياً.

ثم حقق أمنيته الأخيرة الأكثر تعبيراً عنه، ربما، فلم تتمكن النقود، ولا المتعة بالمغامرة، ولا المجد من منعه من أن يحب، أي أن يكون محبوباً. وقد تزوج، غداة الحرب، بعد شباب عاصف بعض الشيء، من ممثلة شابة لطيفة، أعجبتة لأنها كانت تشبه شهاباً شديداً كل بطلات أعماله، وأعجبتة أيضاً «لذاتها». وكانت تدعي جاكلين، أُنجبت له طفلين، أحبهما.

مأساة واحدة حدثت في هذه الحياة التي كانت بمأوى من المآسي، وهي وفاة ابنته الصغيرة، إستل. لكن هذا الرجل الحي لم يتحدث في هذه المسألة، حتى إلى المقربين منه، لكنه بسبب ذلك انتقل، تاركا منزله بموناكو، الذي كان يحب قضاء عدة شهور بالعام به. ولأن شقيقته الباريسية بشارع جان جوجو كانت صغيرة جداً، استقر في منزل خاص، بالقرب من غابة بولونيا.

وقد عمل في منزله هذا، كعادته، أي كثيراً.

كان الصحفيون ينعته، بغير معرفة، بأنه كسول للغاية، وكان هو يدعهم يقولون، لكن هذه السمعة كانت أمراً مغالى فيه بالكامل. فلو أن أحداً قدر له أن يدخل إلى المكتب الصغير بالدور الثاني بمنزله، والذي كان يحب أن يأوي إليه ويغلق على نفسه عدة مرات باليوم، فما الذي كان سيراه على المكتب، والملفات التي تراكمت فيه؟

كان سيرى مسرحية الملاك الصغير، التي كتبها قبل ذلك بوقت طويل، وقرر إعادة كتابتها. كذلك ترجماته للقصاصات الرعوية، وهي حلم قديم له، كان يذكره بدروس السيد ليبرات في اللاتينية. وسيجد دراسة طبية حول وظائف الجهاز التنفسي قد أنجزها. وملفاً كبيراً للأعمال الرياضية يحتوي على كل أبحاثه حول الأرقام الفردية ومحاولته -التي كان يعتقد أنه سينجح فيها تماماً- لشرح النظرية الأخيرة لفرما. وهذا الأمر لا يعرف به سوى قلة من الناس ويكاد يكون سراً. وعلى كل حال، كان هو أكثر من مهتم بهذا، فقد كان شغوفاً بالموضوع. وكان يتنسم أحياناً عندما يفكر أنه في سن الثلاثين، وقبل حتى أن يعرض «توباز» و «ماريو»، قرر أن يقطع علاقته بعنف مع الأدب ليكرس كل جهده للعلوم. وقد كتب بالفعل مقدمة يعلن فيها هذه القطيعة مع المسرح، قدر لها أن تنشر مع عمله هذا بعنوان «عناصر جديدة بالديناميكا الحرارية (١)».

ماذا كان بمكتبه أيضاً من مشروعات العمل؟ كان به «مانون الينابيع» "Manon des Sources" التي أخرجها عام ١٩٥٣، والتي أراد أن يحولها لرواية. وهي مانون أخرى، مثل مانون ليسكو، كانت به رغبة لأن يصف بها ذكرياته في شكل رد على الأب بريغوست فمن رأي مارسيل، أن الأب الغالي لم يفهم ما الذي حدث بين مانون وبين الفارس الجميل. ثم كان لديه مشروع لغز آخر، وهو قناع الحديد، الذي راح يعد له بشكل منهجي عدداً كبيراً من البطاقات والملاحظات، لكي يكتب كتاباً في التاريخ.

وكما هو واضح، كانت المشاريع كثيرة. ولم يحدث قبل ذلك أن اهتم مارسيل، الذي لا يشك أحد في تطلعه للحياة، بالعمل في مثل هذا القدر من الأعمال في وقت واحد. فقد كان سعيداً بالعمل بأكثر مما هو سعيد بالحياة.

ومع ذلك. وفي ظل هذا التنوع الكثيف. كانت الحقيقة أقل من ذلك. أي أنه لم يكن ينجز فيها كما يجب. فهل كان السن قد تمكن من تقليص قدراته الإبداعية. ومن أن يحرم هذه المشروعات من حماسه وإرادته للاكتشاف، ومن منعه هو من استلهاهم نوع من الانتصار المجيد؟ عموماً، لم يكن هناك شيء مما كتبه مارسيل بانيول منذ وضعت الحرب أوزارها قد صادف النجاح الصاعق لمسرحياته الأولى، وأفلامه الأولى، حتى تلك الفترة.

وقد ظل مارسيل مخلصاً للسينما. وأخرج (مانون البناييع)، بمقره بالريف، وقد صرف اهتماماً كبيراً لهذه القصيدة العظيمة لأنها كانت تمثل اللقاء بين الحب والقرية. ثم عاد للمسرح فقدم مسرحية كان يحلم بها دائماً، هي يهوذا. وهما عملاقان طموحان، في مسارين مختلفين، لكنهما تركا لديه بعض مشاعر عدم الرضا، فقد كانت يهوذا مسرحية جيدة جداً، وسقطت سقوطاً ذريعاً، كما أن (مانون) برغم استقبالها من الجمهور والنقاد استقبالا رائعاً، لم يحقق له نجاحها رضاء تاماً.

وفي واقع الأمر أن السينما، كانت في ذلك الوقت قد أصبحت ترهقه بعض الشيء. فلم تعد لدى مارسيل بعد استوديوهاته، ولا حلقة توزيعه. وصارت الاستثمارات المادية في أي فيلم تساوي مبلغاً هائلاً. كما أن ممثله المفضل، الممثل العظيم رايمو، صديقه، قد مات، واختفى معه عدد كبير من الآخرين، وتبعثر الفيلق السعيد.

أما عن المسرح، فقد صارت الصيحات الرائجة شيئاً يبدو جلفاً ومدعياً. عموماً، وفي سن الستين، ومع تدهور المجد والتشريف، كان مازال أمام مارسيل

بانيول وضعه، كأكاديمي بالأكاديمية الفرنسية، وهو وضع يجعله في المكانة الرفيعة. لكن شعلة أمجاد الشباب كانت قد بدأت في الأفول. وفي هذه اللحظة التي بدأ مجده يتراجع فيها، جاءت المعجزة، فقد عادت رياح الإبداع تنفخ فيه كما فعلت في الماضي. وترك مارسيل كل أعماله الأخرى، وشرع، بالمصادفة تقريبا، في العمل بشيء مختلف. وفي كتابة بسيطة جداً ومتواضعة لم يتخيل في البداية أنها سينتج عنها كتاب، ولا أن هذا الكتاب سيكون له أثر في مجده أكثر من كل أعماله الماضية. وأنه سيصدر واحداً من هذه الكتب التي هي لجميع البشر ولكل العصور، ككتاب كلاسيكي بالفعل.

هذه اللحظة التي لم يتوجس فيها بشيء، وبما أنه يعرف أن السناجة سر الفنانين العظام، أمسك بملف جديد كتب على غلافه عنواناً لم يجرؤ أحد كتابة مثله من قبل، لأنه كان بسيطاً جداً: «ذكريات طفولة».

ولدت فكرة «ذكريات طفولة» أثناء غداء دعي إليه لدى هيلين وبيرس لازاريف في ربيع ١٩٥٦.

سرعان ما ينسى الناس كل شيء، ولا يوجد أحد اليوم على معرفة بماذا فعل بالماضي هذان الشخصان المدهشان. فقد كانت الصحافة قد تتوجت على عرش المعلومات، وتتوج ببيرس وهيلين على الصحافة، الأولى بإدارته لواحدة من أهم الجرائد اليومية القومية، والثانية بإدارتها لأول مجلة نسائية. لكن أهميتهما لم تكن ترجع لسلطاتهما بقدر ما كانت تعود لعظائهما. فقد كان لديهما فضول لمعرفة كل شيء، ولم يكنا تقديرا سوى للموهبة وكانا غير مكترئين، بل معاديين لكل ظواهر عدم التسامح، وهما اللذان عملا على إغلاق الباب بإحكام بين الجيل اللامع لما بين الحربين، والذي كان جيلهما، وبين الأجيال التي أعقبته.

ومنذ شبابه المبكر، حافظ ببيرس في شخصه على ميزتين تميز بهما: حبه

الشغوف للمسرح، وشعوره الشديد بالصدقة. وكان مارسيل يانيول واحداً من ضيوفه المفضلين، لأن بداية كل منهما كانت في نفس الوقت، وظل مارسيل بالنسبة له شاهداً على هذه الحقبة المجيدة.

- ولكن، كان يقول لنا وهو يتحدث عن زوجته، إن هيلين هي صاحبة العبقرية وكانت هي تشير إليه.

وأثناء الغداء، وكما لو كان ذلك كثير الحدوث، قص مارسيل حكاية. وكانت الحكاية التي حكاها ذلك اليوم من نوع آخر، فلم تكن من تلك الحكايات التي لا تنتهي لسلسلة الطرائف المرتبطة بالمسرح أو السينما. لكنها كانت مأساة طفولية صغيرة وهي حكاية أربع قصور كان يمر أمامهم مع أبويه، عندما كان صغيراً، لكي يختصروا الطريق المؤدي لقرية الكرمة، والإنفعال الرهيب الذي أصابه في اليوم الذي فاجأهم فيه أحد الحراس، وهو اليوم الذي رأى فيه للمرة الأولى أباه في حالة من الخذلان.

وكان من تقاليد مجلة (هي) أن تنشر قصة، مرة بالعام، في عددها الخاص بأعياد الميلاد، وماكاد مارسيل ينهي حديثه مع هيلين لازاريف حتى طلبت منه أن يكتب هذه الحكاية التي أسمعهم إياها لقارئات مجلتها.

ووعدها مارسيل. ووعدها عن طيب خاطر.

ومرت الأسابيع، ونسى مارسيل الأمر، ولم يكن لأحد أن يعرف بحكاية القصور الأربعة، لو لم يتدخل عامل القدر في هذا الشأن.

ولأن فضل طلب «ذكريات طفولة» يعود لهيلين لازاريف، التي راحت ترغم مارسيل على كتابتها، جاء الإلحاح عليه من معاون، من الصف الثاني، يعمل معها بالجريدة، وهو موظف كان يلزع بدراجته شارع ريومير جيئة وذهاباً.

وفاعل الخير هذا، أي حامل الرسائل، لم يعرف أحد فضله أبداً، ونحن لانستطيع أن نعبر له عن عرفاننا، لكن حيلته التي اتبعها أمر جدير بالتسجيل. فقد دق ذات صباح، في الحادية عشرة، جرس باب مارسيل، لكي يأخذ منه المقال الذي وعد به. واستقبله سيد المنزل باهتمام شديد.

- يا صديقي، قال له، أنا أعرف أن السيدة لازاريف تنتظر هذا المقال بنفاد صبر، وصدقني أن لا شيء يسعدني قدر إدخال السرور على نفسها. ورغم ذلك فأنا لم أتم العمل بعد (ولم يكن قد بدأه)، وما زالت أمامي عدة أسطر أكتبها فيه، ولا أريد لك أن تنتظر. لذا عليك أن تعود للجريدة، وتقول للسيدة لازاريف إنني سأحمل لها بنفسي هذه الرسالة صباح الغد.

- يا أستاذ، أجابه راكب الدراجة، إنني أعول زوجة وطفلين. ولا بد لك أن تدرك أهمية مقالك، لأن الإدارة أعلمتني، بأنني إذا عدت للجريدة بدوني، سأفصل في نفس اليوم. اسمح لي إذن بأن أنتظر في حديقتك حتى تكتب هذه الأسطر الأخيرة. ولا تشغل نفسك بي، فلدي ما أفعله في دراجتي، لذا فلن أعدم شيئاً يشغل وقتي، فضلاً عن أنني ليس ورائي ما يشغلني.

وعقب قوله هذا، قلب دراجته وشرع في فك إحدى عجالاتها.

بهذا الشكل وقع مارسيل بالفخ، ولعله كان سعيداً ببقائه برجل نافذ البصر على هذ النحو، ولم يجد أمامه إلا أن يصعد لمكتبه وأن يمسك بقلمه، فقد كان لا يجرؤ على استخدام هذه الآلة الحديثة بشكل عدواني، بل أمسك بأفضل ريشة لديه، ريشة ماركة الصول.

هكذا، وبعد عدة أسابيع، في الثالث من ديسمبر بالتحديد - بما أن عيد الميلاد في هذه المجلة النسائية لم يكن يجيء في الخامس والعشرين من ديسمبر كما في كل التقويم، وإنما أبكر كثيراً، للأسباب التي تخفي على الجميع، فيما عدا رئيس قسم الإعلانات - تمكنت قارئات مجلة هي من أن تقرأ أن

بجريدتهن هذه الأسطر المدهشة التي احتفى بها ذات يوم ملايين القراء. وبما أن هذه الأسطر قد اختفت من الطبعة النهائية، فلن نتردد في تسجيلها هنا:

هذا ماحدث في حوالي ١٩٠٥، وبمقتضى حساباتي في هذا الوقت، كانت العائلة تبلغ سن الثالثة والسبعين: سنتان للأخت الصغيرة، وخمسة لأخي بول، وتسعة لي، وسنة وعشرين لأمي وثلاثين لأبي، بطريركنا. وكان يعمل في ذلك الحين معلما بمدرسة بمرسليا، وكنا نقدره لعزيمته، ووسامته، وصواب تسديده في لعب الكرات، وموهبته كعازف صفارة وقبل كل شيء لطريقته المرححة في سن موسى حلاقته على راحة يده اليسرى ...

وتم نشر قصة الفصول الأربعة، مقسمة على أربعة حلقات، بالجريدة، من ٣ ديسمبر ١٩٥٦ حتى ٧ يناير ١٩٥٧.

وجاء رد الفعل سريعا، واشتدت حرارة الابتهاج، وجاءت خطابات القارئ، اللاتي كررن الطلب بأعداد كبيرة ألا يتوقف مارسيل عن كتابة هذه الذكريات. وسعد مارسيل كثيرا بهذه الحكاية، التي راحت ريشته تجري فيها من نفسها بسهولة. وقرر أن يصيغ منها كتابا، راح يعمل فيه طيلة العام، ثم وجده أطول من أن يصدر في جزء واحد، فقسمه قسمين، ابتدع لكل منهما عنوانا، فأصبحا عنوانين خالدين هما: مجد أبي، وقصر أمي.

كانت تلك هي الخطوات الثلاث التي عملت على ميلاد الذكريات، والتي كان مارسيل كثيرا ما يحكيها لأصدقائه. فهل استمرت الأمور على هذا النحو؟ ... على العكس، فقد وجد الكثيرون أن القصة أكثر جمالا من أن تكون واقعية، وهذا ما بدا لي ممكنا بالفعل، لكن مارسيل فخّم فيها من الأسلوب، ولم يكذب. بنفس الشكل الذي كان فيه رد فعله الغاضب، متقمصا، وليس متصنعا، وبنفس الشكل الذي كانت فيه علاقته بالحدث مخرجة على نحو بديع، وليست مخترعه.

لقد استخدم في مجموع عمله ما يمكن أن نطلق عليه: الكذب الريفى، ذلك الذي يتركز، على بعد مسافة يسيرة من الواقعية، مقدماً الحقيقة الشعرية للأشياء أو الناس، والتي هى مختلفة عن الابتذال أو الكذب القبط بسوء مختلف عن الإسراف، أو الإيهام المكرس للنفاق الشائع.

ومهما يكن من أمر ما حدث، فقد نمت طباعة مجد أبى، وقصر أمى، بعد ذلك بعام، يفصلهما عن بعضهما بضع شهور، في نوفمبر ١٩٥٧ وأبريل ١٩٥٨.

لكن مارسيل أدرك أنه لم ينته بعد من ذكرياته.

وعندما كتب الصفحة الأخيرة من قصر أمى، تلاحظ له بالفعل أنه لم يستدع إلا جزءاً من طفولته، هو الجزء الأول، الذي أوصله إلى عشية ذهابه للمدرسة الثانوية.

وكانت أعوام الثانوي، التعمسة، البائسة، والفارغة بالنسبة للبعض، على العكس أعواماً جميلة بالنسبة له، وغنية، وبراقة، خرج منها قدر من أعماله، ولم يستطع إلا أن يدخلها في كتابه. لذا فقد كان عليه أن يكرس لها جزءاً ثالثاً. ومرة أخرى، وكما جاءت فاني متفرعة من ماريو، وتفرعت عنها قيصر وجد مارسيل نفسه يكمل الثلاثية.

وبينما كان مستغرقاً في إكمال كتابه، تكشف له شيئاً فشيئاً ظاهرة لم يكن يعرفها. وهى أنه، بالإبتعاد عن زمن المروي، تتحول الموجودات الحقيقية إلى شخصيات.

وفي الحكاية التي تقص مشاهد حقيقية، فإن كاتب السيرة بسعد كثيراً، مثله مثل الروائي الذي يترك العنان لخياله، ويوجد نفسه حراً كذلك بطريقة ما. وقد أشار بانويل لذلك بنفسه في مشروع مقدمة لم تنشر:

في الصفحات التالية، كتب يقول، لم أتحدث عن نفسي بشراً، ولا بخير
فلست أتحدث عن نفسي، ولكن عن ذلك الطفل الذي لم يعد موجوداً. إنها
شخصية طفل صغير عرفته، وقد تلاشي مع الزمن، بمثل ما تختفي الطيور بغير
أن تخلف وراءها هيكلًا عظمياً. يضاف لذلك، أنه ليس موضوع هذا الكتاب،
ولنما هو الشاهد على أحداث دقيقة الصغر.

إنني آمل إذن ألا يعثر القارئ في هذه الحكاية على أي أثر للتصنع ...

هكذا بدأ إذن كتابة الجزء الثالث، الذي صار له عنوان -ربما مقتدياً
بتشارلز ديكنز الذي كان يقدره- وهو: الحب الكبير، ذلك العنوان الذي قام
بتحويله قليلاً بعد بعض الوقت لكي يصبح: حكايات الحب الجميلة.
وفي البداية، كما تشهد إحدى مذكراته بذلك، فكر مارسيل في أنه ليس
لديه الكثير مما يحكيه.

«لقد انتهت رواية قصر أُمِّي عشية دخول الصف السادس، في سن العاشرة.

» ما الذي حدث بالصف السادس، والصف الخامس؟

«لا شيء، أو لم يحدث شيء هام».

«نفس الإجازة مع ليلي».

ثم، ويقدر ما حدده إطار العمل، صاغ خطة بسيطة، فحواها: «خطة عامة:

» الإجازة بعد حادث القصر»

» مغامرة إيزابيل، ودخول المدرسة الثانوية».

» حكاية لانيو (وقد استبعدت)»

» اللقاء مع ليف».

ثم، شيعا، فشيخا، بدأت الظاهرة التي عبرت عن نفسها في الجزء الأول، تتكرر فقد جاءت الشخصيات، واتخذت الحلقات أهمية، وتتابع الفصول. وبدلا من أن يأتي هذا الجزء صغيراً جداً، كما خشي، صارت الحكاية أطول من أن تكون جزءاً واحداً. وعندما أراد مارسيل نشرها، لاحظ أن الملاحظات الأولى لخطته، في تطويرها، كونت بالفعل كتاباً أكثر أهمية من سابقه. وتوجبت قسمة حكايات الحب الجميل لجزأين. وصارت الثلاثية رباعية، لذا راح يبحث مرة أخرى عن عنوانين يعبران عن الجزأين الجديدين. ولأنه كانت لديه موهبة صياغة العناوين، لم يفتش طويلاً. وجاء عنوان الأول: زمن الأسرار، وطبع في يونيو ١٩٦٠. وأعلن بصفحة الأخيرة عن الجزء الرابع في متابعة لبقية ذكرياته، الذي صار اسمه: زمن الحب.

وخصص بانيول زمن الحب لكل الذكريات المتعلقة بالسنوات التي قضاها بثنائية تيير بمرسيليا.

لقد دخلها مارسيل عام ١٩٠٥، في سن العاشرة، بالصف السادس. ودرس بها، معيداً صفه الرابع حتى البكالوريا. وعندما اندلعت الحرب، كان قد أتم التحضير لعامه الأول بمدرسة المعلمين العليا.

وصار الكثيرون من زملاء الدراسة أصدقاء له، وظلوا هكذا طيلة حياته. وسوف نجد في هذا العمل بعضاً منهم. فقد صار اثنان منهم أطباء، هما فيرنان أفيرينو، الذي ظل يعمل بمرسيليا. والذي رسمت شخصيته في الفصل الأول باسم الطالب الخارجي ميرينو، وإيف بورد الذي كتب مارسيل عنه بطريقة مؤثرة عند لقائه به في الفصل السابع، تحت اسم إيف بونيه، الذي أسس معه مجلة «فورتنيو» في ١٩١٣. والاثنان تمت الإشارة لهما في «عناصر ديناميكا حرارية جديدة». أما الثالث، الذي ظهر باسمه الحقيقي بالفصل السادس، فليس سوى الكاتب الكبير ألبر كوهين.

وقد تم تحرير زمن الحب على مرحلتين.

في المرحلة الأولى، شرع مارسيل بحكايتها، كعاداته بالعمل، بالتجريب في بعض الصفحات، التي ينميها فيما بعد بشكل مطول، لكي تصبح هي الحلقات البارزة لهذه الحياة المدرسية.

لذا صاغ خطة، ينتظم من خلالها العمل، وهي خطة اتبعت تطورا تاريخياً.

«١- الدمية المتحركة (لعبة المشنوقين)

«٢- الكرة المنتنة».

«٣- حكاية لانيو العاطفية».

«٤- اللقاء مع إيف»

«٥- الأجازة -اللقاء مع المجنون»

«٦- الصدرية -السيدة لوتان».

وهذا الجزء الأخير، الذي حدثنا عنه، لم نعر عليه، وهو بالطبع لم يكتبه. أما بقية الأجزاء، وكذلك فصل أخير لم يشر إليه بهذه الخطة وظهر في الملاحظات الأخرى هي ما سنقرأه في هذه الطبعة.

وقد عهد مارسيل فيما مضى، بست فصول منها (فيما بينها الفصول ٢، ٣، ٧، ٨) لبعض الصحف التي نشرتها معا وفي أجزاء.

أما الفصول الأربعة الأخرى فتتطلب، لأسباب مختلفة، بعض كلمات الشرح.

فحكاية الجماعة السرية تعود لعام الصف السادس، وهي أيضا تكون المشهد الأول الذي حرره مارسيل، مباشرة بعد وصف دخوله المدرسة الثانوية. وكان عليه بذلك أن يجد مكانا له في «زمن الأسرار».

وكان للجزء الذي يحتوي مباراة جوزيف في لعب الكرات أن يبرز في فصل الإجازة، فلم يقرر الناشر بوضوح ما إذا كان يجب وضعه مع نهاية الصف السادس أو نهاية الصف الخامس. ومن الممكن أن تكون لدى مارسيل أفكار أخرى في موضوع هذا الفصل الذي وجدنا عنوانه في قائمة القصص والحكايات التي أراد أن يكتبها - والتي لم يقم، للأسف، بتحريرها.

وربما لم يكن لقصة «المصابين بالطاعون» بالمقابل أن تبقى بالطبعة النهائية. فهذه الحلقة، المليئة بالألوان، والحكمة، والحياة عن طاعون مرسيليا، رقت كثيرا لمارسيل بانيول، الذي قصها لأصدقائه عدة مرات، ولم يتخيلوا أنه كتبها. وفي الواقع أنه كتبها بشكل جيد، ليس مرة واحدة فقط، ولكن مرتين. المرة الأولى في مطلع «زمن الحب» وقد حكيت كل القصة على لسان السيد سيلفان، المجنون الذي التقى به مارسيل وإيف بالفصل الثامن. ثم، ولأن هذا الوصف للجماعة الصغيرة التي أنقذها ذكاء وإقدام طبيب أسعده، كتبها مرة ثانية، مطورة. فقد فكر في أن يجعل منها عملا مستقلاً.

وعنوان: «المصابون بالطاعون» يوجد بالفعل في قائمة الأعمال الكاملة التي يعود تاريخها لعام ١٩٦٢، حيث احتل ذيل القائمة، مشتركا مع عمل «مانون ليسكوك» الذي سبق وأن تحدثنا عنه.

وقد جاء العمل نتيجة مختلفة تماما، عن التي نعرفها بالحكايات التي قصها مارسيل، والتي لم يحبرها. فبالإفلات من الموت، بدأ هؤلاء المصابين بالطاعون يعيشون حياة سعيدة حاول أهل «الأروش» حرمانهم منها. وقد لجأوا عندئذ الي «كهف المصابين بالطاعون» الشهير بعد أن طردهم الفلاحون.

وبعد مرور أعوام، لنا أن نتساءل: أليس من الممتع أن نجد أن ثلاث كتاب عظام من الجنوب، هم: كامو، وجينونو، وبانيول، قد وجدوا تقريبا نفس الموضوع ليصوروا لنا كوارث التاريخ، ورد فعل البشر إزاءها؟

وما يشير الفضول أكثر حال الفصل العاشر، المعنون بـ «حكاية لانيو العاطفية». فالنسخة التي لدينا لا تعود بالفعل لأعوام ١٩٥٩-١٩٦٢، وهي الفترة التي كتب فيها القطع الأخرى لزمن الحب. بل هي تعود لما قبل ذلك بكثير، لعام ١٩١٩، وقد عثر عليها بمعجزة في واحد من كراساته المدرسية، التي كان مارسيل بانيول، مدرس الإنجليزية، يسجل فيها الواجبات والدروس التي يعطيها، ونتائج اختبارات التعبير، إلخ. وقد جاءت كل التغيرات وتطورات الحكمة الروائية لهذه المغامرة الصغيرة مشابهة بالضبط لمثيلاتها التي سجلها بملاحظاته عام ١٩٦٠، وثلاث بدايات تحريرية قام بها في ذلك الحين.

لذا نكتشف بدهشة، أن مارسيل بانيول، قد تخيل بالفعل من أربين عاما سبقت، أن يكتب «تصرف» لانيو، وهو الشخصية التي ظهر اسمها الآن، لو أننا فتشنا جيدا، بروايته الصغيرة التي كتبها في شبابه «النكوص على العقبين». والتي ظهرت عام ١٩٣٣، لدى دار نشر فاسكيل، وحيث جمع روايتين نشرتا قبل ذلك بعشرة أعوام في «فورتنيو»، هما: «زواج بيلوك»، و «الفتاة الصغيرة ذات العينين الحزينتين». وقد تطلبت الأمور إذن، من هذه الحقبة، كتابة تلك الذكريات، بما أن العنوان العام الذي ضمها كان: «ذكريات جاك بانييه».

ولكن بالنسبة لبانيول، تعد المسودة التي في طور الإعداد، مسودة قابلة للتغيير. لم تصل لشكلها النهائي. والمؤلف حر في أن يحور بها حتى اللحظة الأخيرة، بل حتى بعد ذلك، بما أن طبعة أخرى، بمقدورها أن تعدل الطبعة التي ظهرت.

كان السبب إذن هنا. بمعنى أن «زمن الحب» قد تمت كتابتها عمليا، عندما خطرت للمارسيل، دفعة واحدة، فكرة جديدة. فقد وضع يده على شيء كان يشغله. إذ أن كل ما كتبه كان يصور رفاقه، والأساتذة، والأهالي، بأكثر مما صور مشاهد الحب. وبالجملة كان ما كتبه تعبيرا عن (زمن الثانوي) بأكثر مما

هو تعبير عن (زمن الحب) .

كان عليه إذن، في مرحلة لاحقة، أن يحاول القيام بإعادة صهر كاملة لـ (زمن الأسرار) و (زمن الحب) معا وأن يعيد، بطريقة ما، توزيع ما تتضمنانه بشكل مختلف. لذا حذف (حكاية إيزابيل) من زمن الأسرار، وهي قصة اللقاء الأول والحب الأول في سن العاشرة وقام بإعادة تشكيل (زمن الحب) من ثلاث حلقات رئيسية هي: حكاية لانيو العاطفية، وحكاية بلانشيت، التي التقى فيها بأول تجربة له في الحب الحقيقي.

وكانت الملاحظات عديدة، وكان عليه أن يُغير بهذا الشكل من مواضع عدة فصول من وقت لآخر، كما يلي:

في زمن الأسرار، تحتل حكاية إيزابيل ١٥٠ صفحة.

يجب أن تُلح محلها لعبة المشنوقين ومأساة لانيو، وربما مسابقة لعب الكرات، وباريون «بذلك تصبح إيزابيل في زمن الحب، مع لانيو، وبلانشيت وبومونيت».

في الواقع، كان الجزء الأول قد نشر بالفعل. لكن مارسيل لم يشغل نفسه به ولو قليلا. وهناك ملاحظة أخرى:

«زمن الحب تبدأ بإيزابيل، وهذا للطبعة النهائية، وفي الطبعة العادية، أبدأ بلانيو. والبقية ستكون بلانشيت، ثم السيدة إيف وروز؛ وفي البداية، إيف والسيد سيلفان؛ زيزي؛ والشعر».

لكن الفنان يقترح، والفن يشترط، كما يقولون، ونكاية في كل هذه القرارات الجميلة لم يعترف لا باقتراحه للطبعة الأولى، ولا للطبعة النهائية. فبعد قليل من الوقت على ذلك، تخلى مارسيل عن ذكرياته بشكل مفاجئ بعد أن كان مستغرقا فيها، وانشغل بأعمال أخرى، وراح يصرف أصدقاؤه بلطف ولكن

بحزم وخشونة، في كل مرة يتوسلون إليه فيها أن يكمل (زمن الحب).

إن مسار الإبداع مسار غامض. فلماذا أهمل مارسيل بانيول فجأة كتابه ، بعد أن أعلن بنفسه عن نشره عدة مرات، وبعد أن كتب الجزء الأعظم منه؟ وعلينا هنا أن نجيب عدة إجابات على هذا السؤال.

الإجابة الأولى، هي (الحيرة) . كان قد قرر، كما رأينا، أن يختم (زمن الحب) بحكاية مغامرة غرامه الحقيقي الأولى. ولكن لأنه لم يجد أن كتابه سيجيء بهذا الشكل كتاباً للأطفال، وقد تأثر مارسيل كثيراً بما حصلته مجد أبي، وقصر أمي، من قراء شباب وقراء صغار. فقد تسلم من أصدقائه وزملائه، والنقاد، عديداً من خطابات الإعجاب. لكنه تسلم أيضاً، وبالألاف، خطابات من الأطفال، الذين راحوا يكتبون له بلا انقطاع، من كل أرجاء فرنسا ، بأنفسهم ، أو مع ذويهم ، أو الخطابات التي تسلمها رسالة إليه من فصول دراسية بأكملها، تسأله ما إذا كانت هذه الطرائف حقيقية، أو أن هذه الشخصيات واقعية. وأصابته فكرة أن يصدم حيائهم بالجزء الأخير بالأسى، وقد عرض هذه الحجة كثيراً في مواجهة من ضفطوا عليه أن يكتبها.

الإجابة الثانية ، هي أنه رغب في التفكير- بشيء آخر. فهو ، على العكس من كتاب كثيرين، كان يحب الجديد، لأن الجديد أكثر صعوبة. وهذا ما كان أيضاً سبباً في أن إخفاقاته لم تحزنه. فقد كانت توظف تطلعه، وتجعله يرغب في تحليلها ، بدراسة الأسباب. على حين كانت نجاحاته تضجره سريعاً.

وبالفعل، وبعد قليل من نشر (زمن الأسرار) وجدناه يعود للعمل في النسخة المروية لرواية (مانون البنايع) التي تركها من عام ١٩٦٥. فأضاف إليها (جان دي فلوريت) وكون العملاق معا (ماء التلال) ، وقد ظهرت في نوفمبر ١٩٦٢، ومارس ١٩٦٣. وفي أثناء تلك الفترة أيضاً انفتحت شهيته للعمل بذكرياته ، وشرع في تحرير المقدمة الطويلة التي تحدثنا عنها فيما سلف،

وكذلك للعمل بسلسلة مقالات حول السينما وهي التي أكملها ونشرها بعنوان (معد سينمائي من باريس). وهي التي كانت في مجموعها تشكل بالطبع متابعة للذكريات، تتعلق بسنوات الشباب ؛ فقد كانت هي ذكرياته كمعد مسرحي وسينمائي. وقد عين لها مكانا في (الأعمال الكاملة)، فقد ضمن بانيول في ذلك الوقت ، وشعر، بأنه عليه أن يكتب عمله الرئيسي الكبير ويضع بصمته، المزوجة، ككاتب.

فهو، من جانب، لم ينظر أبدا لأي عمل على أنه عمل منته. فهو ليس من هؤلاء الفنانين الذين يتصورون أنهم يتقشون على الرخام. وقد علمه المسرح وعلمته السينما أن بالإمكان دائما، وبحسب الجمهور، أن نحور خطا، وأن نحذف مشهدا، أو نطيله، وهذه دروس لا ينساها أبدا. وتوجد لديه على الأقل خمس أوست نسخ مختلفة من «ماريو»، لذا فقد تهيأ لإعادة كتابه زمن الأسرار وزمن الحب، كما رأينا، بالكامل. وبالمقابل، وبشكل متواضع ومزهو في أن معا، أسعدته فكرة (الأعمال الكاملة)،

الإجابة الأخيرة، تتصور فيها أن العقبة التي جاءت لتحتطم مشروع (زمن الحب) كانت في مشروع من مشروعاته القديمة، عاد لصياغته ثانية، وهو الذي ضحى من أجله شيئا فشيئا بكل الباقي، وهو (قناع الحديد). اللغز القديم، وكعكة القشدة بمحلات الغلظة التاريخية، الذي راح يثير شغف مارسيل أكثر فأكثر، وحوله إلى وكيل نيابة، يتفحص الأرضيات، ويواجه الشهادات، ويقرأ كل الكتب، ويكس في لذة كل الفرضيات الجديدة. وهو ما جعله على العكس يثير فزع أصدقائه، بأن تعاسة كل البؤساء من سجناء الباستيل لم تؤثر فيه، وبالتفكير فيمن اعتبرهم هم الخاسرين، بدأ بالأسف العميق على أن لويس الرابع عشر لم تجر لصالحه محاكمة سريعة. أما مارسيل، ففي أعقاب نشر دراسته، أعلن أنه سيشرع في إعداد غيرها، بشكل مراجع ومنقح بإسهاب ؛ ومدعم بكم من الكشوفات للحقائق التي لم يسبق نشرها والمدهشة، ولم يخف

أصدقائه إحباطهم. لكن مارسيل، الذي كان يهوى إغاضة أصدقائه، لم يهتز، وأكد في حينها، بثقة، أن لديه سرًا:

– من الآن، وحتى مضي قرن، لو أن كتابا واحدا لي ظل باقيا، فسيكون هو هذا الكتاب وظل يعمل باستمرار، لعشرة سنوات في (قناع الحديد) الأثير لديه.

كانت المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها عن «زمن الحب»، في مساء يوم من أيام يناير، بمستهل عام ١٩٧٤. وكان عائدا من إقامة قصيرة (بالأرض)، على مقربة من كاني، وكان في تلك الفترة يعاني حالة من الإرهاق المستمر. كان النهار غير مشمس، والصالون باردا ورطبا بعض الشيء. وقد جلس هو على الأريكة الكبيرة، فكان يبدو كأنه طفل أهملوه وحده بالمنزل وعليه سيماء التعاسة.

– هذه المرة قال لي، أعدك، سأعطيك «زمن الحب» في الربيع. فضلا عن أنها مكتوبة، وما على إلا أن أصدق وأفتش عنها، إنها جاهزة.

وفي اليوم التالي، دخل المستشفى الأمريكي، ليخضع لبعض الفحوص. وعاد منها بعد ثلاثة أيام، وكان حائقا، يقول أن بالإمكان أحيانا أن نعيش مع المرض، ولكننا لانستطيع أبدا الحياة مع الأطباء، ثم رقد، وراح يحل بعض المعادلات، ويدخن السجائر القوية، وقبل زوجته، ومات.

عندما انتهى كل شيء، وقدر له أن يعود لقرية الكرمة ليرقد في مقبرتها الصغيرة، إلى جوار «الحصن الجديد» غير بعيد عن «قصر أمي» الذي لم يكن قصر أمه، لم تكن لدينا رغبة كافية للتفكير بعمل مارسيل.

بالنسبة للجمهور، لم يتغير شيء. فكتبه صارت تباع بكثرة، وأفلامه تعرض برواج، ومداخلاته تذاق بالتلفزيون؛ لقد صار على العكس حاضرا بشكل رائع. ويفضل سحر السينما، تمكنا من التحقق من المعجزة التي حدثنا عنها، وهي

معجزة.

المصباح الصغير «الذي يعيد علينا عرض صور العباقة الذين قضوا نحبهم والراقصات اللاتي توفين، ويوقد عاطفتنا بابتسامات الأصدقاء الذين فقدناهم».

ولكن بالنسبة لنا، نحن أصدقاؤه، فقد جرت الأمور بطريقة مغايرة بعض الشيء. فقد تيقنا أننا لن نتمكن بعد من محادثته بالهاتف في السادسة مساء لنقول له بأننا سنمر عليه، ولا أن نستمع له بالساعات، ورحنا نفكر بالسهرات السعيدة، الكثيرة، التي دعانا لها، وبابتسامته التي لم يتلفها المرض أبداً. فهذا المفجع «المدعو بالموت» -الذي يستمد قوته الرهيبة مما هو ليس فكرة مجردة ولا مما هو شعور عام، وإنما مما يستيقظ كل لحظة، عبر ألف تفصيل من تفاصيل الحياة اليومية- خيم علينا، وصنع حوله ما يشبه الصمت العميق.

مع ذلك، وبعد مضي بضعة أشهر، رغبت في أن أتأكد من الحقيقة. فهل كان مارسيل يقول الصدق، عندما أكد بأنه قد انتهى، عملياً، من الكتاب؟

كانت جاكولين، زوجته، وريثه، شقيقه في شك من هذا.

- أنت تعرفه، ربما كان فقط يريد أن يدخل السرور إلى نفسك.

ولم تكن سوى طريقة واحدة أمامي للمعرفة، وعدنا لمكتب مارسيل. ولم يكن ما قمنا به عملاً بسيطاً، لأن المكتب كان في حالة فوضى أكثر مما هو في حالة ترتيب. وشيئا فشيئا تكشف لنا كل شيء، حكاية المصابين بالطاعون، اللطيفة، التي حكاها لنا والتي أسفنا على أنه لم يكتبها، والقطع والأجزاء التي نشرها بالمجلات، والتي لم يحدث أحدا بشأنها أبداً. كما وجدنا ملاحظاته، وخطوطه، ومسوداته. وتكونت الفصول أماننا كاملة، ورأينا الكتاب يتشكل أمام أعيننا، وعرفنا أن مارسيل لم يكذب.

هل يمكن طباعة الأعمال بعد وفاة مؤلفها؟ أي هذه الأعمال التي كان

من الوارد أن تخضع لتغيرات كثيرة، وتكتمل، وتنضج، ولم يسعف الوقت بذلك.

هناك من الناس من ينكر هذا. ولو خضعنا لرأيهم لكان من الممكن أن يصبح في حكم المنسي كل ما كنا سنفقد بهذا الشكل، بداية من الإنياذة، التي ضُفِط فيرجيل على أصدقائه لكي يحرقوها لأنه لم يكن قد صاغها صياغتها الأخيرة، وانتهاء برواية «الزمن المستعار» لمارسيل بروس التي لم يكن قد أصلحها بعد.

لا بد دائماً، بالطبع، أن تنشر الكتب التي مات مؤلفوها. حتى لو كانت كتباً غير ناضجة، ولا جدوى من وراء نشرها إلا أن نضيف بعض الأشياء لمعرفتنا بالكتاب. ومن باب أولى إذا كانت تضيف شيئاً لعمله.

وتلك هي بالطبع، وبلا شك، حالة «زمن الحب». فهذا الجزء الأخير، ورغم كل ما ينقصه، يتضمن بضع صفحات من أجمل ما كتب مارسيل بانيول، ومن أكثرها تأثيراً، وطرافة، في النثر الغني والشفاف في أن معاً، والتميز ببساطة وعبقورية قريحته، وألمعيته، والذي يجعلنا، ونحن في صمت القراءة، نستمتع إلى قوة تعبيره.

وهي تقدم لنا أيضاً عدداً من الاكتشافات الساحرة حول فن الكاتب.

منها أولاً قدم هذا الموضوع لديه. فكل ما نشره من إبداع عبر حياته الكاملة كانت بذرتة متضمنة في السنوات الأولى لهذه الحياة. وإنه من الممتع لنا أن نرى الصغير لانيو وحكاياته العاطفية في عمل مكتوب بسنوات البلوغ، وأن نفهم أن هذه الذكريات، والتي كان تحريرها، في ظاهره الحداثي، قد تم بابتهاج من رجل في الستين من عمره، إلا أنها كانت مختصرة فيه طيلة الوقت.

وإذا كان الموضوع قديماً جداً، فإن الشكل على العكس، لم يتوقف عنده عن الاغتناء. ويكفي أن تقارن الفصل الأخير الوارد بهذا العمل، والذي كتبه مارسيل الشاب في سن العشرين، والذي لمعت فيه قدراته الطبيعية، مع الهوى المجذل، مع الهزل، مع السخرية النزقة، مع الخيال المتدفق، بكل الفصول التي سبقته، لكي نقيس المسافة التي تحرم هذا الفصل من التحكم الهائل، والدقة الرائعة للأسلوب الذي تحدد فيما بعد. فليس هناك تطور بالفن، ولكن هناك تطور لدى الفنانين.

وأخيراً، لشيء يعرض أفضل من زمن الحب كيف أن عبقرية بانيول، عبقرية كاتب واقعي. فالأشياء، والبشر، والمشاهد التي أحب وصفها، كانت دائماً من صميم الحياة وإذا كان قد استنسخ منطوق شخص منحرف عند حكايته لمغامرات طلاب الثانوي هؤلاء، فإن ذلك كان دائماً بهدف وصف ماحداث، لكي يتذكر ما هو موجود. ولقد سجل هو بنفسه ملاحظة بذلك، في واحدة من أفكاره التي واثته وكتبها في هامش كراساتهِ والتي صارت تقريباً عقيدته المعلنة في كل أعماله:

أنا أحب الناس كثيراً. والذين لا أحبهم أهتم بهم. فأنا أفضل رجلاً أو امرأة أو منظرًا جميلاً. «ليس هناك ما أراه غريباً فيما هو إنساني»، قال تيرنس. وأنا أضيف: «ليس هناك شيء غير إنساني ترك تأثيره في».

«لو أنني كنت رساماً، لما صورت سوى وجوه الناس».

وهذه الملاحظات المختصرة. لا تهدف لأن تضيف دراسة أدبية إلى عمل اكتمل بشكل بديع. لكنها تهدف فقط لضبط وضع غير عادل ولأن تشير إلى طريق. فلقد غطى نجاح بانيول لزمن طويل، على المهوبة، وأخفت شخصيته الكاتب، ومنذ موته، كان هو قبل كل شيء، الذي أخذ على عاتقه أن يحث البعض على تذكره، لكي يحتفوا بطرائفه ويقدر من أساليبه المثيرة للإعجاب

والتي تصنع جاذبيته. وهذا الجانب من بانيول موجود، وعظيم ألا ننساه، فهو جزء من تاريخ الأدب، الذي احتل فيه مكانا، كما لو كان بمتحف الشمع، جالسا في حانة البحرية، مع أصدقائه: فنسان سكوتو، ورايمو، وتينو روسي، متأهبين للشروع في لعب الورق. لكن هناك بانيول آخر، وجانب آخر له يبدأ الآن، يجتمع فيه مع رابليه ولافونتين وموليير. وربما تكون اللحظة قد جاءت للحديث عنه.

ونحن حين ندرس مارسيل بانيول، نعترف بما قدم، ككاتب فرنسي أصيل وعظيم.

عناصر ديناميكا حرارية جديدة

مقدمة، ١٩٣٠

مارسيل بانيول

عندما يتخذ البعض قراره، يكون سعيدا جدا ومستريحا، ولكن يكون من الصعب عليه تحديد خياره، والتحكم في حياته الخاصة. وقد فعلت أنا هذا الآن.

لقد كتبت توباز و ماريو و فاني، ونفذتها في حدود إمكانياتي.

لذا فسأترك الساحة الآن لأن لدى عمل عليّ القيام به منذ وقت طويل، ولم يكن لديّ أبداً وقت لعمله. وسأعرضه للقارئ. وأقدم له أسبابي.

لقد ثققت ثقافة أدبية، وقمت بما عليّ، ككل الناس، أي أنني في سن الخامسة والعشرين حصلت على عدد من الشهادات الجامعية، وتمكنت من قراءة نصوص هوميروس، وفيرجيليوس، وجوته، وشيكسبير. لكنني كنت مازلت أتصور، بكل حسن نية، أن ثلاثة في أربعة تساوي ستة.

لقد حضرت بالطبع، بالثانوي، دروس الرياضة والعلوم، ولكنها كانت دروسا مصاحبة للدراسة الأدبية، فهي دروس مقتضبة، وملخصة، تنزلق على الأسباب لكي تصل إلى تلقيننا القواعد، لأننا لم تكن لدينا القدرة على متابعة الأسباب، فضلا عن أننا لم يكن لدينا الوقت، في ساعتين أسبوعيا، لتعلم كل الهندسة، والجبر، والحساب، والفيزياء، والكيمياء والفلك. وكان أستاذنا الطيب، المدعو السيد كرو، والذي كان يبيعنا (بالخسارة) الدروس المنسوخة، ويكن لنا عاطفة كبيرة رقيقة، وكثيرا من الاحتقار. وعندما شرح لنا عدة قواعد كاملة، قال لنا: ليس بمقدوري أن أشرح لكم براهينها، فلن تفهموها ؛ ولكن عليكم حفظها. وأنا أؤكد لكم بأنها مضبوطة، وأن لها أسسا راسخة. وعموما، لم تكن هذه

دروساً في العلوم، بل كانت دروساً في العقيدة العلمية، وكانت طرحا متصلا للأشياء الغامضة.

وهذا هو السبب، الذي جعلني، بعد عشر سنوات من ذلك، أفتح ذات يوم كتاب الفيزياء، وهو ما جعلني أقرأه بالكامل.

في بعض الأحيان، عندما كان تلميذ يطرح سؤالاً، كان السيد كرو يحاول أن يشرح ؛ ولكن في سرعة، وخفة، وتحويل للموضوع، بغير الدخول في صلبه، كأنه رجل مهذب أرغم على أن يحكى حكاية فاحشة أمام السيدات. فكان يختصر ويسرع.

ومن القواعد التي أعطاها لنا، وكان بعضها يخلب اللب. وكان يتشدد منشداً إياها من على منبره:

إن محيط الدائرة يعتد

بكونه يساوي ٢ ط نق

والدائرة تسعد جداً

بأن مساحتها تساوي ط نق ٢

وكان يبتسم. كما لو ليقول: بما أنكم طلاب الأدبي فأنا أدرس لكم الشعر. وبعد أن كان يتلو مثل هذه القصيدة، كان ينظر لنا، سعيداً ومفتوناً، كما لو ليقول: هيه؟ هل ستعرفون وتفهمون هذا الشيء؟ وكان الفصل كله يندهش لاعتداد المحيط وتأسره سعادة الدائرة، ويعبر عن إعجابه بالتهديدات الطويلة. على حين كان السيد كرو يخطط منبره بفرجار كبير من الخشب، وهو يقول: «انظروا أيها السادة، لا تحقروا أبداً ربة الفن، بما أنها جاءت لتعين العلوم.»

وكان يقول أيضاً

«كتلة الكرة»

مهما حاول البعض أن ينكر

تساوي $\frac{4}{3}$ ط نق ٣ .

ثم كان ينتظر لمدة عشرين ثانية.

ويذرع الفصل ببصره من أول إياف بورد حتى أفيرينو، ثم يهمس رافعا
سبابته وهو مغمض عينيه نصف إغماضة ويضيف:

حتى ولو كانت من الخشب

ويعطي أهمية لهذا البيت الأخير؛ الذي كان يتلوه بنوع من الخشونة
المنتصرة.

ولكنه لم يكن يوجهه لنا أبداً، فقد كان يتحدث مع الكرة نفسها. يتوعدنا،
وينذرها؛ بسبب بعض الذرائع التي تتقنع بها، وبعض العظائم التي تسبب عنها
نواياها السيئة؛ حين تتقمص بعض المواد، بطريقة الحرياء كأن تكون ممتلئة، أو
مجوفة، ثقيلة أو خفيفة، من الصلب، أو الجرافيت، أو الطباشير، أو المنجنيز، أو
النحاس، أو الجص. أو الزنك المقصود؛ أو حتى (وتلك حالة التكرار القصوى)
لو كانت من الخشب، فهي أبداً لن تهرب من القاعدة المكيئة التي حبسها
فيها الهندسة، وقبضت عليها فيها، وحددت معاييرها، وقهرتها. فليس بالإمكان
الهرب من زناد هذا السلاح الرهيب؛ $\frac{4}{3}$ ط نق ٣ وهي من الخشب.

وهي، مستديرة ومكتنزة، وقد نقش البعض صورة جثتها على صفحة
مسطحة من الورق، ولا شيء بمقدوره الهرب من زناد هذا السلاح المعدني:

$\frac{4}{3}$ ط نق ٣ حتى ولو كانت من الخشب.

وبعد هذا الانتصار، كان السيد. كرو ينتظر برهة أخرى. وكان وجهه يهدأ؛
ثم يصير حالماً، متسامحاً، كريماً، وهو يلفظ حرف الراء بشراسة أقل، ويضيف:

يمكننا القول أيضاً:

حتى لو صارت من الخشب.

وهو ينطق كلمة الخشب ضاغطاً على كل حروفها.

كانت دروس الفيزياء والكيمياء يعطيها لنا السيد. أونيتو.

وكانت له لحية صغيرة سوداء، تجعله يشبه مفيستوفليس، ولكن على مظهر أكثر شبابا بكثير ؛ وكان ذا سطوة شديدة، وطيبة قلب كبيرة.

ومثله مثل السيد كرو كان ينطق حروف الراء بطريقته، كما كان يكن هو الآخر لنا نوعا من الاحتقار الودود.

فقد كان البرنامج الذي يعلمه لنا أحقما تماما، يفرض عليه أن يدرس، في مائة وخمسين درسا، كل الفيزياء، وكل الكيمياء، للمستهترين الذين لا يعرفون كيف يحلون معادلة من الدرجة الأولى، والذين يجيئون له مباشرة من درس الفلسفة أي مرشوشين بالكامل بـ بيركلي و بحبة رمل فيخته، وموضوعات الأمر المطلق و الفلسفة العملية، وأوجست كونت وبارالييتون.

لذا، وبكثير من الصبر، ولكي يثير حماس الحمقى الكبار، أي نحن، كان يقوم أمامنا ببعض التجارب. وعندما أفكر في حصص العلوم هذه، أرى أمامي قطعة من السلك مخترق في مخبار أكسجين ؛ ومصباح زئبق، يضيء لونا أخضر على لحية السيد. أونيتو السوداء ؛ ومخباراً يهزه وهو يقول: سترون، سوف يتحول للون الأزرق (ثم يتحول للأحمر الزاقع) ؛ وأخيراً أرى -بين صيحات تمجيد زملائي بفصل الفيزياء - قطعة مخبولة من الصوديوم تطلق رشقات صاعقة على سطح ما يشبه القصرية، وهي ترسل بالوميض الخاطف، مع البصقات المهتاجة، في مشهد يشبه مشهد حريق تحت الماء .

لقد جعلتني الأشعار الحماسية للسيد. كرو، ومفرقات الشعوذة للسيد أونيتو، أنتج في البكالوريا، بغير أن أفهم شيئا بالرياضيات أو الفيزياء لكن هذين الأستاذين الطيبين علماني، بدون أن أدرك، الشيء الوحيد الذي تمكننا من تعليمي إياه، وهو أهم شيء: فقد علماني كيف أكون شغوفاً بالتعلم.

حياة مارسيل بانيول

ولد مارسيل بانيول في ٢٨ فبراير ١٨٩٥ في مدينة أوبان Aubagne، لأب هو، جوزيف Joseph، الذي ولد عام ١٨٦٩ وكان يشتغل معلماً وأم هي أوجستين لانسو Augustine Lansot، التي ولدت عام ١٨٧٣، وكانت تعمل حائكة.

وقد تزوج أبوه من أمه في عام ١٨٨٩

١٨٩٨ : ولد بول Paul الصغير، أخوه.

١٩٠٢ : ولدت جرمين Germaine، أخته.

١٩٠٣ : قضى مارسيل إجازته المدرسية الأولى بقرية الكرمة La Treille، على مقربة من أوبان.

١٩٠٤ : تم تعيين أبيه بمرسيليا Marseille، حيث انتقلت العائلة لتستقر هناك.

١٩٠٩ : ميلاد رينيه René أخوه الصغير.

١٩١٠ : وفاة أوجستين.

وأمضى مارسيل كل دراسته الثانوية بمرسيليا، بمدرسة تيير الثانوية Lycée Thiers، وختم حياته الدراسية بالحصول على ليسانس في الأدب الإنجليزي

من جامعة إكس أن بروفانس Aix-en- Provence . أسس مع بعض من زملائه مجلة فورتنيو الأدبية، التي صارت فيما بعد كراسات الجنوب.

في عام ١٩١٥ عين أستاذاً مساعداً بتاراسكون Tarascon .

وبعد أن قام بالتعليم في عدة مؤسسات مدرسية في باميه Pamiers ثم في إكس، صار أستاذاً مساعداً ومعيداً خارجياً بمرسيليا، من عام ١٩٢٠ إلى ١٩٢٢ .

في عام ١٩٢٣ عين بياريس بثانوية كوندورسيه Lycée Condorcet .

كتب مسرحيات : تجار المجد Les Marchands de gloire (مع بول نيفوا Paul Nivoix) ، وجاز Jazz التي أحرز بها أول نجاحاته (بمونت كارلو، ثم بمسرح Théâtre des Arts ، بياريس عام ١٩٢٦)

وفي عام ١٩٢٨ ومع تقديم مسرحية توباز Topaze (منوعات) ، علا نجمه، في غضون أسابيع ووضع قدمه بالفعل على طريق عمله كمؤلف مسرحي.

بعد ذلك مباشرة تقريباً، حقق نجاحاً كبيراً بمسرحية ماريو Marius (مسرح باريس Théâtre de paris، ١٩٢٩)، والتي استدعي للعمل معه فيها الممثل الكبير رايمو الذي لعب دور قيصر بالثلاثية.

وظل رايمو حتى وفاته (١٩٤٦) صديقه وبطله المفضل.

في ١٩٣١ . أخرج سير ألكسندر كوردا Sir Alexander Korda ماريو بالتعاون مع بانيول، وتصادف إنتاج هذا الفيلم مع بداية السينما الناطقة، وكان أيضاً بداية عمله السينمائي الطويل الذي واصله، والذي انتهى عام ١٩٥٤، مع خطابات طاحوتي Les lettres de mon moulin . وقد عمل بانيول بواحد وعشرين фильماً من ١٩٣١ إلى ١٩٥٤ .

في عام ١٩٤٥ تزوج من جاكلين بوفيه Jacqueline Bouvier التي أسند

إليها عدة أدوار، خصوصا دور مانون في مانون الينابيع Manon de sources عام (١٩٥٢).

في عام ١٩٤٦ انتخب عضواً بالأكاديمية الفرنسية Académie française ،
هو العام نفسه الذي شهد ميلاد ابنه فريدريك Frédéric.

في عام ١٩٥٥ ، ظهرت له يهوذا Judas في مسرح باريس.

في عام ١٩٥٦ ، عرضت فابيان Fabien في مسرح الغنائيات
الباريسية Bouffes Parisiens.

في عام ١٩٥٧ ، نشر الجزأين الأولين من ذكريات طفولة : مجد أبي
وقصر أبي

في عام ١٩٦٠ ، نشر الجزء الثالث من ذكريات طفولة : زمن الأسرار.

في عام ١٩٦٣ ، نشرت ماء التلال L'Eau des collines ، مكونة من جان
دي فلوريت Jean de Florette ، و مانون الينابيع.

وأخيراً في عام ١٩٦٤ قدم قناع الحديد Le Masque de fer.

وفي ١٨ أبريل ١٩٧٤ توفي مارسيل بانيول بباريس.

في عام ١٩٧٧ ، نشر العمل الذي تركه وهو الجزء الرابع من ذكريات
طفولة : زمن الحب .

قائمة أعمال مارسيل بانيول

- ١٩٢٦ «تجار المجد». بالتعاون مع بول نيفوا، باريس (L'illustration).
- ١٩٢٧ «جاز». مسرحية من أربعة فصول، باريس. L'illustration. ونشرتها Fasquelle عام ١٩٥٤ .
- ١٩٣١ «توباز». مسرحية من أربع فصول، باريس. (Fesquelle).
- ١٩٣٢ «فاني Fanny». مسرحية من ثلاثة فصول وأربع لوحات، باريس. (Fes- quelle)
- «النكوص على العقبيين Pirouettes»، باريس Fesquelle، (مكتبة شاربتييه Biblotheque charpentier).
- ١٩٣٣ «جوفروا Jofroi». فيلم من إعداد مارسيل بانيول عن Jofroi de La Maussan. تأليف جان جيونو Jean Giono
- ١٩٣٥ «ميرلوس Merlusse». نص معد خصيصا للسينما، باريس Petite Illus و tration Fasquelle عام ١٩٣٦ .
- ١٩٣٦ «سيجالون Cigalon» باريس، Fesquelle (أعقبت ميرلوس).
- ١٩٣٧ «قيصر César». مسرحية من جزأين، وعشر لوحات، باريس. (Fes- quelle)
- «ريجان Regain». فيلم لمارسيل بانيول، عن رواية جان جيونو: Le ، ١٩٥٩. Fesquelle. باريس. مارسيليا، مارسيل بانيول. Schpountz . مختارات «الأفلام التي يمكن قراءتها»، باريس - مارسيليا، مارسيل بانيول. Fesquelle . ١٩٥٩ .

- ١٩٤١ «ابنة حافر الآبار La fille du puisatier». فيلم. باريس. (Fesquella).
- ١٩٤٦ «الحب الأول Le premier Amdur». باريس، منشورات La Ren naissance. النهضة.
- رسوم بيير لافو. pierre Lafaux.
- ١٩٤٧ «ملاحظات حول الضحك Notes sur le rire». باريس (Nagel).
- «خطابات الاستقبال بالأكاديمية الفرنسية Discours de réception à l'Académie Française» ٢٧ مارس ١٩٤٧، باريس. (Fesquella).
- ١٩٤٨ «زوجة الطحان الجميلة La Belle Meunière». سيناريو وحوار على موسيقى لفرانز شوبرت.
- «مختارات «أساتذة السينما»». باريس. (منشورات Self).
- ١٩٤٩ «نقد النقد Critique des critiques». باريس، (Nagel).
- ١٩٥٣ «إنجيل Angèle». باريس، (Fesquella).
- «مانون البنايع». إنتاج مونت كارلو.
- ١٩٥٤ «ثلاث رسائل من طاحونتي Trois lettres de mon moulin». إعداد وحوار فيلم عن عمل ألفونس دوديه. باريس. Flammarion.
- ١٩٥٥ «يهودا» مسرحية من خمسة فصول، مونت كارلو، pastorelly.
- ١٩٥٦ «فابيان»، مسرحية من أربعة فصول، باريس، مسرح، شارع ماتينيون Matignon.
- ١٩٥٧ «ذكريات طفولة». الجزء الأول: مجد أبي، الجزء الثاني: قصر أمي، مونت كارلو، (Pastorelly).

- ١٩٥٧ «خطاب استقبال مارسيل آشارد Marcel Achard بالأكاديمية الفرنسية،
وإجابة مارسيل بانيول، ٣ ديسمبر ١٩٥٩» باريس. (Firmin Didot)
- ١٩٦٠ «ذكريات طفولة»، الجزء الثالث: زمن الأسرار. مونت كارلو، (Pas-
tonelly)
- ١٩٦٣ «ماء التلال». الجزء الأول: جان دي فلوريت، الجزء الثاني: مانون
البناييغ، باريس. منشورات de Provence
- ١٩٦٤ «قناع الحديد». باريس، منشورات (Editions de Provence).
- ١٩٧٠ «صلاة النجوم La Prière aux étoiles»، «كاتول Catulle»، السينما
الباريسية، Cinématurgie de paris جوفروا، نايبى Naïs. باريس،
الأعمال الكاملة. منتدى الرجل الأمين Club de l'Honnête Homme.
- ١٩٧٣ «سر قناع الحديد Le Secret du Masque de fer». باريس منشورات
(Editions de Provence).
- ١٩٧٧ «زمن الحب»، ذكريات طفولة، باريس، Julliard
- ١٩٨١ «إسرارات Confidences». باريس Juillard
- ١٩٨٤ «الفتاة الصغيرة حزينه العينين La petite Fille Yeux sombres». باريس،
Julliard
- وطبعت أعمال مارسيل بانيول بمجموعة الجيب «فورتنو Fortunio»
بمنشورات de Fallois
- ترجمات :
- ١٩٤٧ وليام شكسبير، هاملت. ترجمة وتقديم مارسيل بانيول، باريس، Nagel

١٩٥٨ فيرجيل، Les Baccoliques . ترجمة شعرية . وتعليقات مارسيل بانبول .
باريس . (Grasset).

١٩٧٠ وليام شكسبير . حلم ليلة صيف . باريس . الأعمال الكاملة (متتدى
الرجل الأمين Club de l'Honnête Homme).

الأعمال السينمائية

- ١٩٣١ - ماريو (إخراج ألكسندر كوردا — بانيول).
١٩٣٢ - توباز (إخراج لويس جاسنييه Louis Gasnier).
فاني (إخراج مارك إليجريه Marc Allegret) إشراف مارسيل بانيول.
١٩٣٣ - جوفروا (عن : جوفروا دي لاموسان Jofroi de la Maussan — جان جيونو).
١٩٣٤ - أنجيل (عن : واحد من بومون Un de Baumugnes — جان جيونو).
١٩٣٤ - المقال رقم ٣٣٠ (عن كورتيلان Courteline).
١٩٣٥ - ميرلوس.
سيجالون.
١٩٣٦ - توباز (النسخة الثانية).
قيصر.
١٩٣٧ - ريجان (عن : جان جيونو).
١٩٣٧ - ١٩٣٨ Le Schpountz.
١٩٣٨ - زوجة الخباز La femme du Boulanger (عن : جان جيونو).
١٩٤٠ - ابنة حافر الآبار.
١٩٤١ - صلاة للنجوم (لم يتم)

- ١٩٤٥ - نايبى (إعداد وحوار عن : إميل زولا — إخراج ريمون لوبورسيه Raymond Lebourcier ، إشراف مارسيل بانيول) .
- ١٩٤٨ - زوجة الطحان الجميلة .
- ١٩٥٠ - روضة السيدة هوسون Le Rosier de Madame Husson (إعداد وحوار لقصة لجي دي موباسان — إخراج جان بوييه Jean Boyer) .
- ١٩٥٠ - توباز (النسخة الثالثة) .
- ١٩٥٢ - مانون الينايع .
- ١٩٥٣ - مهرجان Carnaval (إعداد وحوار عن عمل لإميل مازو E.Mazaud ، إخراج هنري فيرني Henri Verneuil)
- ١٩٥٣ - ١٩٥٤ - رسائل من طاحونتي (عن إعداد رواية ألفونس دوديه) .
- ١٩٦٧ - قس كوكو نيان Le curé de Cucugnan (مساعدة بالإخراج — عن رواية ألفونس دوديه) .



صدر في هذه السلسلة:

- ١ ، أيام من حياتي ❖ هرام هسه
- ٢ ، قصص التحول ❖ جوجول، كافكا، روت
- ٣ ، أثر العابر ❖ أمجد باسر
- ٤ ، من معجزة البدايات ❖ محمد عفيفي مطر
- ٥ ، حصار البحر ❖ خالد عبد المنعم
- ٦ ، خطوط الضعف ❖ علاء خالد
- ٧ ، مرمع يصلح لتعلم الرقص ❖ إيمان مرسل
- ٨ ، ثمة موسيقى تنزل السلام ❖ علي منصور
- ٩ ، صمت قطة مبتلة ❖ فاطمة قنديل
- ١٠ ، شهرواه في الفكر العربي الحديث ❖ د. مصطفى عبد الفتى
- ١١ ، إغواء الغرب ❖ اندريه مالرو
- ١٢ ، لا أحد يأتي هذا المساء ❖ محمد موسى
- ١٣ ، حوريات البحر ❖ إدوار الخراط
- ١٤ ، حواس خاسرة ❖ منعم الفقير
- ١٥ ، طيور جديدة... لم يفسدها الهواء ❖ طارق إمام
- ١٦ ، سراب التريكو ❖ حلمي سالم
- ١٧ ، صورة شخصية في السبعين ❖ جان بول سارتر
- ١٨ ، ٠٠٠ وليلة ❖ صفاء بتيحي
- ١٩ ، أبيض القدم ❖ سعد الحميد
- ٢٠ ، في البحث عن لؤلؤة المستحيل ❖ د. سيد البحراوي
- ٢١ ، الدليل اللغوي العام ❖ سليمان فياض
- ٢٢ ، الأفعال العربية الشاذة ❖ سليمان فياض
- ٢٣ ، قصة الأدب الفرنسي ❖ د. أمينة رشيد
- ٢٤ ، معجم تفسير الأحلام في ضوء علم النفس الحديث ❖ توم شيترايند
- ٢٥ ، لماذا؟ ❖ إدوار الخراط
- ٢٦ ، الكتابة ❖ مرجريت دوراس
- ٢٧ ، معجم الجحيم ❖ سيف الرحبي
- ٢٨ ، في مسكونة العقاب ❖ فرانس كافكا
- ٢٩ ، غواية موتى ❖ سلوى نعيم
- ٣٠ ، أصوات مراکش ❖ إلياس كانيثي
- ٣١ ، إن تغت القصائد أو انطقات فهي بي ❖ فوزية شويش السالم

- ٣٢، ابعاد من زنجبار ❖ محمد الحارثي
٣٣، انايد ❖ محمد يوسف
٣٤، فضاء المراتبي ❖ عبد الله السمعلي
٣٥، المشي اطول وقت ممكن ❖ إيمان مرسل
٣٦، فحم التماثيل ❖ محمد عيد إبراهيم
٣٧، فرضي لا اتقنها ❖ محمد عباس
٣٨، تشكيل الأذى ❖ ميسون صقر
٣٩، طريق الرماد ❖ منير رمزي
٤٠، مجلد أبي ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ١)
٤١، قصر أمي ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ٢)
٤٢، زمن الأسرار ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ٣)
٤٣، زمن الحب ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ٤)

مطابع انترناشيونال پريس ت : ٣٤٧٤٢٥٩



عندما أستعرض السلسلة الطويلة من الشخصيات التي عشتها في حياتي، أنساءل عن ذلك الشخص الذي كنته كل مرة، فمع أمي، كنت غلاما صغيرا مطيعا متفانيا. متهورا أحيانا، وضعيفا أحيانا أخرى؛ ومع كليمنتين، كنت متفرجا مندهشا باستمرار، ولكنه متفوق بقوته الجسمانية التي لا تضاهي (أعني لا تضاهي بقوتها هي) ؛ ومع إيزابيل، ركضت على أربع، ثم هربت، متقرزا ... وبالمدرسة الثانوية، أخيرا، كنت زعيما، ومنظما مأكرا، ولم أكن أرغب إلا في شيء واحد، هو عدم إدخال أهلي في المملكة التي اكتشفتها، خشية ألا تكون مكانا مناسباً لهم.

مارسيل بانبول